

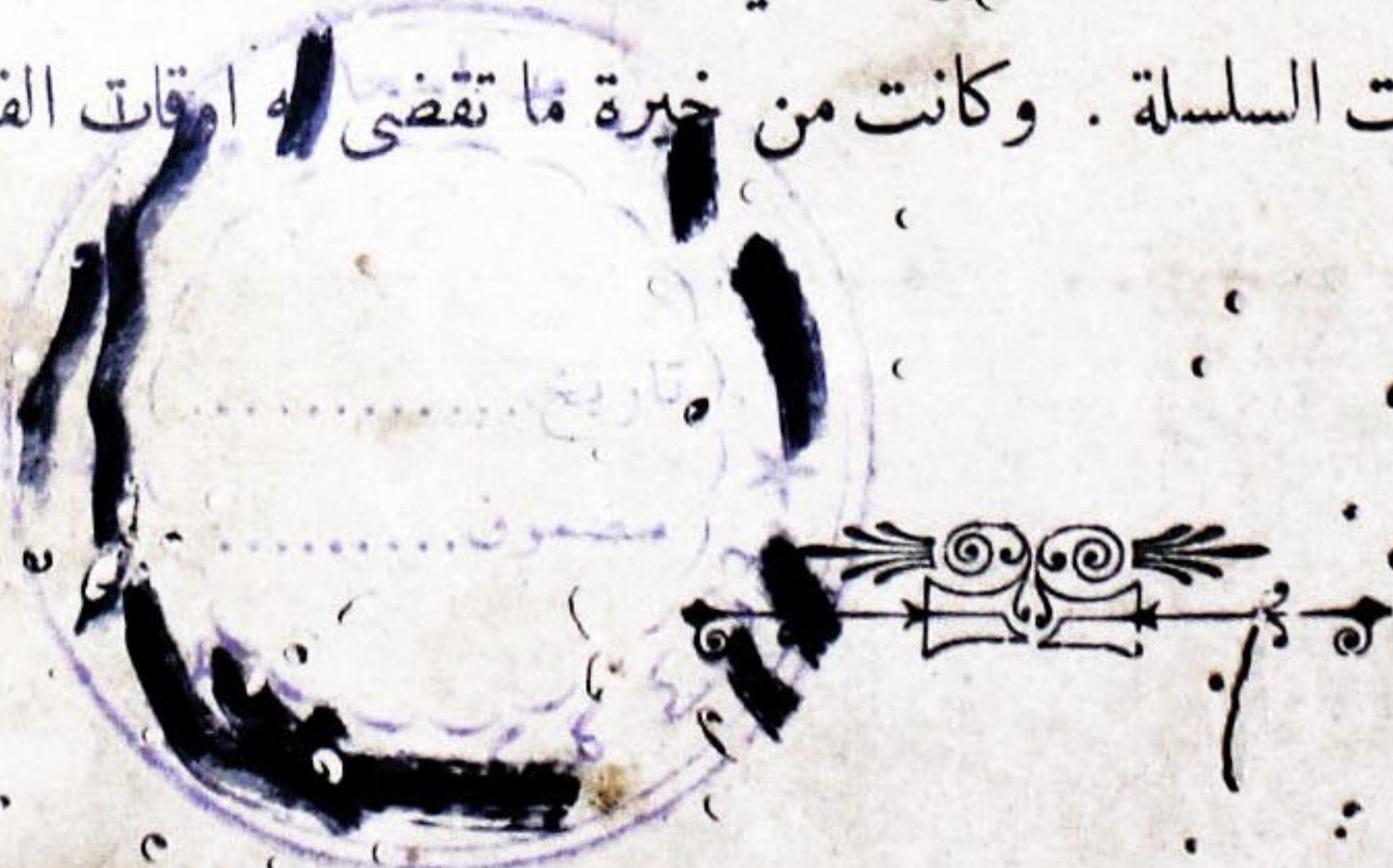
المقدمة

135/31

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام (غير رواية انقلاب العثماني) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور الاخلاقية والاجتماعية عما كانت عصر الماضية لاختلاف الاشخاص القاطنين بها عن اهل تلك الاعصر.
طال هذه الرواية من الاكراذ وزعيمهم السلطان صلاح الدين المشهور. وهي سعيه في استخراج مصر من الدولة العبيدية او الفاطمية باسم السلطان نور الدين حبيب السلام. لكنه ارادها لنفسه فاشترنا الى ما اقتضاه ذلك من المساعي وما تخلفه من احداث الغريبة. ومن جملة اعمال الحشاشين او الاسماعيلية الذين تكاثروا في ذلك العصر برئاسة اميرهم الشيخ راشد الدين سنان. وكان لهم شأن في قتل كثير من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبذلنا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارى كما يستفاد من مجمل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقض واختلاف ليس هنا محل تحقيقها. وانما جمعنا في هذه الرواية اغرب ما يروى عنها من المعجزات المدهشة

ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة واذا اضفنا اليها ما نشر من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام - نعني استبداد المماليك والمملوك الشارد واسير المتمدني والانقلاب العثماني - بلغ عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ رواية ١٦ منها في تاريخ الاسلام من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة واربع في تاريخه من اواسط القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني. فاذا وفقنا الى اصدار الحلقات لموصلة بين هاتين المدينتين تمت السلسلة. وكانت من خيرة ما تقضى له اوقات الفراغ بلذة وفائدة والله الموفق



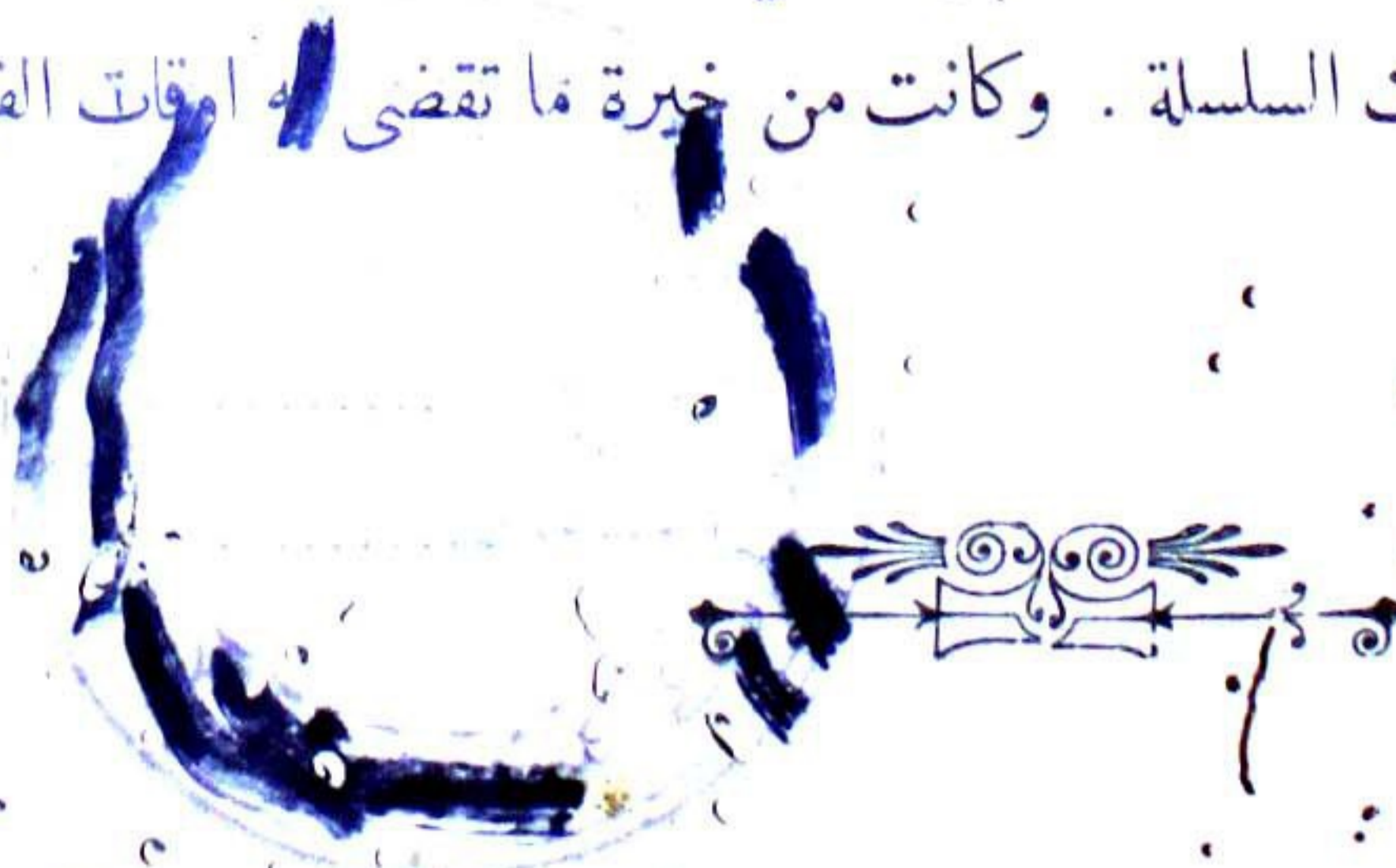
المقدمة

1357/31

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام (غير رواية انقلاب العثماني) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور الاخلاقية والاجتماعية عما كانت عصر الماضية لاختلاف الاشخاص القاطنين بها عن اهل تلك الاعصر .
يغال هذه الرواية من الاكراذ وزعيمهم السلطان صلاح الدين المشهور . وهي سعيه في استخراج مصر من الدولة العبيدية او الفاطمية باسم السلطان نور الدين جب الشاه . لكنه ارادها لنفسه فاشترنا الى ما اقتضاه ذلك من المساعي وما تخاله من احداث غريبة . ومن جملة اعمال الحشاشين او الاسماعيلية الذين تكاثروا في ذلك العصر برئاسة اميرهم الشيخ راشد الدين سنان . وكان لهم شأن في قتل كثير من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبذلنا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارى كما يستفاد من مجمل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقض واختلاف ليس هنا محل تحقيقهما . وانما جمعنا في هذه الرواية اغرب ما يروى عنها من المعجزات المدهشة

ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة واذا اضفنا اليها ما نشر من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام - نعي استبداد المماليك والمملوك الشارد واسير المتمدني والانقلاب العثماني - بلغ عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ رواية ١٦ منها في تاريخ الاسلام من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة واربع في تاريخه من اواسط القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني . فاذا وقفنا الى اعداد الحلقات لموصلة بين هاتين المديتين تمت السلسلة . وكانت من خيرة ما تقضى له امقلت الفراغ بلذة وفائدة والله الموفق



حاجبک

م

ون و

و .

بدر

الفصل الاول

فذلكة تاريخية

حج 1353

نادل

(حج زيدان)

رواية « فناء القيروان » بدخول مصر في حوزة الفاطميين أو العباسيين سنة 358 هـ على يد القائد جوهر وبادت دولة الاخشيد وخرجت مصر بذلك من حوزة عباسية لانها كانت في زمن الطولونيين والاششيديين مع استقلال هاتين الدولتين في رعاية الخليفة العباسي في بغداد وهو يثبتهم على الامارة ويبعث اليهم بالخلع او بكتاب التولية (القرمان) نحو ما يفعل السلطان العثماني بامراء مصر لهذا السبب لكن ادارة الحكومة الداخلية وسائر اعمالها كان يجريها الامير الطولوني او ام سنيك استقلالاً بدون مراجعة بغداد. وهو يشبه ما يعبر عنه كتاب هذا العصر بالاستقلال الاداري على تفاوت بدرجات ذلك، الاستقلال

فلما دخلت مصر في حوزة الفاطميين تغيرت حالها السياسية واصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالاً تاماً لا تراجع احداً ولا تعترف بسيادة احد غير الخليفة الفاطمي المقيم في القاهرة.

وهي اول مرة استقلت بها مصر بالسيادة السياسية بعد الاسلام. وبقيت الخلافة العباسية في بغداد كما كانت وظهرت الخلافة الاموية بالاندلس في بني مروان. فاصبحت المملكة الاسلامية يتنازعتها ثلاثة خلفاء كل منهم يزعم لنفسه الحق بالخلافة الحقيقية وينكرها على الآخرين. وكان النزاع على اشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة. وبينهما اختلاف في المذهب ايضاً لان الخلافة العباسية كانت سنية والفاطمية شيعية. وهو في اصله تنازع سياسي ادخلوا فيه الدين وسيلة لتأييد دعواهم

والدولة الفاطمية اول دولة شيعية تسمى ملوكها بالخلفاء. وعاصرتها دولة اخرى شيعية في العراقين وفارس نعتي الدولة البويهية لكنهم لم يسموا انفسهم خلفاء ولا ادعوا نسباً قرشياً يؤهلهم لذلك. وحافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم ان اصحابها اغتصبوها من مستحقيها - وانما استبقوها ليحكموا بها العامة. وأشار بعضهم على معز الدولة البويهي بعد قيام الدولة الفاطمية ان ينقل الخلافة الى الفاطميين او الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً « ليس هذا رأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انك واصحابك انه ليس من اهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه

مستجلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد ان واصل
 صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوا^(١) فرجع عز الدولة عن عزمه^(٢)
 استقرت الخلافة الفاطمية بمصر والخلفاء العباسيون في بغداد واتباعهم السني
 انحاء العالم ينكرون على الفاطميين صحة انتسابهم الى فاطمة الزهراء وهم لا يبالون
 كان بهمهم تؤيد سلطانهم بالسيف والدهاء ولا سيما في اوائل دولتهم. ون المعز
 الله لما بنى له رجوة مدينة القاهرة ودعا اليها يخرج الناس للقائه فاجتمع به اناس
 الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له
 ينتسب مولانا فقال له « سنعقد مجلساً نجتمع فيه ونسرد عليكم نسبنا »
 ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال
 من رؤسائكم احد قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هـ »
 ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسي » فقالوا جميعاً « سمعنا واطعنا »
 فتوالى على مصر من الفاطميين احد عشر خليفة حكموا نيفاً ومئتي عام (من
 سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) اولهم المعز لدين الله و آخرهم العاضد لدين الله . مرت الدولة
 في انائها في ثلاثة ادوار : كانت في اول امرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين
 فتحوا مصر مع جوهر فكان النفوذ مشتركاً بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر
 ثم الى الاتراك^(٢) كما انتقل النفوذ في الدولة العباسية من العرب والفرس الى الاتراك
 وكان السبب في تكاثر الاتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بامر الله وخلفه
 ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك
 والمشاركة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلم يملك
 المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر كانت امه امة سوداء فاستكثرت في جنود ابنها من
 العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان ابنها يستكثر من الاتراك فاصبح
 الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . قال التنافس الى
 حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار صاحب الشام فاتاه امير الجيوش
 بدر الجمالي من سوريا وهو ارمني الاصل فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من
 الارمن والاتراك وصار من حينئذ معظم الجيوش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا
 من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها واكابر اهلها
 وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق ودارس وذهبت دولة آل بويه

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٠٠ ج ٤

وضعت امر شيعة هناك وولى السلاجقة ممالئهم وقوادهم (الاتابكة) على الولايات
 . استقل كل منهم بولايتهم ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين
 عة من شجعان الاكراد، منهم نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شركويه وقد بلغا
 امداه منزلة رفيعة . وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٦ هـ الى العاضد لدين الله
 ابن يوسف وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار
 بالنفوذ وطال تنافسهم حتى اخرجوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المتنافسين وزير اسمه شاور غلب على امره فذهب الى نور الدين
 في مصر واستأذنه على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فانتمت نور الدين تلك الفرصة
 . بنى مصر وانجده باسك الدين شركويه في جند من الممالئك فردت الوزارة الى
 . وهذا يدفع تلك خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت، فزاد دخول نور الدين في
 شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح
 الدين الايوبي الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ خلفه صلاح الدين في
 منصب النيابة وسمى وزيراً

فاتخذ صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطنة مصر لنفسه - وهو ما يطلب
 بسطه في اثناء هذه الرواية

الفصل الثاني

موكب الخليفة العاضد

انهض يا اخي .. اما كفاك نوماً؟ والقاهرة قد ضجت والناس يترا كضون؟
 قم وانج بحمارك
 الى اين؟ ولماذا؟ هل احرقوا القاهرة كما احرقوا الفسطاط؟ ام هناك ضريبة
 جديدة علينا؟ تركت مواقف القاهرة واتي بحماري الى هذا الموقف خارج باب
 الفتوح لا تخلص من تعدياتهم وتعديات هؤلاء الاتراك والاكراد و..
 اسكت يا عمر ان هؤلاء الاكراد كل الخير منهم .. هل نسيت ما كنا نقاسيه من
 العذاب قبلهم؟ حتى ان احدنا لم يكن يتحرك، ما لم يضربوا عليه ضريبة .. ومن كان

موجب الخليفة العاضد
يجسر ان يذكر ابا بكر او عمر رضي الله عنهما ؟

صدق . . ان والديّ ندما على نسميتي بهذا الاسم . . وماذا جرى الان يا
حسن ؟ هل تقدر ان تحرك ؟ ها انت تقول لي قم انج بحمارك

اقول لك ذلك لان الخليفة العاضد لدين الله خارج من قصره في موكبه وستبعه
طائفة من الانرك وغيرهم فربما سطا احدهم على حمارك فيركبه . . وربما اخذه لنفسه

الخليفة خارج من قصره ! واين نحن وقصره ؟ اتنا خارج القاهرة

انه ات الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا

من هذا الباب ؟ الى اين ؟

ه فوقه

انه خارج لاستقبال نجم الدين ابوب

الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هو نجم الدين هذا

هو والد الوزير صلاح الدين يوسف جاء من الشام لزيارة ابنه

الله يا دنيا - الخليفة امير المؤمنين ابن بنت الرسول وظل الله على الارض

يخرج من قصره الى خارج بلده للالقاء والد وزيره - متى كان الخلفاء الفاطميون

يفعلون ذلك يا عم حسن ؟

تغريت الاحوال يا صاحبي . . ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم . وصار

النقوذ الى هذا الكردي . . مسكين العاضد

مسكين ليه ؟ بل نحن المساكين ويمكن هذا الكردي يكون احسن منه

الكردي احسن من الخليفة ؟ لا

وما الذي يصيبنا من هؤلاء الحكام ؟ انهم يختصمون على الاستبداد فينا وماذا

يهمني ان كان حاكمي كرديا او عربيا او هنديا انما بهمني ان لا يظلمني . . مش كندا ؟

اسكت انهم قادمون الا تسمع الابواق والصنوج ؟ انج بحمارك خبه في مكان وتعال

ها انا ذاهب وسارجع اليك على عجل لأرى موكب الخليفة . . ان ذلك حسرة

في قلبي منذ ولدت . طالما سمعت بهذا الموكب وما يحف به من الفرسان وما يلبسه

الخليفة من الجواهر والحريرو . . .

لما في انتظارك . . استعجل يا عمر

لا . . لا . . الاحسن ان تتبرني انت لنضع الحمام في هذا البيت ونصعد على سطحه

فتكون اقدر على المشاهدة وابتعد عن الخطر

طيب . . هيا بنا

نحن الان على هذا السطح مشرفون على الموكب

انهم قادمون من القصر . وبعد قليل يصلون الى باب الفتوح هذا فنراهم وهم
حون ... الا تسمع الضوضاء وقرقعة اللجم

نعم اسمع واخاف ان يكون علينا خطر

لا ما فيش خطر . . اراك تخاف من خيالك

لا تؤاخذني يا عم حسن ان الممدوغ يخاف من جرة الحبل . وهؤلاء الجنود لم
يجوا بمثل هذه الحركة الا تعدوا علينا واخذوا دوابنا ..

من الصواب انك انظر نظرة عامة اليه وهو في الشارع الداخلي قبل خروجه

• ي اري الاعلام تخفق واخيول تصهل والرماح تتلأأ والسيوف تلمع والشارع
يموج بمن فيه كالنيل في فيضانه . يا حفيظ ! اشكرك يا عم حسن على هذه الفرجة ..

قل لي الان وقد اخذوا بنحرجون من باب الفتوح من هو الخليفة منهم هل هو هذا
الراكب على هذا الفرس الاشهب وعليه الثياب القصية ؟

يظهر انك لم تشاهد احداً من رجال الدولة في حياتك .. ان الذين يتقدمون موكب
الخليفة كثيرون . وهل تظن الخليفة يلبس القصب ؟ انه لباس بعض اتباعه . ان الذين
تراهم في مقدمة الموكب فهم الامراء واولادهم واخلاق من العسكر وراءهم ارباب
القصب ثم ارباب الاطواق الى الاستاذين المحنكين وهم اكبر رجال الدولة . انظر الى
البستهم الفاخرة التي تأخذ بالابصار والى سروج خيولهم المفضضة ومن يسير في ركبهم
من الخدم الاتراك وغيرهم . ان ذلك كله ليس شيئاً بالنظر الى موكب الخليفة .
انظر .. انظر .. هذا هو موكب الخليفة عند تلك المظلة

ان المظلة تغطيه فلا يراه جيداً . وانما اري فرسه وما يمدق بها من الاعلام
والفرسان بجانبه من هم ؟

لا تستعجل في الاستفهام ان الموكب يسير ببطء وانا شارح لك كل شيء .
هل ترى فرس الخليفة ؟ تأملها جيداً ان سرجها من الديباج الاحمر مصوغ
بالذهب ومنزل فيه الميناء ولو تأملت مقدم السرج لرايت عليه حجراً كريماً . وفي
عنق الفرس قلائد الذهب ولو استطعت النظر الى قوائم الفرس لرايت حولها الخلاخل
الذهب . ويقدر كل فرس بما عليها من العدة بالف دينار ^(١) واغراس الوزراء

والامراء ايضاً في مثل هذا الترتيب وهي كما في الاصل هدية من الخليفة يهبها لامرائه في الاعياد
 هزيتاً لك يا عم حسن لا بد انك ذقت الركوب على هذه الافراس وانت من غمار
 القصر الكبير

ذقت يا بني اشياء كثيرة كدت انساها الآن . ورايت مجوهرات ومصوغات
 تبهر العقل ، فكيف بما يلبسه الخليفة ؟ انظر الى هذه المظلة فانها تشبه الهرم بشكائها
 وهي من الديباج الازرق السماوي وثوب الخليفة تحتها في هذا اللون ايضاً . ولو كانت
 حمراء لكان ثوبه احمر . وانظر الى الالهة الذهب التي تتدلى من حواشي المظلة
 وكيف ان اضلاع المظلة او قوائمها ملبسة بالذهب . وفي قممها رمانة ذهب كبيرة فوفها
 رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجواهر — انظر الى لمعانها فانه يخطف البصر

صحيح .. وليكنني لا اري حامل المظلة .. وكيف يستطيع حملها وهي ثقيلة ؟
 ان حاملها راكب على فرسه بجانب فرس الخليفة . وللمظلة قناة يركزها ذلك
 الفارس في قربوس فرسه . وهمه في اثناء الركوب ان يراقب موقف الخليفة من جهة
 الشمس بحيث لا تقع اشعتها عليه
 وماذا يحدث اذا وقعت الاشعة عليه ؟ . هاها .. اني اري رأس الخليفة فان
 صاحب المظلة انحرف عنه .. يا سلام ما هذا الذي يلمع على راسه

الفصل الثالث

العاصد وصلاح الدين

تمهل لأم حديثي .. انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فانها بيضاء وشكائها
 اهليلجي . وفي اعلاها فوق الجبهة حلقة بشكل الهلال من ياقوت احمر ليس له مثال
 في الدنيا وفي وسط الهلال جوهرة عظيمة مشهورة يقال لها اليتيمة لا يعرف لها
 قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله ١١ مثقالاً وبدائرة اليتيمة قسبة
 زمرديني له قدر عظيم

يا حفيظ ! يا حفيظ ! اياكون مثل هذه الجواهر عند هذا الرجل بلا فائدة
 والناس في مملكته يتضورون جوعاً وهو يأخذ اموالهم ظلماً ؟ آه يا عم حسن قد
 وجهني قلبي من هذا المنظر

اركت يا شيخ ان النعم من عند الله يؤتيها من يشاء .. ولعلك لو عرفت ما في قلب هذا الخليفة لم تحسده على هذه الجواهر .. مالنا ولهذا الآن .. اسمع .. الا ترى الفارس الى يسار الخليفة وفي يده منديل ابيض ؟

نعم اراء ماذا يوجد في هذا المنديل ؟

في هذا المنديل الدواة الثمينة التي هي من اعاجيب الزمان فانها من الذهب وحليتها مرجان .. انظر الى الجانب الآخر من الخليفة ترى فارساً آخر يحمل سيفاً حليته من الذهب مرصعة بالجواهر وهو مغمد لا يظهر الا راسه وحامله يقال له « حامل السيف »
 • من اصحاب الرتب العالية . وانظر الى حوالي فرس الخليفة فانك تجد عشرات من الصبيان وعليهم المناديل الطبقات وفي اوساطهم السيوف واوساطهم مشدودة بمناديل وفي ايديهم الحراب مشهورة وهم بجاني الخليفة كالجناحين . وبينهما فسحة امام وجه الفرس ليس فيها احد . وبالقرب من عنق الفرس صقليان يحملان المذبتين وهما مرفوعتان كالنخلة لذب ما يسقط من طائر او غيره

اني ارى فارساً فخماً يذهب ويجي الى يسار الموكب ويأمر وينهى من هو ؟

هذا والى القاهرة يحافظ على ترتيب الموكب ليسهل مروره ويمنع الازدحام ... انظر الى الذين هم وراء دابة الخليفة .. هناك جماعة من الصبيان يقال لهم صبيان الموكب يحملون العمامة المصقولة المذهبة بدل السيوف المحدبة وبايديهم الدبابيس الكميخت الاحمر والاسود ورؤوسها مدورة مخرسة . وبعضهم يحملون عمد الحديد وبين ايديهم لواء الحمد المختص بالخليفة وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحرير تخالف الوانها وهذا نص الكتابة « نسر من الله وفتح قريب » ألم تقرأه ؟

فبضحك عمر وقال « من اين لي ذلك ؟ ان اهلي لم يضعوني في الازهر لان التعليم فيه على مذهب الشيعة واهلي سنيون »

فقطع العم حسن كلامه وقال « فالآن صرت تقدر تتعلم لان صلاح الدين جعل التعليم فيه عاماً لكل المذاهب .. »

قال عمر لقد تأخر علي بهذه النعمة وهل بعد الاربعين من العمر تعليم ... فلنترك ذلك لاولادنا . من هذا الذي اراد ؟ ان موكبه لا يقل عن موكب الخليفة في شيء وارى عليه لباساً اخو من لباسه

هذا هو يا صاحبي صلاح الدين الوزير وهذا الثوب الذي عليه هو خيامة السلطنة خلعت عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنووات . وهي كما ترى عمامة بيضاء من

تسج تيس . لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقي بطراز ذهب . وكذلك الجبة التي عليه فان طرازها من الذهب وفروق ذلك طياسان مطرز بالذهب . وانظر في عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الجوهر يساوي عشرة آلاف دينار . والى جانبه سيم محلي بخمسة آلاف دينار وتحتة حجرة (فرس) قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرج مذهب وسر سار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وانظر الى قوائمها فان حولها اربعة عقود جوهر وعلى رأسها قصبه بذهب وفيها شدة بياض باعلام بيض^(١) هذا هو صلاح الدين . . ان منظره يدعو الى الهيبة اكثر من منظر الخليفة . انظر الى هيئته وكيف ان الشجاعة ظاهرة في وجهه ولا يراه انسان الا احترامه وخافه . وألحق يقال ان الامور الآن في يديه وهو الأمر الناهي كما قلت لك وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه . وفيهم قوم يقال لهم صبيان الزرد من اقوياء الاجناد يختارهم لنفسه وهم مئات يمشون الى الجانبين وبينهم فسحة امامه مثل فسحة الخليفة . ووراءه الطبول والصنوج والصفير الا تسمع صوتها يدوي به البر ؟ ووراء موكب الوزير يأتي حامل الرمثح . تأمله فانه رمح لطيف في غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية من الذهب . ومعه درقة بكوامخ يقولون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

كان عمر الحمار يسمع كلام صديقه العم حسن وقد اخذته الدهشة فلما سمع قوله درقة حمزة بغت وقال « درقة حمزة ! حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلعم ؟ » قال « نعم هكذا يقولون . وقد آن لي ان اختصر لك بالوصف لان الموكب لا يزال طويلاً . فانظر الى ما ووراء موكب الوزير انك تجد فرقاً من الاجناد المختلفة زمرة زمرة في عدة وافرة تزيد على اربعة آلاف . ثم اصحاب الرايات ووراءهم طوائف من العسكر على اختلاف اجناسهم الاتراك والاكراد والديلم وغيرهم » فقال عمر « فف بالله قليلاً واخبرني عن فارس اراد راكباً بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة »

قال انه من بعض خاصته ولكنه فارس شجاع محبه صلاح الدين كثيراً ولا صبر له على فراقه واسمه عماد الدين

فبغت الحمار عند ذلك وقال « ما بال هؤلاء لا يسمون اسماً الا منسوباً الى الدين

هؤلاء ثلاثة ذكرت في اسماءهم هم نور الدين وصلاح الدين ونجم الدين وهذا
عماد الدين

فقال العم حسن تلك اادتهم في التسمية - ها قد انتهى الموكب وقصصت عليك
خبره فاذن بانصرافي

فقال « مع السلامة كثر الله خيرك » وانصرفا
هذا هو موكب الخليفة العاضد لاصفناه باختصار دفعاً لملل القاري فان الكلام

فيه يطل

سار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح والناس في اثره ركوباً
او مشاة واخرون وقوف على اسطحة المنازل يشرفون على ذلك الموكب وقد تصاعد
العبار حتى حجب وجه السماء وغشى الرؤوس والمناكب . ولم تبق فتاة ولا غلام الا
خرج الى الشارع او صعد على السقف والبسطاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال
ذلك الكردي والعارفون لا يرون فيه غرابة لضعف امر الخلافة

الفصل الثالث الرابع

قاعة الذهب

ما زال الموكب سائراً على هذه الصورة حتى وصل الى مسجد التبر (في اخر
الحسينية) وانت البشائر باقتراب نجم الدين فالتقوا به هناك . وحلما تقابلا ترجل نجم
الدين احتراماً للخليفة وكذلك فعل رجاله الذين معه وفيهم اخوه شمس الدين .
وترجل صلاح الدين وقبل يدي والده فقبله والده ولما رأى ذلك الموكب وما على ابنه
من الخلع لم يملك عن البكاء من الفرح وشكر الله على نعمه . وكان نجم الدين عاقلاً
مدبراً فترامى على يد الخليفة . يقبلها ويظهر امتنانه من ذلك الاكرام والخليفة يجيبه
بلطف لكنه لم يتحول عن فرسه

وبعد السلام والاكرام عاد الموكب بجلاله نحو القصرين وركب نجم الدين الى
جانب ابنه وبجانبهما عماد الدين الشاب الشجاع وتحادثاً مائياً . وكان حديثهما في لغته لا
يفهمها رجال العاضد نعي اللغة الكردية . وكان اكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام

وعن العاضد صاحب مصر

اما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت تلك المظاة وتفرست في عينيه لرأيت الدمع يتفرق فيرما . ولو جسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الاسف والغم لاضطراره الى الخروج في هذا الموكب لتكريم رجل يخافه على حياته كما يخافه على منصبه . و لكنه لم ير بداً من مسيرته فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده . وذلك اثقل على قلبه من الجوع والعري . وامله يتمنى ان يكون من بعض العامة ولا يتحمل ذلك الضيم

ووصل الموكب قبيل الغروب الى القصر الكبير الشرقي من قصور القاهرة . وهو مجموع قصور ربما زاد عددها على بضعة عشر قصراً منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الاقبال وقصر البحر وقصر الحریم وقصر الشوك ودار الوزارة ودار الضيافة ودار الضرب وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان الحجرية وغيرها . وتسمى كلها معاً القصر الكبير الشرقي . كما تسمى قصور عبد الحميد في الاستانة قصر يلدز وهو مجموع قصور

وموضع القصر الكبير الشرقي الآن في شرقي القاهرة القديمة وشمالها في ما بين الازهر وباب الفتوح ويدخل في ذلك خان الخليلي وبيت القاضي والجمالية والنحاسين . وقد سمي هذا القصر بالشرقي تمييزاً له عن قصر آخر غربي اصغر منه كان غربي القصر الشرقي ويدهما ساحة يقال لها الميدان بين القصرين . ووراء القصر الغربي نحو الغرب منزهة كبيرة يقال له البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة وعلم هذا الخليج كانت منزهات الخلفاء الفاطميين

وكان في جملة ابنية القصر الكبير الشرقي بناء يسمونه قصر الذهب كان الخليفة يجلس فيه للناس في يومي الاثنين والجميس من كل اسبوع - فوقف الموكب عنده فترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال وتسمى قاعة الذهب يدخل اليها من باب يسمى باب الذهب (حيث المارستان المنصوري في النحاسين) فجلس على سرير من الذهب في صدر القاعة ذكروا ان وزنه الوف من المئاقيل وحوله ستر محلي بالطرز الذهب المرصع بالجواهر فيه خمسمائة وستون قطعة جوهر على اختلاف الوان^(١) وقوق السرير شمسية من ذهب وزنها ثلاثون الف مثقال . واكثر جدران الغرفة مغطاة بالستور الريباج المزركش . حتى ان الناظر اليها يحسب نفسه في حلم ولا سيما بق نظر الى ما فوق عمامة العاضد من الجواهر المتلائة

وبعد جلوس الخليفة على سريره دخل الوزير صلاح الدين فجلس في مرتبة خاصة به . ولم يؤذن في الدخول يومئذ لاحد من رجال الدولة وانما جعلت الجلوس خاصة باكرام نجم الدين . فامر صاحب الباب باستقباله وادخله عليه فدخل نجم الدين وكان بهي الطلعة عظيم الهيبة فوقع من نفس العاضد موقعا عظيما فاشار اليه بالجلوس ورجب به فقام نجم الدين باحترام . وكانت العادة اذا دخل الوزير على الخليفة الناطمي قبل يد الخليفة ورجله ولم يفعل صلاح الدين ذلك ولا جعل والده يفعله ولم يستغربه الخليفة وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهل ربة دقيق العضل تمتع اللون قاعد في مجلس اقارب الخليفة قعود من يريد الاستتار ويود ان لا ينتبه له احد لكن صلاح الدين لمح فعلم من مجلسه انه من بعض الامراء ولم يكن رآه من قبل . ولما استقر بالجلوس المقام بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة منذ عشر سنين (سنة ٥٥٦ هـ) لانه كان عند مبايعته في الحادية عشرة من عمره والذي يراه الآن يحسبه في حدود الاربعين لكثرة ما كبده من الهموم وتحمله من الاحن . وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على استنجاد نور الدين زنكي صاحب الشام

الفصل الرابع

المداجاة

فلما جلس القوم وجه الخليفة كلامه الى نجم الدين قائلاً « عسى ان لا يكون القائد نجم الدين قد تعب في اثناء الطريق »
قال « كلا يا سيدي ان سفري كان في غاية الراحة ولا سيما لاني اتوقع التشراف بلقيا الامام اعزه الله . . »
فابتسم الخليفة ابتسامة اغتصافية وقال « اهلاً وسهلاً بكم قد نزلتم على الرحب والسعة . وقد امرت زمام القصر ان يعد لمقامكم منظرة اللؤلؤة وهي اجمل قصورنا بل احد منزهات الدنيا فعسى ان تجدوا فيها راحة »
فتأدب نجم الدين في مجلسه وابدى الاحترام واثني على الخليفة ثناء كثيراً . فقال صلاح الدين « ان تبارك مولانا الامام بالخروج للقاء والدي نعمة لا انساها له ونحن يا كنا فاتنا ندعو له بطول البقاء »

د فحك الخليفة عشونه بسببته وتناول قضيب الخلافة عن الوسادة الى جانبه وهو
قصير مغشى بالذهب (وجعل يتلوه بالنظر اليه ثم سعل والتفت الى نجم الدين وقال
« كيف فارقت صديقنا الاتابك نور الدين ؟ »

فاجاب وهو يتلطف ويتجمل « فارقته في خير وقد حملني سلاماً كثيراً ومودة
لمولانا العاضد، حفظه الله وهو يدعو بطول بقائه ودوام سلامته »
قال « اني مسرور من صداقته وارجو دوامها »

قال « ان ذلك شرف عظيم له وقد كلفني ان ابلغ المولى اعزه الله انه هو ورجاله
في خدمته ... لنصرة الحق »

فوقع هذا الكلام موقعاً مؤلماً من نفس العاضد لانه ذكره بالسبب الذي جرّه الى
هذه المتاعب فانها تبدأ من استنصاره نور الدين . . لكنه تجدد وكظم والتفت الى نجم
الدين وقال « لقد نصرنا غير مرة جزاء الله خيراً . . وقد كفيننا الان مؤونة الاستنصار
بوجود ولادكم الملك الناصر . . و اشار الى صلاح الدين

فقال نجم الدين « ان ولدنا من مواليكم يا سيدي ولا يذخر وسعاً في خدمتكم
والاخذ بناصركم »

فهدى العاضد يده الى عنقه استخرج عقداً من الجواهر يشبه العقد الذي حول عنق
صلاح الدين وقدمه الى نجم الدين وهو يتسم وقال « هذه هدية منا تذكر بها
هذه الزيارة ايها القائد الباسل . وقد استحققت عندنا ان ندعوك « الملك الافضل »
وستحمل اليك اللطاف والهدايا الى قصر اللؤلؤة . ونوليك الاقطاعات السنية فانك
اهل لاكثر من ذلك . . » (١)

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يقبل يد الخليفة . ثم قبل العقد ووضعها في
عنقه وهو يقول « لقد غمرتني يامولاي، نعم لا استحقها . ان اللقب الذي خلعتة
علي فوق قدرتي و . . . »

فقطع الخليفة كلامه قائلاً « بل انت الملك الافضل كما ان نجلك الملك الناصر
فكرز نجم الدين شكره وجلس متأدباً

و . . . ولاحت من صلاح الدين التفاتة الى الكهل المتقدم ذكره فرأى في وجهه اهتماماً
وقد أبرقت عيناه وكادت ان تتقدان من التفكير فشغله امره لحظة
فادرك الخليفة اشتغاله بذلك واراد تحويل الازهان عن هديته فوجه خطابه

الى صلاح الدين وقال وهو يشير بيده الى ذلك الجليس « اظنك لا تعرف الشريف
ابا الحسن . . . انه من اعمامنا كان في سفر وقد جاءنا من عهد قريب . . . » والتفت
الى ابي الحسن وقال « لا اظنك تحتاج الى التعريف بوزيرنا الباسل ابي المظفر
صلاح الدين »

فاشار ابو الحسن بعينه وراسه وكتفيه انه شاكره لهذا التعريف وانتمنى كانه يهتم
بالقيام . فقال صلاح الدين « سررت كثيراً بمعرفة هذا الشريف ويكفي انه متصل
النسب بمقام الخلافة »

وكان نجم الدين في اثناء ذلك ينظر الى ابي الحسن نظر المتفرس ولم يعجبه ما
في سخنته من الدهاء وما في عينيه من المك. ولكنه تجاهل وتوجه بكايته الى الخليفة
بيدي شكره على هذا التعريف

ثم وضع العاضد قضيب الخلافة من يده على الوسادة ففهم القوم انه قد آن
الذهاب فاستأذن نجم الدين بالانصراف وهمم بوداع الخليفة . ثم تقدم صلاح الدين
وودع الخليفة واظهر انه يهتم بتقبيل يده . فاجتذب الخليفة يده تلعطفاً

خرج نجم الدين وابنه من مجلس الخليفة ورجلها ينتظرونهما خارج القصر
بالافراس والسلا. وفيهم الشاب عماد الدين الذي كان راكباً بجانب صلاح الدين
في الموكب . كان صلاح الدين يختصه بالالتفات لما يراه فيه من المروءة والبسالة . وهو
شاب في بل العمر قلما يفارق ركاب صلاح الدين الا لامر هام . ولم يكن يراه احد
الا احبده بحاله وبسالته مع ذكاء وفصاحة . فلما صار صلاح الدين خارجاً صاح « اين
عماد الدين ؟ »

بقدم الشاب وعيناه تتكلمان قبل لسانه وقد لبس ثوباً من اثواب الحرس الخاص
بصلاح الدين وهو السراويل القصيرة وحول الخصر منطقة من جلد فيها عروة
منية وفوقها دراعة مطرزة بالقصب . وعلى راسه عمامة صغيرة كالطاقية مزركشة
لقصب . وقد علق بمنطقته سيفاً قصيراً وغرس فيها خنجراً . فلما وقف بين يدي
صلاح الدين قال « هلم بنا الى منظره اللؤلؤة فقد امر الخليفة ان ينزل والدي
هناك وانا انزل معه الان »

فاهتم عماد الدين بارشاد الركاب الى المكان وركبوا جميعاً الى المنظره المشار اليها
وكانت على خليج القاهرة . فقطعوا الميدان بين القصرين ومروا بجانب القصر
سبي الى البستان الكافوري احد منتزهات القاهرة وانتهوا منه الى المنظره على ضفة

الخليج العجمي اي من جهة قصور الخلفاء المتقدم ذكرها . وهي تشرف على الخليج من
الغرب ووراء الخليج غرباً بركة كان يقال لها بطن البقرة ووراءها ارض الطيالة
وبستان المقسي (الفجالة وباب الشعرية وما يليهما الآن) ووراءها بركة الازبكية
الى تجرى النيل

صل الخامس

منظرة اللؤلؤة

وكانت المنظرة المذكورة من اجمل منتزهات القاهرة لها حديقة تتصل بالخليج
فيها الاشجار والرياحين والازهار . وفيها القاعات المقصورات في اجمل ما يكون من
الفرش الثمين يشبه ما كان للخلفاء في قصورهم من ستائر ابراج المطرز بالذهب والبسط
المحوكة بالذهب وسائر الانية من العاج وخشب الصندل وفيها ائك والوسائد . وقد
سرح في البستان مئات من الطيور الداجنة على اختلاف انواعها الحانها بعضها في
الاقفاص والبعض الآخر مطلق . وعلى ضفة الخليج مجالس من الخمر كاشرفات قد
فرشت بالسجاد عليها المساند المزركشة وفوقها مظلات من الخشب تعبر على النبات
وكل ما في المنظرة ثمين يستوقف النظر وناهيك بانها كانت منتزهاً للخلفاء
ابان دولتهم

وصل نجم الدين وابنه ومن في ركبهما من الحاشية فتلقاهم غلمان ينظرون طياب
والبخور فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ومعهم بعض الخاصة من رجاسه
ساعة لم يدركيها من الحديث غير العام المتعلق بالاسفلر وما قد يراه المسافر في
طريقه من التعب او الراحة . وتخلل الحديث طبعاً ذكر الافرنج (الصليبيين) الذين
كانوا يومئذ اصحاب السيادة في نواحي سوزيا وفلسطين وكثير من مدنها
ثم مالت الشمس الى المغيب وقد اعدت مائدة العشاء فتناوله معهم طائفة من الخاص
وفيههم شمس الدين . فلما فرغوا من الطعام انصرف الخاصة كل منهم الى فراشه في المنظر
وتركوا نجم الدين وابنه على حدة لعلمهم ان نجم الدين لم يأت مصر الا لامر هام يريد ان
يسره الى صلاح الدين

اختلى نجم الدين بابنه في غرفة انيرت بالشموع الضخمة وفيها ما توزن الك

منه علة أرطال . وقد رأى نجم الدين في قصور القاهرة ما لم ير مثله في دمشق الشام . وما صدق انه خلا بصلاح الدين فاتكأ على وسادة وأشار اليه ان يقعد بين يديه وقد تخففت بلباس الرقاد . وفي يد نجم الدين انبوبة حرص عليها منذ بدل ثيابه . فلما قعدا قال نجم الدين « سرني يا يوسف ما رأيته من مزارتك عند هذا الرجل ولكنتي رأيته لا تحترمه كثيراً وهو يرى نفسه خليفة وملكاً » . فضحك صلاح الدين وقال « هل يكفي يا ابي ان يرى نفسه كذلك ؟ ونحن نعلم انه اسيرنا . . . وصنيعتنا . . . »

فقطع نجم الدين كلامه قائلاً « نعم ولكن الامر لم يتم لنا بعد فلا ضرر من المجاملة ومراعاة العادات الجارية . . . على اني اراك من الجهة الاخرى تهاذر غضب رجلاه وانصاره رغم ما يأتيك من اذن نور الدين في امر البيعة والدعوة للخليفة العباسي » قال « وكيف ذلك يا ابي » .

قال « الم نكتب اليكم عام ان تدعو للخليفة العباسي على منابر القاهرة ولماذا هذا التأخير ؟ »

فاطرق صلاح الدين لحظة وقد ظهر الاهتمام في محياه . ثم رفع بصره الى ابيه وقال « تدعوني اى المجاملة ثم تعاتبني على تأخير الدعوة . وليست تلك الدعوة الا اعلان سيادة العباسيين على مصر وسقوط دولة الفاطميين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك في نفس هذا الخليفة المسكين . وما الذي يهمننا من مصر غير ان يكون لنا فيها كلمة النافذة والصوت المسموع والريع المطلوب ؟ ولنترك هذا الخليفة الشاب يرحل بالقاب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتي به القدر . . . ان اعلان سيادة العباسيين على مصر امر ميسور متى شئنا . . . وعهدي بك انك تحب التؤدة »

قال « نعم يا بني ولكن نور الدين يلح في ذلك وقد وعد الخليفة العباسي المستنجد بالله ان يدعو له على منابر مصر . فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطنه فكتب نور الدين اليك كتاباً يستخثك فيه على ذلك . وقد اوفدني لتبليغك هذه الرسالة وهذا هو كتابه » ودفع اليه الانبوبة

فتناولها صلاح الدين واستخرج منها لفافة قرأها واكثر من الامعان في فحواها . لا سيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة « وهذا امر يجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت ومحضور القوت . لا سيما وامام لوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم اسنيته »

واطال صلاح الدين النظر في ذلك الكتاب وابوه يراقب ما يبدو في وجهه من التغيير وقد ادرك ما في خاطره فقال « ما بالك يا يرسف .. ما الذي تحدثك نفسك به ؟ »
قال « تحدثني نفسي بامر لا تجهله يا سيدي »

قال « لا بد من اعلان الدعوة العباسية .. هل ذلك صعب عليك ؟ »

قال « كلا .. وليكنني اراك تجاهل امراً آخر اضمره »

قال « فهمت مرادك انك تفكر في امر نور الدين .. وهل اذا اعلنت الدعوة في

المساجد للعباسيين تكون مصر ملحقه بالشام تابعة لنور الدين ام .. ؟ »

فابرت اسرة صلاح الدين ولمعت عيناه واتم كلام ابيه قائلاً « ام لصلاح الدين وحده ؟ »

فابتسم ابوه وقال « انك تتعجل امراً لا بد من التؤدة فيه انما يهمنا الآن الدعوة »

قال « اما الدعوة فسننظر في امرها ولكنك لم توضح لي رأيك من الوجه الاخر »

قال « وما هو ؟ »

قال « انت تعلمه ولكنك تريد ان تسمعه من فمي : فاسمع اني قد دبرت امر مصر

وضبطت شؤونها بسيفي وتدبيرى وبسيف عمي من قبلي . ونور الدين قاعد في قصره

بدمشق ومملكته واسعة ومماليكه كثيرون . فهل من العدل ان تكون مصر له ايضاً ونبتي

نحن من خدمه او قواده ؟ ما الذي يمتاز به نور الدين عنا اعلاه ابتاعنا بماله ؟ نحن لسنا

مماليكه . اننا قواد .. وهذه مصر يستحيل عليه اخضاعها بدوني .. فانا لا اباع للخليفة

العباسي الاعلى ان اكون انا صاحب مصر وليس نور الدين .. »

وما تم كلامه حتى بان الغضب في جبينه مع الاهتمام وتفارس في وجه ابيه ابرى

رأيه في ذلك فابتسم نجم الدين وقال « بورك فيك يا يوسف انك تطلب السيادة .

وانت اهل لها .. ولكن لكل اجل كتاب »

قال « أحب ان اعلم رأيك . ألا ترى لي حقاً في ما افول »

فضحك نور الدين ضحك استخفاف وعبث بلحيته يمسطها باصابعه ثم قال « ان

الحق ياتي للقوة - تلك هي قاعدة اصحاب السياسة .. والا لوجب علينا ان نخرج من هذا

البلد ونتره لاهله لان صاحبه انما استنجد الاتابك نور الدين لينصره على رجل من

خيارته تترد عليه فانجده بعمك اسد الدين وانت معه . وكان ينبغي لك ان تخرجنا من

مصر بعد الفراغ من تلك المهمة وقبض ما تستحقه من الاجر على نصركم . فبقاؤك هنا

سواء كان باسم نور الدين او باسمك جشع . وانما تعدد حقاً اذا كنت قادراً على تنفيذه

فالحق هو القوة يا بني - تلك هي شريعة الفاتحين »

وكأثر حجة نجم الدين قوية الى درجة لم يقوَ معها صلاح الدين على المدافعة وكاد يفحم . لكنه طامع في البلد ويريد ان يتدرع بباية وسيلة كانت انيل مرامه . فنهض وهو يتشاغل باصلاح عمامته الصغيرة ثم اخذ في قتل شاربويه وهو ينظر الى احد جدران الغرفة التي هم فيها ويتأمل صوراً ملونة مرسومة هناك لم يشاهدها من قبل . وبجانب كل صورة رفٌ لطيف مذهب . فتقدم نحو الجدار وتفرّس في الصور فراعى تحت كل صورة اسم صاحبها . واذا هم من شعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يفدون على الخلفاء في ايام مجدهم . وتذكر حديثاً سمعه عن الخليفة الامر باحكام الله الفاطمي انه لما بنى منبطرة بركة الحبش صور الشعراء على جدرانها كل شاعر وبلده ونظم كل واحد منهم يومئذ قطعة من الشعر في المدح نقشوها عند رأسه في الصورة . وبجانب صورة كل منهم رفٌ مذهب فلما دخل الامر وقرأ الاشعار امر ان يضع على كل رف صورة مختومة فيها خمسون ديناراً وان يدخل كل شاعر ويأخذ صمرته بيده (١)

وقف صلاح الدين هنيهة عند تلك الصور وهو غارق في الهواجس . فادرك ابوه ما يجول في خاطره فسكت ليري ما يكون منه وتشاغل بالنهوض ايضاً ثم اظهر انه يهيم بالذهاب الى الفراش وصلاح الدين لا يستطيع رقاداً قبل ان يوافقه ابوه على الطلب . فالتفت اليه وقال « تمهل يا ابتاه .. ان هذا الخليفة دعانا الى نصرته على الافرنج واهل القاهرة انفسهم رأسلوا نور الدين وبدلوا له ثلث بلاد مصر اقطاعاً وان يقيم عمي بعد الدين عندهم وله الاقطاع هو ورجاله ايضاً — لا ان يقضي مهمته وينصرف كما تقول . ثم نكت وزيره شاور ولم يف بما وعد فقباته انا بيدي فصفا لنا الجو . ولو لم اقتله لم يكن لنور الدين اقطاع ولا ... »

فقطع نجم الدين كلامه وهو ينشي نحوه وقال بلهجة الشيخ الوقور « انك تخاصم نور الدين على غنيمية لا تزال في حوزة اصحابها ولا يحق التنازع بينكما عليها الا بعد خراجها من قبضتهم . وهذا لا يكون الا بنقل الدعوة من الفاطميين الى العباسيين ثم ترى بعد ذلك . وهذا يكفي الآن ... »

وكان لنجم الدين نفوذ على ابنه مثل نفوذ السحر فاكتفى صلاح الدين بما سمعه وتحول وهو يقول « اظنك في حاجة الى الرقاد يا ابي » وامر الخدم بان يهبطوا لفراش وذهب كل الى منامه

الفصل السادس

العاقد و أبو الحسن

أما الخليفة العاقد فقد تركناه في قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين وابنه ولم يبق معه إلا أبو الحسن . فلما خرج الكرديان أمر الحاجب أن يأتي بصاحب اللباس لينزع عنه ثيابه وحلاه لانه في حاجة الى الراحة وان لا يأذن لاحد في الدخول . فأتى صاحب اللباس واشتغل في نزع العمامة وما عليها من الجواهر ووضع كل قطعة في عابرة خاصة بها . وجاءت لوصائف يحملن الثوب الآخر ليأبسه الخليفة وقد تغيرت سحنته وانقبضت اسرته واحمرت عيناه وشعر يبرد طقطقت له اسنانه واصطكت ركبته حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فبادر أبو الحسن اليه فاسنده وبالغ في التخفيف عنه . ولكنه حالما لمس يده أحس بحرارتها فعلم ان الخليفة مصاب بالحمى ولكنه لم يشأ ان يخوفه ولما فرغ الخليفة من تبديل الثياب التي نفسه على السرير وقد أحس بانحطاط عزه فقال له أبو الحسن « بماذا يشعر مولاي امير المؤمنين ؟ »

قال « اشعر بارتعاد مفاصلي وبرد يمتشي في ظهري .. لا اظنه الا من عواقب الكظم وتحمل الضيم .. آه يا ابا الحسن .. » قال ذلك بصوت مختنق وتلا الأدمع في عينيه فبادر أبو الحسن الى التهوين عليه عنه فقال « لكل اجل كتاب يا مولاي . ولا بد من زوال هذه الازمة »

فقال وهو يلهث من شدة الحمى « شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت في هذا الموكب لملاقة هذا الكردي .. آه كيف اقوى على احتماهم وقد سلبوني ما في يدي من سيادة وثروة ؟ وانا مع ذلك لا اقدر الا ان اجاملهم والاطفهم وارحب بهم » فمشط أبو الحسن لحيته بأنامله ثم قبض عليها وهو يتمتم كأنه يدعو او يصلي ويظهر التقوى وسعة الصدر وقال « لا بد من الصبر يا مولاي ولا شك ان الله سامع دعاءنا . فاني اصلي ليل نهار واطلب اليه تعالى ان ينصفك من هؤلاء الظالمين .. »

فقال « الى متى الصبر يا ابا الحسن . كأنك لم تعلم بما فعلوه معي .. ولم تسمع الا بحاماتهم لي بالكلام ومخاطبتي بالامارة .. انهم لم يتركوا لي من هذه الامارة الا لفظهم .. ان يوسف صلاح الدين هذا قد منع المؤذنين الاذان « حي على خير العمل » كما كانوا

يفعلون في دولتنا . وعزل قضاة مصر لانهم من شيعتنا وولى قضاة شافعية (١) على مذهبه — وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد وتقول لي اصبر! اين الصبر؟ « قال ذلك وغص بريقه

وكان ابو الحسن صفراوي المزاج لمقاوية لا يبدو في سحنته شيء من التأثيرات مهما بلغ من تأثيرها في قلبه . اولعل قابه لا يتأثر الا مما يريد . او هو قادر على التظاهر بما يشاء من غضب او فرح او حزن بغير ان يكون ذلك ناتجاً عن تأثير قلبي . فلما سمع قول الخليفة تمنح واطهر الاهتمام وقال « لا ازال اقول لك اصبر . اتكل على فاني باذل نفسي في سبيل هذا الامر وهو يهمني كما يهمني . اليست الدولة دولتنا والشيعه شيعتنا وفي حياتها حياتنا وفي موتها موتنا؟ لاسمح الله ثق اني فاعل ما تريد ولولا خوفي من الثقيل عليك لذكرت لك التفاصيل ولكنك الآن في حاجة الى الراحة فامض الى فراشك اذا شئت . وسأقص الخبر على الشريف الجليس وهو يقصه على مولاي؟ »

فقال وهو يتململ من القشعريرة والسخونة « افعل اني ذاهب الى دار النساء » قال ذلك ونهض فاعانه ابو الحسن على القيام واتى بعض الخصيان تعاونوا على حمله على محفة في دهليز يؤدي الى دار النساء فودعه ابو الحسن وقال « انا ذاهب بامرك الى الشريف الجليس أقص عليه ما يسرك ثم يلحق هو بك الى دار النساء؟ » فاشار الخليفة برأسه ان افعل

وكانت دار النساء قصرأ قائماً بنفسه لكنه يستطرق الى قاعة الذهب بدهليز مسقوف لانتقال الخليفة اليه متى شاء . وللقصر باب خاص عليه الحرس من الخصيان . وكان رئيسهم من عهد غير بعيد خصياً يسمى مؤتمن الخلافة فاتى عملاً اغضب صلاح الدين فقتله وجعل مكانه الطواشي بهاء الدين قراقوش احد رجاله المخلصين وحلما صار العاضد في تلك الدار انزلوه من المحفة فشى وهو يتوكأ على بعض الغلمان وهم يظنون ان يطلب الذهاب الى حجرة احدى نسائه . فاذا هو يشير اليهم ان يأخذوه الى حجرة اخته سيدة الملك . وكانت امرأة عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بأرائها . كانه وهو في تلك المال احس بحاجته الى رأيها .

الفصل السابع

سيدة الملك

فساروا به في رواق يؤدي الى غرفتها وهي منفردة عن سائر غرف القصر ولما بلغ السيدة قدمه خرجت لاستقباله ورحبت به واعانته على الدخول الى غرفتها فجلس على مقعد وهي تقول له « ما بال اخي امير المؤمنين مما يشكو؟ روجي فداه » قال « اشكو من برد وقشعريرة .. اصرفني الخدم .. فاني احب السكنينة وان لا يبقى في هذه الغرفة غيرنا »

ففتعلت . وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة طويلة القامة صبوحة الوجه ذهبية الشعر جذابة النظر اذا نظرت في وجهه شعرت بهيبة تجلي في عينيها . وهي اكبر من اخيها الخليفة ببضع سنين اي انها في الخامسة والعشرين من العمر فلما خات به جلست بجانبه على السرير وطوقت عنقه بيدها وهي تقول « ما بال اخي؟ مم يشكو؟ حماه الله من كل اذى . اذا اعتل امير المؤمنين اعتل الناس جميعاً » فلما نهد رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول « اشكو حسب الظاهر من حمى تنباني . . لكن العلة الحقيقية في هذا القلب . . » وأشار الى صدره . ثم ارخى يده من شدة الحمى فحسها يده فرائها شديدة الحرارة فقالت « هل ادعوك الطبيب؟ » قال « كلا . . ان هذه الحمى ستصرف الليلة . ولكن اذا كنت تعرفين طبيباً ينقذني من اولئك الاكراد ادعيه »

فاظهرت انها تمازحه وقالت « لو عرفت طبيباً في الهند وعلمت انه يشفيك لذهبت اليه بنفسي ولكن . . » فرفع رأسه عن كتفها ليعاتبها بنظره . فوقعت عمامته فمد يده ليتناولها فتناولتها هي ووضعها على رأسه فقال « انك تجاهلين يا سيدة الملك . . انك افطن من ان تنبهي الى مرادي بالطبيب »

فضحكت وقالت « هب اني فهمت مرادك فانا لا ارى الامر يستوجب الاهتمام الى هذا الحد . . اصبر لا بد من الفرج . . » فتههد وهو ملق رأسه على كتفها وحوّل عينيه نحو وجهها ازوراراً وقال « لم اجد بين وجالي من يسعفني في هذا الامر الا ابن عمنا ابا الحسن فانه تقي غيور . وقد

اكد لي انه باذل جهده في هذا السبيل »

فلما سمعت اسم ابي الحسن اجعلت وكادت البغته تظهر في وجهها لو لم تبادر الى التجلد . ولو انتبه العاضد وهو مستلق على صدرها لشعر بتسارع ضربات قلبها . فلما سمعت ذلك الاسم . لكنه كان في شاغل من امر نفسه . اما هي فتجلدت وقالت « كيف اكد لك ذلك ؟ »

قال « اكد لي اليوم وسيدكر تفصيله للشريف الجليس وهو يقص علينا ذلك حتى جاء بعد قليل . . . »

قالت « هل تصدق هذا الرجل ؟ » وبان الكدر في عينها

قال « كيف لا اصدقه . انه رجل محب مخلص ومن ذوي قرابتنا وانت تعلمين غيره علي دولتنا »

فهزت رأسها وسكتت ولسانها يها يقول « انه منافق مرائي »

فاعتدل العاضد في مجلسه لان الحمى اخذت في الهبوط واشتدت عزائمه وقبض على يد اخته وهو يقول « ارى الحمى تخف وطأتها عني اليس كذلك ؟ . . انت يا سيدة الملك سيئة الظن في هذا الرجل منذ عرفناه لغير سبب او دليل . . فانه من ابناء عمنا . نعم انه ليس من احفاد الحافظ لدين الله جدنا . ولكنه من احفاد الامر باحكام الله فهو من اعمامنا . . »

قالت « طيب . فليكن ما شئت » وتشاغت بطرف ضفيرتها الذهبية تفتلها بين اناملها وبان الغضب في وجهها

فقال « وما الذي يغضبك من ذكره ؟ انك تكرهينه بلا سبب وهو بعكس ذلك . لم اسمع منه الا التعلق بك . . انه يتفانى في سبيل ارضائك »

فنظرت اليه شذرا أنظر العاتب وقالت « كثر الله خيره . . اني لا التمس هذا الرضى »

قال « لا حاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمنا »

فقالت بصوت المرتاب « ومن يؤكد لنا صدق انتسابه الى الامر . ليس عنده

دليل غير شهادته لنفسه . . دعنا منه انه لا يستحق هذا الاهتمام »

قال « انك تظلمينه بهذا الحكم » واراد ان يتم كلامه فاذا باحد الغلمان يدخل

ووقف فعلمت سيدة الملك انه آت بخبر فقالت « ما وراءك »

قال « ان الشريف الجليس يباب القصر يطلب المثل بين يدي مولانا امير

المؤمنين - والطواشي بهاء الدين قراقوش يمنعه »

فالتفتت الى الخليفة وسألته اذا كان يشعر براحة تؤهله لمجالسة الشريف الجليس
فقال « اني اشعر براحة فليأت »

فالتفتت الى الغلام وقالت « امض الى الطواشي وقل له ان امير المؤمنين هنا
يريد ان يرى الشريف الجليس فلا يمنعه من الدخول »

فرضى الغلام . واحست سيدة الملك باستياء اخيها من معاملة بهاء الدين ولكنها
تجاهات . وبعد قليل جاء الجليس وهو شيخ طاعن في السن يجالس الخليفة ويؤانسه
ويحدثه وهو مستودع اسراره

فلما رآه الخليفة هش له وامره بالجلوس بين يديه . ولم تحتجب سيدة الملك عنه
لانه من المقربين وقد تعودته من صغرها فاكتفت بتغطية شعرها والالتفاف بمطرف
من الخبز فوق اثوابها وجلست على كرسي بجانب سرير اخيها

اما الخليفة فنظر الى الجليس نظر استفهام عما جاء به فادرك غرضه فقال « جئت
للسؤال عن صحة مولاي .. فقد بلغني من الشريف ابي الحسن انك اصبت بحمي . لا
اصابك الله بسوره واروا حنا فداك »

فابتسم وقد استلطف عبارة الجليس وقال « اني بدعائك وحسن نيتك قد زال
عني كل بأس . جس يدي .. قد ذهبت الحمى ... ما الذي جئتنا به غير ذلك ؟ »
فجس يده و اشار بعينه اشارة الاقتناع وان لم يقتنع لان الحمى لا تزال وقال
« نحمد الله على ذلك »

فقال الخليفة « قل ما الذي جئتنا به »

قال « خيراً ان شاء الله » وظهر في ملامح وجهه انه يكتم شيئاً لا يستحسن ذكره
بين يدي سيدة الملك

فادركت ذلك فنهضت وقالت « اذا كان وجودي يمنع الجليس من الكلام
فاني خارجة »

فامسك اخوها بثوبها وقال « اجلسي .. لست ممن يكتم عنهم .. تكلم يا عماء قل
ما الذي جئت به ؟ »

135/31

قال « اني جئت بامر ذي بال .. هل تأذن ان اقول كل شيء ؟ »
قال « قل .. لا تخف .. ما الذي اطلعك عليه ابو الحسن من مساعيه في سبيل

مصلحتنا ؟ انه محب غيور ؟ »

قال « اصبت ياسيدي ان ابا الحسن شديد الغيرة على منصب امير المؤمنين وهو

ساع في انقاذنا من هذا العدو المقيم »

قال الخليفة « سمعته يقول ذلك لكنه وعد بتفصيله . فهل فصله لك ؟ »

قال « فصله تفصيلاً اعجبني »

فتوجه الخليفة نحو المجلس باهفة وقال « وما هو ؟ »

الفصل الثامن

الحشاشون

قال المجلس وهو يخفض صوته ويتناول بعنقه كانه يحاذر ان يسمعه احد « يرى ابو الحسن يا مولاي ان العقدة التي يطلب حلها انما هي يوسف صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور . . و ابو الحسن يسعى في انقاذنا منه »

فقال العاضد « وكيف ينقذنا ؟ »

فاشار المجلس بكفه على عنقه اشارة الذبح يعني انه يقتله . فبان الاستغراب في وجه الخليفة وقال « من يقتله ؟ ليس في مصر كلها من يجسر ان يمد يده اليه »

قال « ايسر هذه خطة . . انه سيقتل هذا الرجل بدون ان يعرف القاتل »

قال « وكيف يمكن ذلك ؟ »

قال « ألا يعرف مولاي جماعة الباطنية او الاسماعيلية ؟ »

فاجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال « نعم اسمع بهم . واسمع انهم من ابصارنا »

قال « اصلهم من شيعتنا ولديهم الآن قوم شغلهم القتل »

فقطع الخليفة كلامه وقال « ليس هذا شأنهم اليوم فقط . اظنك حدثتني عن افعالهم غير مرة . لم تقل لي انهم قتلوا الملك الافضل امير الجيوش وزير الامر باحكام الله . وكان رئيسهم يومئذ يدعى بهرام . وهم قتلوا نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي وقتلوا غيره ؟ »

قال « نعم ياسيدي وقتلوا كثيرين غيرهم - هذا هو شأنهم »

فقال العاضد « من هو زعيمهم الآن ؟ واين هم ؟ »

قال « ان اصلهم ياسيدي من اتباع الحسن بن الصباح في زمن جدك الحاكم بامر

الله رحمه الله اي منذ اكثر من مئة وخمسين سنة . فاقام حسن هذا في قلعة الاموت
قرب قزوين . والف جمعية من الفدائيين الذين لا يخافون الموت . ويعرفون
بالحشيشية او الحشاشين نسبة الى عقار مخدر يتناولونه يسمونه الحشيشة . وتوالى
عليهم زعماء كثيرون في بلاد فارس والعراق والشام . وزعيمهم الآن يقال له راشد
الدين سنجان يقيم في جبل السماق من اعمال حلب يعتصم هناك بالقلاع وعنده رجال
مجبونون يطيعونه حتى الموت . اذا امر احدهم بقتل ملك او سلطان بادر الى الطاعة
حالا . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللشريف ابي الحسن صداقة شخصية مع سنجان
هذا بالنظر الى نسبه الشريف وله عليه دالة فاذا امره ان يبعث رجلا يقتل هذا
الرجل فعل . . . »

فبان البشر في عيني العاضد يخالطه الاستغراب وقال « وكيف يستطيع القاتل ان
ينجو من هذا المعسكر . وكيف يتصل الى عمله ودون الوصول اليه سدود وعراقيل
كما تعلم »

قال « ان هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بالبسة السياس او الخدم ويختلطون
بالخدم زمناً يترقبون الفرص فاذا سجدت فرصة فعلوا فعلهم ثم لا يهمهم ماذا يصيبهم
بعد ذلك ولا يبالون بالموت لانهم يرون القتل في هذا السبيل حياة سعيدة . . . »
فالتفت الخليفة الى اخته يلتمس مشاركتها اياه في الاعجاب . فرآها مطرقة تفكر
فقال لها « ارأيت اهتمام هذا الشريف في مصاحبتنا ؟ »
فظلت ساكنة ولم تجب

فالتفت الى المجلس وقال « هل اخبرك متى يباشر هذا العمل ؟ »
فتشاغل الشيخ بحك عثونه وسعل وتحنح وبان الارتباك في عينيه فلم ينتبه الخليفة
له . اما سيدة الملك فلم يفتها ما ينطوي تحت تلك الحركات فاخذت تحتلس النظر
وتصيح « بسمعتها فاذا هو يقول « انه يا مولاي يشترط على هذا العمل شرطاً واحداً »
قال « وما هو ؟ اظنه يعني الزوج باختي . . . »

فاجفت سيدة الملك عند هذا التصريح الفجائي لكنها حولت وجهها الى ستارة
معلقة بالحائط مطرزة بالوان بديعة فيها صور الطيور والاشجار تأخذ بالابصار
واظهرت انها تتفرس في بعض صورها

اما المجلس فقال « لم يذكر ذاك لي ولكن . . . مولاي يعلم . . . ان ابا الحسن عريق
في النسب الشريف . . . وهو . . . اكبر ابناء عمكم المرشحين لولاية العهد سنناً . . . وو . . . »

فلحظت سيدة الملك غرضه فبادرت الى الانتقام من تأثير عبارة اخيها عن زواجها فقالت « انظنه يشترط ان يكون ولياً للعهد بعد امير المؤمنين .. »
فاجاب الشريف بسرعة كأنه يعتذر عن تطاول ابي الحسن قائلاً « ان طاب له هذا من قبيل الجنون .. ولا معني له لان مولانا امير المؤمنين اطال الله بقاءه وعجل موته قبل ان يصاب بسوء لا يزال شاباً في مستقبل العمر و ابو الحسن في حدود الكهولة ، وليكنه يشترط ذلك ترضية لنفسه على تحمل تلك المشقة .. مع ما يحقق بها من الخطر . ومن يدري هل يبقى حياً يوماً واحداً بعد تنفيذ مهمته ؟ »

فقال الخليفة « يشترط ان يكون ولي عهد الخلافة بعدي ؟ »

قال « اطال الله عمر امير المؤمنين — ان الرجل لا يرجو ان يتولى الملك ولكنه يحب ان يتمتع بولاية العهد فقط على ما يظهر »
فاطرق الخليفة وهو يعمل فكرته والتردد ظاهر في عينيه ثم رفع بصره الى المجلس وقال « وما رأيك ؟ »

قال « اذا اذن لي مولاي ارى ان يوليه الولاية ويشترط في عقدها ان تكون بعده الى نجلكم سيدي الحامد لله الامير داود ولي العهد الحقيقي . فاذا استطاع انقاذنا من هذا الكردي واعادة النفوذ الى مولاي امير المؤمنين فانه يكون قد استطاع عملاً لم يستطعه سواه وتكون ولاية العهد ترضية معنوية له »

الفصل التاسع

حرية الفكر

ولحظت سيدة الملك ان اخاها اوشك ان يقبل وظهر لها من خلال حديثه انه راض ان يزوجهما وهي لا تقدر ان تتصوره بل هي تكبره كرهاً شديداً لغير سبب غير الشعور الذاتي . فانها تصور فيه الخبث والخيانة وهي منصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لانه لم يعمل عملاً يستوجب ذلك وانما هي نعمة السيادة تحمل طلابها على اتحال الاسباب الباطلة . فنهضت الى اخيها وقالت « تريد ان تقتل صلاح الدين وتستبدله بابي الحسن هذا ؟ »

قال « لا استبدله .. لكنه اذا استطاع قتله سميته ولي العهد »

قالت « وماذا تفعل بداود ابنك ؟ »

قال « يكون ولياً للعهد بعده »

قالت « ولماذا هذا العمل . لماذا تريد التخلص من صلاح الدين ؟ وترتكب كل هذه الآثام والاطحار في سبيل قتله . . ماذا فعل ؟ »

قال « تسأليني عما فعله ؟ كالك لا تعلمينه »

قالت « ربما كنت اعلمه لكنني احب ان يقول ذلك امير المؤمنين من فيه »

قال « انه جعل كل النفوذ اليه ولم يبق لي من السيادة غير الاسم »

قالت « وهل كان النفوذ اليك قبله ؟ الم يكن الوزراء هم اصحاب النفوذ ؟ وكلهم

من الاجانب الارمن او الاتراك . وهذا كردي وما الفرق بينهم ؟ »

فقال « لكنه استبد وغير وبدل . . »

فاحست انها فازت عليه بالبرهان فلم تصبر حتى يتم كلامه فقالت « اذا كان قد

استبد فانما استبد في رفع المظالم عن الناس . كانت المكوس لا تحتمل فرفعها او خففها . .

الاجل ذلك تدس الدسائس عليه وتكيد المكائد لقتله ؟ ان الساعون في ذلك هم طلاب

السلطة يحسدون الرجل على مكانته فيثيرون غضب امير المؤمنين عليه . واذا شاء اخي ان

يعرف حقيقة منزلة هذا الكردي ليتذكر الطريقة التي استنجدنا بها سلطانه نور الدين .

الم تر لعل شعورنا مع كتاب الى نور الدين تقول فيه « هذه شعور نسائي في قصري

يستغن بك لتنفذهن من الصليبيين » ؟ فالرجل ابي الطلب وانجذك باسد الدين

وابن اخيه هذا يوسف صلاح الدين . . هل يستنجد قائد بطريقة اذل من هذه ؟

ان شعري لا يزال ينقص تلك الخصلة التي قطعها منه » قالت ذلك وجست ضفائرها

كانها تحقق ذلك . ثم عادت الى الحديث فقالت « ومع ذلك فقد اشترطنا لنور الدين ان

نعطيه ثلث البلاد اقطاعاً غير اقطاع رجاله . ولما اتوا وانقدونا من الافرنج نسينا جميلهم

وهناك وزيرك شاور يدافعهم ويماطلهم وقتلوه . ويشهد الله ان صلاح الدين احسن

قلباً واشد اخلاصاً لك من شاور هذا . لكننا لم نستفد من هذا الحادث فشجعنا الخصي

مؤمن الخلافة قيم هذه الدار على مناهضة صلاح الدين ورجاله حسداً منه . الا يعلم

مولاي واخي ماذا فعل مؤتمن الخلافة ؟ انه اتفق مع جماعة من المصريين على مكتبة

الصليبيين ليتحد معهم على قتل صلاح الدين . فهل فعل ذلك غيرة عليك او على الدولة ؟

وبلغ خبره الى صلاح الدين فغضب غضب خصبان القصر بقتله لانهم سود من جنسه

انما جمع منهم خمسون الفاً وناهضوا رجال صلاح الدين والتقى الجيشان امام هذا القصر

ونحن فيسه . لا انسى هول ذلك اليوم ولا انسى امير المؤمنين يومئذ وقد جلس في

المنظرة يشرف على المقاتلة وهواه مع السودان . فاشتدت عزائمهم وخاف صلاح الدين ان تعود العائدة عليه وعلى رجاله فامر النفاطين ان يرموا قوارير النفط المشتعل على المنظرة وعلى القصر و... »

فقطع الخليفة كلامها قائلاً « ولكنني شجعت رجال صلاح الدين فارسلت زعيم الخلافة يقول « دونكم والكلاب العبيد اخرجوهم من بلادكم » فامتنعوا عن ارسال النفط »

قالت « ولكنك لم تقل ذلك الا خوفاً على المنظرة من الحريق » وكانت سيدة الملك تتكلم بمحاسة وكل جوارحها تتكلم معها وقد توردت وجنتاها وابرقت عينها . فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتقع لونها وتغيرت ملامحها كأنها فوجئت بذكرى محرقة فتوقفت عن الكلام . فاستغرب اخوها تغيرها فجأة والتفت الى الجايس فراه ينظر اليها ايضاً

اما هي فتجلدت وعادت الى الكلام قائلة « ولم يكن كلامك وحده الذي اوقفهم .. » قال « وكيف ذلك ؟ »

قالت « دعنا من هذا الموضوع الآن .. لان في تذكره ما يؤلني ويؤلمك .. وانت احوج الى الراحة والسكينة » وتشاغلته باصلاح نقابها على رأسها فحس العاضد يده وقال « اني في خير ولا بأس بي وقد زالت الحمى والحمد لله قولي بما هو السبب الآخر »

قالت « هل اقول ؟ »

قال « قولي .. »

الفصل العاشر

خصلة الشعر

مدت يدها الى جيبها واستخرجت خصلة من الشعر ذهبية من لون شعرها ودفعتها اليه وهي تقول « هل تعرف هذا الشعر ؟ »

فاجفل وقال « هو شعرك » هذه هي الخصلة التي قطعتها من شعرك وارسلتها في جملة شعور نسائي الى صاحب دمشق .. من اين انتك ؟ وكيف وصلت اليك ؟ » قالت وصلتني في ذلك اليوم الذي انتشبت فيه الحرب بين عبيد ناور رجال صلاح الدين »

قال « وكيف ذلك »

قالت « قد ذكرت ان الآن ان صلاح الدين منع رجاله من ارسال قوارير النقط قبل ان ينطلق منها شيء على القصر . . قد يكون هذا هو الواقع لكنني اعلم اننا ونحن في هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعاً والسهام تتراعى علينا من رجال صلاح الدين رأيت قارورة مشتعلة وقعت في الدار قرب حجرتي هذه لا ادري من اين انت فذهرت وصحت بالخدم ان يتلافوا خطرها فلم يسمعي احد لا اشتغال الرجال برمي النشاب بعيداً عني . وانا في ذلك واهل القصر كل منهم في شغل من نفسه رأيت رجلاً متكرراً بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار - لا ادري كيف دخلها . فذهرت ولكنني ظننته اسرع الى نجدتي فما علمت ان رأته امسك بيدي وجذبني نحوه كأنه يريد ان اتبعه فانتثرت منه فعاد وامسكني ثانية وجذبني اليه كأنه يريد ان يحملني ويطير بي . ولم يكن في هذه الغرفة احد يراني فصحت واستغثت فلم يسمع صوتي لان الضوضاء كانت قد ملأت هذا الفضاء ثم جاء رجل آخر اعان الاول على اجتدائي وهما يشيران الي ان اتبعهما حالاً وهددني احدهما بخنجر استله من منطوقته فآثر في ذلك المنظر وخارت قواي . وكدت اغلب على امري وقد ذهب نقابي وانحل شعري . وانا في ذلك رأيت شاباً وثب نحوي يظهر من لباسه انه من رجال صلاح الدين فابتقت انه سيعين ذينك الرجلين علي واذا به صاح بهما صيحة الجبارين وخنجره مسلول في يده واوشك ان يقتلهمما جميعاً فلما رأياه خافاً وتركاني واركننا الى الفرار . وظل هو واقفاً كالاسد ونظر الي بلطف وقال « من اولئك الاندال ؟ » قلت « لا اعلم . ومن انت وماذا تريد مني ؟ »

فقال « لا تخافي يا سيدتي اني من رجال صلاح الدين المحاصرين لهذا القصر ورأيت ذينك الرجلين يعذبانك وحالهما رأيت شعرك الذهبي علمت انك من نساء الخليفة فبادرت الى انقاذك واحمد الله اني قد فزت »

فسأله اذا كان علينا بأس من الاحراق فاكد لي انهم لم يلقوا نفعاً علينا وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا النفط من جهة اخرى لغرض لهم . واعلمهم ارادوا ان يشغلوا الناس بالنار ويختطفوني »

ولما وصلت سيدة الملك الى هذه العبارة تغيرت سحنها وتوردت وجنتها وبلعت ويقها وهي تلهث من التأثر .

وكان الخليفة والجليليس يسمعان كلامها وبراعيان الحماسة التي كانت تجلي في محياها

ولحظا التغير الذي طرأ عليها عند ذكر ذلك الشاب ولم ينتبها لما يخالج قلبها من جهته .
فلما سكتت قال العاضد « من هو هذا الشاب وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟ »
انه لامر غريب . كيف يعرفك شاب غريب وانت لا تخرجين الا محجوبة ؟ وهذا مع
ذلك من رجال صلاح الدين . . قولي الحق »

• قالت وهي تنظر اليه شذراً « انك تهمني يا امير المؤمنين . ولا مكان الريمب . .
قد سألت هذا الشاب كيف عرفني فمد يده الى جيبه واستخرج هذه الخصلة ودفعها
الي وقال . أليست هذه من شعرك « وادناها من شعر رأسي فاذا هما بلون واحد »
فابتدرها الخليفة قائلاً « مس شعرك بيده ؟ »

قالت « لم يمسه ولكنه ادناها من شعري . . انه شاب غير متهم وانا مدينة له بحياتي
وفرفي ولولاه لذهبت فريسة ذينك الخائنين . . » وحرقت اسنانها
قال « الم تعرفي من هما ؟ »

قالت « لم اعرفهما يقيناً ولكنني اشتبهت بواحد منهما »
قال « من هو ؟ . قولي »

قالت « لا اقول . . لاني اخاف ان يخطئ ظني فاورث الاذى لرجل بريء . ولولا
ذلك لا طلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم . وقد مضى عليه الآن اكثر من سنة
ولم اذكره لك لئلا القي الشك في خاطرك »

فصاح العاضد وقد امتقع لونه من شدة الغضب « لماذا لم تخبريني حتى الآن . .
ايصيبك مثل هذا الامر وتكتمينه طول هذه المدة ؟ من تجاسر على هذا العمل ؟
من تظنين ذلك الرجل ؟ قولي »

قالت « لا تغضب يا اخي . اني لم اقل ولا اقول الان خوف الوقعة بالابرياء وقد
تجوت والحمد لله . ولكنني قصرت بحق ذلك الشهم الذي انقذني » وحالما ذكرته ابرقت
عينها ولو تفحص اخوها صدرها لراى قلبها يخفق خفقاناً سريعاً . لكنه لم يفقه
فقال « الا تعرفين اسم الذي انقذك . . من هو ؟ »

قالت « لم اسأله عن اسمه وكنت اتوقع ان يأتيك في اليوم التالي ويقص عليك
الواقع فتكافئه فالظاهر انه لم يفعل . وانا لم أتمل من رؤيته اما هو فبعد ان اطمان علي
وتحقق نجاتي من الخطر دفع الي هذه الخصلة وهو يقول « خذي ياسيدي هذه الخصلة
من شعرك . . صيانة لها من ان يمسه غير مستحقيها . ولم يكن يجدر بالخليفة ان يرسلها
وسيلة للاستغاثة » قال ذلك وانصرف مسرعاً بسرعة البرق ولم يعد ابراه من ذلك الحين

الفصل الحادي عشر

من تهمة

فاصبح صدر الخليفة يغلي من شدة الحنق ونسي ضعفه في ذلك اليوم . ولم يملك عن النهوض بسرعة حتى قبض على الخصلة واجتذبتها من يد سيدة الملك وجعل يتفرس فيها ويقابلها بسائر الشعر فاذا هو هي فالتفت الى الجليس وقال « ماذا ترى يا عماء ؟ . كيف يدخل للغرباء قصري ومعهم شعور نسائي .. ولكن آه ! انا المذنب لاني تسرعت في الاستغاثة فارسلت شعورهن الى صاحب دمشق .. ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هذا الشاب وكيف احتفظ بها حتى عرف صاحبها ؟ لا ادري »

وكان الجليس يسمع ويرى وقد اخذته الدهشة فلما رأى غضب الخليفة وشدة تأثره قال « خفف عنك يا سيدي . اكل شيء سبب ولا يهمننا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردي بقدر ما يهمننا معرفة الرجل المتنكر الذي اراد اختطاف مولاتي »

فالتفت العاضد الى اخته وقال « قولي .. قولي من تهمة ؟ من هو ذلك النذل الذي تجاسر على دخول قصري وخرق حرمتي .. » قال ذلك وهو يابث وقد احمرت عيناه وارجع الخصلة اليها ورجع الى مقعده وقد احس بانحلال عزائه

فتقدمت اخته نحوه واخذت تخفف عنه وتمسح جبينه وتقول له « لا تغضب يا اخي .. اسمح لي ان لا اذكر اسم الرجل الذي اتهمه لاني اتهمته بمجرد الظن وبعض الظن اثم . وانا واثقة ان هذه التهمة مهما كانت ضعيفة تكفي لايقاع الاذى بصاحبها . فحرام علي ان اعرض نفساً للهلاك . »

قال « وحياتة رأسي الا قلت من دو ذلك الخائن واعدك ان لا اسارع الى الانتقام

الا بعد التبصر »

فاطروقت وهي تصلح نقابها على رأسها ثم جعلت تلاعب خصلة الشعر بين اناملها واخوها شاخص فيها ينتظر نطقها فلما استبطأ جوابها قال « ما بالك لا تقولين ؟ » قالت « بالله دعني .. سأقول لك ذلك بعد الان دعني افكر قليلاً .. » فالتفت الشيخ الجليس الى العاضد وقال « دعها يا مولاي الان ولا تغضبها .

وسنقول لنا . . وليس في الامر ما يدعو الى العجلة وانرجع الان الى ما كنا فيه بمن
امر النجاة من هؤلاء الاكراد . . ماذا رأى مولاي في ما عرضه علينا ابن عمه
ابو الحسن »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك الاسم اقشعر بدنها ولكنها تماكنت وصبرت لتسمع
ما يقوله اخوها فالتفت الى الجليس وقال « هو يعدنا بقتل الرجل ويطلب ولاية
العهد مكافأة له . . فنحن نعهده بذلك »

قال « وعد امير المؤمنين يكفي وقوله حجة لكن ابا الحسن لا يصدقني فهل
تكتب له كلمة ؟ »

قال « لا . . لا . . يكفي ان تقول له ذلك شفاهاً »

فقال « حسناً . . سأقول له . . ولكن هناك . . وسكت وهو يتشاغل بحك
لحيته كأنه يكتم امراً آخر يخاف المجاهرة به

فقال العاضد « ولكن هناك ماذا ؟ قل »

قال « اخاف ان تغضب سيدتي الاميرة لانها . . » وسكت

فقلت « ما الذي يغضبني - كيف عرفت انه يغضبني ؟ »

فتبسم وقال « قد ادركت من خلال حديثك انك لا تحبين ابا الحسن »

فابتدرته قائلة « واماذا احبه وهل هو يتطلب مني ذلك ؟ »

قال « لا . لكنه يلتمس التقرب من امير المؤمنين والتشرف ب . . »

قالت « بماذا ؟ »

فالتفت الجليس الى العاضد وقال « هل اقول يا مولاي ؟ »

قال « قل بماذا يريد ان يتشرف ؟ اظنني علمت مراده لانه طالما لمح الى ذلك في
حديثه معي . . والحق يقال انه كفى لما يطلبه . . » وتنحنح وحوّل وجهه
نحو سيدة الملك .

فادركت ما يعنيه . وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة ابي الحسن بالزواج
بها فرفضت . فلما سمعته يشير الى ذلك تجاهلت وقالت « لم افهم مرادك . ماذا تعني ؟ »
فقال « اظنك فهمت ما اعنيه » والتفت الى الجليس وقال « بما هو رأيك في
هذا الامر يا عماء . . اني لا ارى اكفاً من ابي الحسن لأختي »

فاعتدل الجليس في مقعده وقال « لاريب انه خير كفاء لما يتصل به من النسب
الشريف فضلاً عن عقله ودهائه . ويكفي ما رأينا من تفانيه في مصلحة مولاي

لانقاذه من هؤلاء القوم . والذي اراه ان نوافقه على هذا الطلب فيهنون عليه انسكوت
عن الشرط الآخر - اعني اذا كان جواب مولاي من حيث خطبة مولاي له بالايجاب
لا اظنه يشدد في طلب الشرط بولاية العهد بل يكتفي بهذا لانه شديد الامتثال لسيدة
الملك ويعد حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عوناً لنا في ما نريد
بلا شرط »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك التصريح قالت وهي تتصنع بخفض صوتها « هو
يطلب ان يتزوجني وانت تستحسن ذلك ؟ واحب ان اعرف رأي اخي امير
المؤمنين ايضاً »

فظنها تعني ما تقوله حقيقة وهو يريد ان تقبل طمعاً بالنجاة من صلاح الدين
فقال « وهذا هو رأيي ايضاً كما تعلمين من قبل »

فاجابت ببرود « لكنه ليس رأيي انا .. » وحولت وجهها عنه

فقال العاضد « يظهر انك لا تزالين على خطئك .. ان ابا الحسن ليس في اهلنا
جميعاً من هو اكفاً منه لك .. فضلاً عن تفانيه في خدمتنا »

فتأملت « اني لا اطلب كفووا ولا غير كفء . قات لك من قبل اني لا اطلب
الزواج .. دعنا من هذا الان .. وليطلب النصيب من طريق آخر .. »

فقال الجليس « وليكن ياسيدي .. اذا قبلت فانك تخدمين مصلحة مولانا
امير المؤمنين لان ابا الحسن اقدر انسان في الدنيا على انقاذه .. »

قالت وهي تنظر اليه نظر الاستخفاف « ان ابا الحسن كاذب .. انه لا يستطيع
شيئاً من ذلك »

فضحك الجليس ضحك استعطاف وقال « قد ظلمته بهذا الحكم يا سيدي .. لاني
على يقين من تفانيه في خدمة مولانا وهو صادق الغيرة على شرف آل البيت لانه
من صميمهم »

فقالت « وهو كاذب في هذا ايضاً - ان آل البيت عرفوا بصدق اللهجة
والاخلاص وهذا رجل منافق وكفي »

فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال « لا دليل على ما تقولين غير
قولك .. قد عرفت الرجل منذ بضعة اعوام ولم ار منه الاكل مودة واخلاص ..
ولا اعلم كيف جاز لك الحكم عليه بالكذب والنفاق »

قال: « اما انا فاعلم . وستبدي لك الايام صدق قولي .. اظنك قد تعبت يا اخي
واتأسف لاننا شططنا بالحديث الى هذا الحد . وانت منحرف المزاج فاذهب الى
فرائك وسهرى في الغد اني اقول الحق »

وكان العاضد قد تعب فعلاً وكان لقوله عليه تأثير شديد . فرأى ان يطيعها
ويؤجل الامر الى فرصة اخرى . فنهض ونهض الجليس وذهب كل الى فراشه
والخليفة احوج الجميع الى الرقاد

الفصل الثاني عشر

دار الاضياف

اما الجليس فكان اقلهم رغبة في الرقاد لما اصابه من الفشل في المهمة التي كلفه
ابو الحسن بقضاءها . وكان الجليس شيخاً حسن الظن قد استهواه ابو الحسن بدهائه
ومواعيده واقنعه ببرهانه وزلاقة لسانه ان انتقال ولاية العهد اليه خيرٌ للدولة وله
ولكل واحد . ولم يكن عند الجليس شكٌ في اقتدار ابي الحسن على انقاذ الدولة من
صلاح الدين . فلما كلفه بهذه المهمة سعى فيها من كل قلبه وصمم على ترغيب العاضد
فيها وهو يعتقد انه يخدم بها مصلحته

فلما عاد بالفشل اصبح لا يدري كيف يبلغ ابا الحسن نتيجة تلك المهمة فاعمل
فكرته في تلطيف الاسلوب حتى لا يثقل الامر عليه

وكان ابو الحسن نازلاً في دار الاضياف على مقربة من القصر الغربي وهي دار
كبيرة كانت في الاصل قصراً للمظفر بن اير الجيوش اقام فيها حتى توفي فجعلت داراً
للاضياف برسم الرسل الواردين من الملوك^(١) يتولاهم نائب يسمى عدي الملك ينوب
عن صاحب الباب في لقاء الرسل الوافدين على مسافة وينزل كلا منهم في دار تصلح له
ويقيم له من يقوم بخدمته . ثم صار صاحب دار الاضياف يسمى في الدولة التركية
مهندار ولكنه كان في زمن روايتنا يسمى عدي الملك

وكان عدي الملك كثير العناية بابي الحسن لما رأى من تقربه الى الخليفة ومنزلته

(١) المقري ١٦١ ج ١

عنده فأفرد له داراً خاصة وأمر الغلمان بخدمته . وكان أبو الحسن قد سحره بظواهراته
وبما يقصه عليه من اقتداره وعلو منزلته - والدولة في أواخر أيامها تروج فيها
السفاسف والمظاهرات ويتعلق أصحابها بالأوهام دون الحقائق وبالقشور دون اللب .
يصيرون إلى ذلك لما يتولى الدولة من الهرم وتزعزع أركانها وتصبح عرضة للناخبين
فتذهب أنفة أصحابها ويستغل كل منهم بنفسه ويصبح همهم الاحتفاظ برزقه ورزق
أهله وهو يتوقع زوال الدولة فلا يرجو ضمان ذلك فيها فتطيش آمله وتتعلق بأضعف
الأسباب وأوهي المواعيد . والإنسان إذا تولاه اليأس في أمر صدق كل قول يعيد إليه
الامل ولو كان ذلك القول من المستحيلات . ويتكاثر أهل الدسائس في مثل هذه الحال
للإصطياد في الماء العكر فيزينون القول ويزوقون الأعمال فيصبح أكثر معول الناس
على الظواهر

وكان أبو الحسن من أولئك الصيادين وهو من أهل الدهاء والذكاء قوي الحججة لا
يبالي بما تد يرتكب في سبيل الوصول إلى غرضه من قتل أو كذب أو تملق أو تزلف .
والذكي الداهية إذا اغضى عن مراعاة الذمة وصدق النية لا يعجزه الوصول إلى ما يبغيه
من الأغراض . وكان أبو الحسن طامعاً بالخلافة أو بولاية العهد على الأقل كما تبين لك
من حديث الجليس الشريف . فاتخذ كل وسيلة تؤديه إلى ذلك الغرض . ومن جملة
ذلك طلبه التزوج بسيدة الملك لعلمه بنفوذها على أخيها ولأن انتسابه إلى العلويين
يتأيد بزواجها . حتى أنه يفضل التزوج بها أولاً فيسهل عليه زواجه كل ما يبغيه
لكنها لم تكن تحبه ولا تخلص له ولا كانت تعتقد صحة نسبه . وقد خطأت أخاها لأنه
سلم بصحة ذلك النسب ولا شاهد له عليه إلا دعواه

على أنه رأى أن يستعين بالجليس الشريف لما يعلمه من منزلته عند العاضد لكبر
سنة فكافه بتلك المهمة واقنعه بصدق نيته فصدقها واخذ جانبها . لكنه لم يستطع اقناع
سيدة الملك فعاد في ذلك المساء أسفاً لفشل مهمته وقضى ليلته وهو يفكر في الأسلوب
الذي سيبلغ فشله به لأبي الحسن

وفي الصباح التالي بكر إلى أبي الحسن في دار الأضياف قبل أن يطلبه الخليفة
لمجيئته . وكان أبو الحسن في انتظاره على مثل الجمر لكنه حالمًا جاءه الغلام ينبئه
بمجيئه نهض لاستقباله ورحب به وأظهر أنه لم يكن يتوقع مجيئه واهتمامه إلى هذا الحد
فاستدره بالسؤال عن صحة الخليفة فقال « فارقه مساء أمس أحسن حالاً »
قال « أرحو أن يكون العارض قد زال بحول الله بزوال السبب »

فابرك الجليس غرضه فقال « ارجو ان يزول السبب تماماً وعند ذلك تحقق زوال المسبب »

قال « ان السبب لا بد من زواله باذن الله .. وهل تظني ارجع عن هذا الامر ؟ اني افعل ذلك لمصلحة امير المؤمنين .. وانا احببه واحترمه لا لغرض يهمني .. »
 فاعجب الجليس بطيب عنصره وازداد خجلاً من التصريح له بما جرى بالامس .
 ولحظ ابو الحسن سبب ارتباكه لانه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ويعلم ان سيدة الملك لا تقبل به من اول طلب فتجاهل ونظر الى الجليس وهو يظهر السداجة وسلامة النية وقال « انما ارجو ان يطمئن . ولانا امير المؤمنين منذ الآن انه ناج من كل شر ليرتاح خاطره ويسترجع صحته .. هل اقنعتك بذلك ؟ »

قال « اكدت له عزمك وهو يعتقد اقتدارك على هذا الامر لكنه .. »
 وتشاغل بحك لحيته وقد ارتج عليه

فابتدره ابو الحسن قائلاً « اود انك لم تفاجه بما كنا تحدثنا به البارحة من حيث ولاية العهد لئلا يظني اعلق اهمية على هذا الشرط .. اني لم اعن اشتراطه ولا جعلت نجاة الخليفة متوقفة على انقاده لكنني متى وفقت الى انقاده لا اظنه الا فاعلاً ذاك من تلقاء نفسه — وانا اؤكد لك اني اذا فعل هو ذلك ابادر الى رفضه لان مشاغل الخلافة ثقيلة .. وافضل ان اكون من بعض المشيرين المقربين و .. »

فام يصبر الجليس الى اتمام كلامه فتناطعه قائلاً « بارك الله فيك وهذا ما كنت اتوقعه من اريحيته وليكني لم اتمالك ان صرحت بالامر البارحة و .. »
 فاسرع ابو الحسن قائلاً « ولا شك ان الامر شق عليه .. طبعاً لانه غريب على خاطره ولا استغرب رفضه .. اني منصف .. لا اقول الا الحق .. »
 قال « لا .. لا .. لم يرفضه وليكن .. »

قال « هل ذكرت ذلك بينك وبينه في جلسة سرية ؟ »

قال « لا . لم اوفق الى ذلك .. ولكن الاحوال قضت ان اذكرة له وهو في دار الحریم و .. »

فقال ابو الحسن مسرعاً « وفي حضور اخته على ما اظن .. »

قال « نعم .. هكذا حصل .. »

فقال « لا بد انها كانت اكثر استغراباً منه .. انا لا الومها على ذلك كما اني لم الم اخاها .. ولعلك ذكرت لها شيئاً آخر غير ولاية العهد .. » قال ذلك وهو ينظر في

عيني الجليس ويظهر المداعبة

فابتسم الجليس وقال « نعم ذكرت لهما وتكلمت بما يمليه عليّ اخلاصي لك .. »

وبلغ ريقه

فعلم ابو الحسن ان جوابها لم يكن بالرضا ولولا ذلك لانتهج الجليس اسلوباً آخر في التبليغ فرأى ابو الحسن ان يغطي فشله بالدهاء فقال « اتنى ان تكون قد ترددت في اجابة هذا الطلب ايضاً »

فاستغرب تمنييه وقال « نعم ترددت قليلاً .. اظنها اجبت الحكم في ذلك الى ما بعد انقضاء هذه الازمة او .. لا ادري .. »

قال « قل صريحاً يا عماء .. انها رفضت وقد تكون عاقلة القلب باحد .. او .. فليكن ما تريد .. انا لا اعتب عليها ولكنني اعتب على اخيها الخليفة .. فانه مطاب بسيرة اخته وسمعها »

فتوجه الجليس بكليته اليه وقال « اؤكد لك ان امير المؤمنين لم يقصر من جهتك فانه حسن الظن بك .. »

فقال ابو الحسن وهو يتشاغل بتمشيط لحيته « يكفي ... كنت احسبها عاقلة كما يقولون، لكن يظهر انها لاتعرف مصلحة نفسها ولا لوم عليّ بعد الآن .. لا اعني اني اكف عن فداء امير المؤمنين بدمي .. ولكنني لا اري وجهاً للرفض .. واسمح لي ان اقول ما في خاطري - وان خرجت به عن الاحتياط المطلوب - ان سيدة الملك لا يطلبها من هو اجدر مني بها .. الا ان تكون مشغلة ببعض الرجال فهذا شيء آخر » قال « كلا لكنها قالت انها لا تريد الزواج »

فضحك ابو الحسن وهو ينهض من مجلسه وقال « لا تريد ان تزوج ! هذا كلام غير معقول .. ولكنها ستري نفسها مضطرة للزواج بغيري وتندم لانها لم تقبل بي » فهض الجليس انهوضه وصبر ايرى ما يريد فقل ابو الحسن « اظنني اخرجتك عن مجالسة امير المؤمنين وقد يكون في حاجة اليك فارجو ان تؤكد له اني مقيم على ولاءه افديه بروحي - ولا تذكر له شيئاً عن سيدة الملك .. انما اقول ساعها الله لانها لم تحسن المعاملة .. »

فودعه الجليس وهو معجب بطيب سريرته وعلو همته وسعة صدره وعاد الى منزله ينتظر امر الخليفة

الفصل الثالث عشر

عيسى الهكاري

أما أبو الحسن فلما خلا بنفسه رفس الأرض برجله من الغضب وقد أخذ الخنزير منه مأخذاً عظيماً وتمشى في الغرفة ويدها متعانتان وراء ظهره وهو يعمل فكرته ويتلاهي حيناً بالضحجة أو السعال أو يحك ذقنه أو يصلح عمامة . ثم وقف وقال مخاطب نفسه « رفض العاضد ان اكون ولي العهد بعده . لكنه سيراني خليفة — واما تلك الملعونة اخته فلا تزال ترفض الزواج بي — ان رفضها هذا اشد وطأة على نفسي من رفض الخليفة لكنها ستندم وتعود صاغرة . . . متى رأته ما يبلغ من كيدي . . . سوف تأتيني صاغرة باكية . . . واضنها تحسبني مغرماً بها واني اريد التزوج بها عن شغف بجمالها . لست ممن يتعلقون بهذه الاوهام — ليس في قاي حب لا احد . . . لا احب احداً ان حب النساء من الاوهام الباطلة التي تصرف الرجال عن المطالب العالية . . . اني اطلب ما يقصر عنه اخوها الخليفة نفسه . . . سأقتل صلاح الدين ولكن ليس اكراماً لها ولا لآخيها . . . سأقتله ليخلو لي الجو . . . سأقتله واقتل العاضد واقتل كل من يقف في سبيل وصولي الى الخلافة . . . انها حق لي . . . وقد اختلسوها مني . . . » قال ذلك وكاد صوته يرتفع من عظم التأثر فانتبه لنفسه وسكت ثم مشى الى غرفة داخلية اقفل بابها وراءه وقال وهو يشير بيده اشارة التهديد « اما تلك الخائثة فساذيقها من العذاب . . . سأجعلها تدم ولاية ساعة مندم . . . » ثم اشتغل بتبديل ثيابه وهو يعمل فكرته في تدبير الحيلة لاغاظة سيدة الملك قبل كل شيء . فلما فرغ من اللبس امر بالبعثة فاته وركب الى حيث يقيم صلاح الدين ووالده ورجال خاشيته . وفي جملتهم رجل يقال له ضياء الدين عيسى الهكاري من الامراء الصلاحية كبير القدر كان صلاح الدين يعول عليه في الاراء والمشورات . وكان في مبدأ امره يشتغل بالفقه بمدينة حلب فاتصل بالامير اسد الدين عم صلاح الدين وصار امامه يصلي به الفرائض الخمس . فلما توجه اسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوش صحبهما عيسى هذا وكان مخلصاً لصلاح الدين . فلما توفي اسد الدين اتحد عيسى وقراقوش على تنصيب صلاح الدين موضعه في الوزارة ودققا في الحيلة حتى بلغ المقصود (١)

(١) ابن خلدون ٣٩٧ ج ١

فذلك كان لعيسى دالة على صلاح الدين بخاطبه بما لا يقدر عليه غيره . . . وكان من
الجهة الاخرى علوي النسب فكان له مع ابي الحسن صداقة . وكان عيسى يحسن
ابا الحسن وفي نيته انه سيحتاج الى استخدامهم في مصلحة صلاح الدين فكان يكرمه
ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم . لان ابا الحسن كان يجتنب الاجتماع بصلاح
الدين . . . وكان عيسى الهكاري في ذلك الحين في منظرة اللؤلؤة يجالس صلاح
الدين وباحثه ويرشد اياه نجم الدين الى ما يسهل عليه المهمة التي جاء من اجلها
الى مصر

ركب ابو الحسن الى منظرة اللؤلؤة لا يريد دخولها ولكنه كان يعلم ان ضياء الدين
الهكاري يختلف الى هناك في تلك الايام فتوقع ان يراه في الطريق فيظهر انه التقى
به صدفة ليهون عليه جره في الحديث عفواً الى الغرض المطلوب . وكان يعلم ايضاً انه
يتردد الى دار العلم بجوار القصر الصغير . ودار العلم هذه انشأها الحاكم بامر الله وجمع
فيها الكتب وجعلها مباءً لطلاب العلم للمطالعة او النسخ . وفيها الحبر والاقلام والمحابر -
وقف على ذلك اما كن ينفق على دار العلم من ريعها . وكان يجتمع فيها العلماء للمناظرة
والمجادلة فاصبحت في ايام الافضل بن امير الجيوش مجتمعاً للمجادلة الدينية الخطيرة
فامر الافضل بابطالها اي اقفالها على الجمهور منعاً لفساد المذهب . لكنها ظلت تحتوي
على كثير من كتب الفقه والتاريخ فمن احب من الخاصة ان يطالع شيئاً منها اذن له .
فكان الهكاري من جملة المترددين الى هناك

فلما دنا ابو الحسن من منظرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكاري فقيل له انه
ذهب الى دار العلم . فحول شكية البغلة الى هناك واظهر انه ذاهب لغرض آخر غير
ملاقاته - فلما وصل الباب منعه البواب من الدخول لانه لا يعرفه فلم يعرفه
بنفسه بل قال « احب الاطلاع على بعض الكتب واعدود »

فقال « ذلك لا يجوز يا سيدي . »

فقال « كيف لا يجوز وقد علمت ان رجلاً دخل هذه الدار منذ هنيهة »

فقال « هو الفقيه ضياء الدين . . . »

فاظهر الاستغراب لوقوع هذه الصدفة وقال « الفقيه ضياء الدين هنا ؟ »

قال « نعم »

قال « هو صديقي . . . استأذنه بالدخول اليه »

قال « من اقول له ؟ »

قال « قل له ابو الحسن يطلب الدخول »

فذهب البواب ثم عاد ومعه ضياء الدين . فلما وقع نظره على ابي الحسن اسرع اليه ورحب به فتمحول ابو الحسن عن البغلة ودخل مع الهكاري وهو يتظاهرانه فرح بهندة الصدفة . وكان ضياء الدين يلبس زي الاجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فجمع بين اللباسين فلما الفقيا قال ابو الحسن مداعباً « انك قد جمعت بين زي الجند وزي الفقهاء فهل انت فقيه الآن ام جندي ؟ »

قال « اني فقيه في بحثي الآن »

قال « اما انا فقد طلقت الفقه وانما جئت للمطالعة في بعض الكتب لغرض علمي » قال ذلك ومشى فدخل ضياء الدين معه وهو يقول « تفضل ادخل . . أملك تبحث في مسألة لغوية ؟ »

قال « كلا اني لا ارى ذلك نافعا الآن ولكنني اطلب مسألة تاريخية . . احب الاطلاع على تاريخ السلاجقة فان هؤلاء القوم اشداء ولهم تاريخ مجيد » فالتفت ضياء الدين اليه وقال « اظنك تحب البحث عن سبب مقمق نظام الملك . . مسكين . . »

قال « لا . فان قاتله من الاسماعيلية اصحاب شيخ الجبل . . اليس كذلك ؟ ليس لهذا جئت . . ولكنني اريد الاطلاع على اصل هذه الدولة » قال « اتبعني الى خزانة كتب التاريخ »

الفصل الرابع عشر

طغرل بك

فتش ابو الحسن في اثره حتى ادخله غرفة فيها رفوف عديدة رتب فيها الكتب حسب المواضيع والعصور . وساعده ضياء الدين حتى جمع له بضعة كتب تبحث في الدولة السلجوقية ومبدأ امرها . فتناولها ابو الحسن واخذ يقلب فيها وهو يقول « فتش معي عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدولة انه كان رجلاً شديداً »

وبعد البحث وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك دفعه اليه فتناوله ابو الحسن وهو يقول « اظنني شغلتك عما جئت لاجله »

قال « كلاً بل انا في غاية السرور من هذه الصدفة لاني احب ان اعرف تاريخ
هذا الرجل مؤسس هذه الدولة التي دلات الدنيا فتحاً ... تفضل اقعد » و اشار الى
طراحة على مقعد بالقرب منه . فقعد ابو الحسن وقعد الهكاري بين يديه و اخذ كتاباً
آخر دفعه اليه ابو الحسن فجعل يقلب اوراقه وعيناه في الكتاب الذي يقرأ ابو الحسن
فيه . فزاد وقف عند صفحة وجعل يقرأها ويعيد قراءتها ويهز راسه اعجاباً او استعجاباً .
ثم قلبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بجانبه وتناول غيره . فاشتاق
ضياء الدين الى مطالعة الصفحة التي رأى ابا الحسن يحدق فيها . فتناول الكتاب وهو
يتوهم انه فعل ذلك خلسة و ابو الحسن لا يعلم . ففتح تلك الصفحة فاذا هي تحت في
خطبة طغرل بك لابنة الخليفة القائم بامر الله العباسي سنة ٤٥٤ هـ وكيف ان السلطان
طغرل بك وهو تركي طلب ان يتزوج بابنة هذا الخليفة مما لم يجسر عليه احد قبله . وان
بعض القضاة اخبر الخليفة يومئذ ان غرض السلطان من تلك الزيجة ان يأتيه من بنت
الخليفة غلام فيه الدم العباسي فيوليه الخلافة بهذه الحجة وتتوالى الخلافة في اعقابه
وتخرج من العباسيين . وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واستعطف السلطان ان يعفيه
من الاجابة الى طابه . فابى الا ان يجاب بحيث اضطر الخليفة الى اجابته وزوجه
ابنته . لكن طغرل بك مات في تلك السنة ولم يرزق من امراته هذه اولاداً^(١)
وكان ضياء الدين يقرأ ذلك و ابو الحسن يظهر انه يقرأ في كتاب اخر وعيناه
تخلسان النظر الى الهكاري . فلما علم انه فرغ من قراءة ذلك الفصل رفع نظره اليه
وقال « ارايت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع بحكمته وتعقله تأسيس هذه
الدولة التي لولاها لم يكن صاحب الشام ولا صاحب العراق ولا غيرهم .. »
قال « نعم انه رجل ذو بطش غريب وانا استغرب الان ما قراته في هذه الصفحة
عن مطامعه في الخلافة ما لم يطمع به احد سواه من غير القرشيين في ما اظن »
فتوجه ابو الحسن نحوه باهتمام وقال « طمع بها قبله عضد الدولة بن بويه
ف اراد ان يزوج الخليفة الطائع لله بابنته لتلد من الخليفة ولداً فيه من دمه فيجعل
الخلافة فيه فلم يوفق الى ذلك^(٢) واما هذا فانه خطأ خطوة اكبر من تلك . اراد ان
يتزوج هو ببنت الخليفة ليكون ابنها فيه دم العباسيين . . ولكن هل علمت كيف نجح
الخليفة من هذا الخطر فحفظ الخلافة في العباسيين ؟ »
فقال « انه نجح بالصدفة .. »

قال: « اتظن موت طغرل بك كان صدفة؟.. ابا صدفة يموت على اثر ذلك، العقيد المعتصب؟ لا اشك في انهم سقوه السم.. ولو احسن الاسلوب لاحتاط لنفسه ونجا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثاً »
فقال « وكيف يحتاط؟ »

قال « يحتاط بان لا يعرض نفسه للقتل بخطبة ابنة الخليفة فيظهر غرضه.. اعني لو طلب ان يتزوج اخت الخليفة او احدى بنات اعمامه مثلاً لا اظنهم كانوا ينتبهون لغرضه. فاذا ولدت له ولداً ذكراً كان فيه من الدم العباسي ما يكفي لادعاء حق الخلافة ولكن ذلك التركي كان قصير النظر.. »

ونظراً لاهتمام ضياء الدين الهكاري بصلاح الدين وشففه بتثبيات دواته كان كلما قرأ تاريخاً او سمع حادثة هامة طبق مغزاها على حال صلاح الدين اعلاه يستفيد منها ما يؤيد دولته. فلما سمع كلام ابي الحسن انتبه ان صلاح الدين يقدر ان يفعل ذلك بالتزوج من اخت العاضد وكان يسمع بجمالها وتعقلها والعاضد اضعف من ان ينكر على صلاح الدين طابه. وبذلك تصير الدولة اليه حتى نور الدين قد يدخل في سلطانه، فاشرق وجهه لهذا الفكر وصمم ان يفتح صلاح الدين به في ذلك اليوم. ولكنه تظاهر انه لم ينتبه لشيء وجعل يتشغل بقراءة فصول اخرى وابو الحسن يظهر من الجهة الاخرى انه يتكلم بكل سداجة. ثم غير الحديث فسأل ضياء الدين عن نجم الدين وهل هو مسرور من الاقامة في منظره الاؤلؤة. فاجابه بما يقتضيه المقام واصبح ضياء الدين شديد الرغبة في انصراف ابي الحسن ليضي في مهمته الجديدة

وبعد قليل استأذن ابو الحسن بالانصراف وودع صديقه الهكاري وعاد على بغلته الى دار الضيافة وهو يهمهم في اثناء الطريق ويكاد يخاطب البغلة من فرحه بانطلاء حياته اذ لم يشك ان الهكاري ذاهب حالياً الى صلاح الدين ليحرضه على خطبة سيده الملك. وهو يعلم يقيناً ان ذلك سيقع وقوع الصاعقة على رأسها ورأس اخيها ولا يجدان سبيلاً لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعيا بان الفتاة مخطوبة لابن عمها (اي هو) فينال غرضه على ادون سبيل



الفصل الخامس عشر

سيدة الملك

اما سيدة الملك فانها ذهبت الى غرفتها فاقبعتها هناك حاضنتها الخصوصية واخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعداداً للرقاد ولم تفتحها بشيء من الحديث الذي جرى لها مع اخيها رغم شدة رغبتها في ذلك — والخدم من اكثر الناس ميلاً الى استطلاع الاسرار لفراغ رؤوسهم من المشاغل الهامة مع اطلاعهم على مخبات تجري في منازل اسيادهم ووقوفهم امامها وقوف المتفرج ينتقدون هذا ويحسنون عمل ذلك على ما تسوقهم اغراضهم او مداركهم فيلذ لهم التحدث فيما بينهم كل واحد عما يعلمه من احوال محذوميه . ويندر فيهم من يحافظ على سر مولاه وينغار على سمعته ويسعى في درء الشبهات عنه . وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النادر واسمها ياقوتة

ربيت ياقوتة في دار الخلافة وسيدة الملك طفلة فكانت لها عناية خاصة بها . فشبت سيدة الملك على الاركان اليها والوثوق بها حتى جعلتها مستودع اسرارها فلم يكن يفوتها شيء مما يخالج ضميرها وذلك طبيعي في مثل حال هذه المرأة من الحجاب في ذلك العصر فانها لا تختلط بالناس ولا تجرد من تحادثه الا الخدم . وكانت ياقوتة قد علمت منذ جاء الخليفة انه يشكو انحرافاً وتلصصت من وراء الستر لتسمع ما يدور من الحديث على عادة امثالها من حب الاطلاع ورغبة في خدمة سيدتها . ولم تتوقع ان يدور بين الخليفة واخته ما دار . فلما جاءت سيدة الملك لنزع ثيابها كانت ترجو ان تسمع منها شيئاً جديداً ولحظت فيها تغيراً يدل على قلقها واضطرابها

فلما فرغت سيدة الملك من تبديل الثياب قعدت على سريرها وقد حلت شعرها الذهبي وارسلته ضفيرة واحدة الى ظهرها ونهدت الصعداء واطرقت ولحظت ياقوتة في عيني سيدتها ما يشبه الدمع فترامت على قدميها واخذت تقبل ركبتيها وتقول « مابالك يا سيدتي ؟ لماذا تبكين ؟ » الذي تبكيك ؟ » واطهرت انها لم تكن مطلعة على شيء فرفعت سيدة الملك بصرها اليها وبان الدمع فيهما ونهدت ثانية وقالت « تسأليني يا ياقوتة عن سبب بكائي ؟ وتستغربين حزني ؟ ليس حزني غريباً .. وانما الغريب ان لا اقضي يومي باكية نادبة .. » قالت ذلك وغصت بريقها

فتماركتها يا قوتة بالبكاء لـكنها اظهرت التجرد وقالت « ماذا جرى يا سيدتي ؟ هل حدث شيء جديد ؟ »

قالت « الا يكفي ما جرى مما تعلمينه . . آه . . ويلاه . . انت عاقلة لا تخفي عليك شيء . الا تعلمين حالنا مع هؤلاء الاكراذ واستبدادهم في الدولة . هذا اخي جاءني اليوم وقد اصابته الحمى من شدة الغيظ لما صارت اليه الخلافة - فكيف لا ابكي ؟ »

قالت « لا بأس من البكاء ولكن لا فائدة منه وانما الفائدة بالصبر والحكمة . . حتى يقضي الله بما يشاء - لكل امر نهاية . ولا بد لهذه الكارثة من نهاية باذن الله . . وانما . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا . لا . ليس لهذه الكارثة نهاية الا بالموت . . من ينقذنا من هؤلاء الاكراذ وقد وضعوا ايديهم في كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارساً من رجالهم » وبلعت ريقها ومسحت دموعها وهي تستعد لاستئناف الحديث ثم قالت « وهذا كله هين يا قوتة . . ؟ كله هين سهل بالنظر الى امر آخر جاءناه به الجايس الشريف في هذا اليوم »

فطاولت يا قوتة بعنتها وقالت « وما هو يا سيدتي ؟ »

قالت « جاءنا بهمة يزعم انها نجينا من هذا الضنك . . ولكنها اذا صحح او قعتنا في ما هو اشد وطأة واصعب مراساً . . »

قالت يا قوتة « وهل اشد وطأة من هذه الحال يا سيدتي ؟ »

قالت « نعم . . اشد وطأة منها ان يكون ذلك الكهل الوقح . . ولياً للعهد بعد اخي حفظه الله »

فاظهرت انها لم تفهم مرادها فاستفهمتها فاوضحت لها شروطه التي تقدم بيانها ثم قالت « وانفرض قدرة ذلك الشريف الكاذب على قتل صلاح الدين فان صيرورة ولاية العهد اليه بدل ابن اخي اصعب عندي من البقاء في حوزة صلاح الدين . . »

فقالت يا قوتة وهي تظهر الاهتمام « لا ارى رأياً في ذلك يا سيدتي بل اعد سعي ابي الحسن هذا باباً للفرج لانه اذا لم يستطع قتل صلاح الدين لا ينال شيئاً . وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه لان مولانا امير المؤمنين شاب في مقتبل العمر اطال الله بقاءه . ومن يعلم المستقبل »

فلم تعد سيدة الملك تصبر على سماع هذا العذر فهضت فجأة ونهضت معها يا قوتة وهي تنتظر ما تقوله فاذا هي تقول « ولكنك يشترط ايضاً شرطاً آخر الموت اهون علي من قبوله »

وكانت ياقوتة تعلم رغبة ابي الحسن فيها فاطهرت انها فهمت مرادها فقالت، « انك
تكرهين هذا الرجل كرهاً شديداً بلا سبب .. لولي بالك يا سيدتي حتى اتمم كلامي .
اذا نزلنا في مطالبه وشروطه لا نجد ما يبعث على هذا القلق .. ان الرجل من ابناء
عمك ويعرض ان يقتل اعدى عدو لنا وينقذ هذه الدولة من الخطر الذي لم يقدر
عليه احد سواه . فاذا فاز صار ولياً للعهد وتزوج باخت الخليفة لا اظنك تستدكفين
ان تكوني زوجة رجل انقذ الدولة من الموت وهو مع ذلك شريف النسب .. تبصري
في ما اقول .. » قالت ذلك واكبت عايتها وجعلت تقبلها وتضمها للتخفيف عنها

فانتشرت سيدة الملك من بين يديها وحولت وجهها عنها نحو ستارة معلقة على الحائط
عليها صور غريبة واظهرت انها تتأماها ولكنها لم تكن ترى شيئاً لفرط اضطرابها
وغضبها . وظلت ساكته فظنتها ياقوتة تستسيغ رأيها فعادت الى الموضوع واحاطت
عنق سيدتها بندراعها وهي تقول « لا تتعجلي يا سيدتي برأيك — فكري بالامر مايا
— ان عايتها يتوقف بقاء هذه الدولة وزد على ذلك انك لا تجدين من ابناء عمك من
يستطيع هذا العمل .. فلا باعث على هذا النفور منه »

فتطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها وقد بان الغضب في عينيها وقالت
« تقولين لا باعث على هذا النفور ؟ »

قالت « نعم اقول ذلك لاني لا ارى باعثاً . والا قولي ما يبعثك على رفضه ؟ »
« قالت « يبعثني على ذلك اني لا اطيق ان ارى هذا المنافق .. اذا رايتته ارتعدت
فرائصي من رؤيته .. تباً له كأن عينيه من نوافذ جهنم .. اذا نظر اليّ خيل لي ان
الشیطان يطل من حدقتيه ويهم ان يأخذ بتلابيبي .. دعيني لا اقدر ان انصوره .. »
فهزت ياقوتة راسها هز الانكار وقالت « يا للعجب انك تكرهين هذا الرجل
عفواً . اظنك تظلمينه . لم ار منه ما يبعث على شيء من ذلك .. »
قالت « الاترين الشرفي سحنته ؟ اني ارى ذلك واضحاً يكاد يلمس باليد .. »

دعيني منه »

قالت وهي ممسكة يدها تجلسها على السرير « اقعدني يا سيدتي لا خاطبك كما تخاطب
الام ابنتها وان كنت لا استحق هذا الشرف .. »

الفصل السادس عشر

الشكوى

فقدت وهي تنظر في عيني يا قوتة فقالت يا قوتة « انك يا سيدتي شابة في مقتبل العمر وقد منحك الله جمالاً وتعقلاً ولا بد من ان تزوجي بهن هو كفء لك . وانا لا ارى اكفاً من ابي الحسن فانه عريق في النسب العلوي الشريف »

فوثبت سيدة الملك من السرير وقد تغيرت سحنها وغاب عاينها الغضب وقالت « ليس الزواج ضرورياً لي . واذا كان لا بد منه فلا يهمني ان يكون ذلك الزوج من النسب العلوي .. » قالت ذلك وتهدت تهاداً عميقاً وامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها فجأة وبان الحياء في عينيها فحوت وجهها عن يا قوتة وغطت عينيها بكفيها فاستغربت يا قوتة حركاتها وادركت ان ذلك لا يبدو الا من فتاة عالقة القلب برجل يمنعها الحياء من ذكره . فغيرت لهجتها في الحديث وضمتها الى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت « فهمت الآن شيئاً لم اكن اعرفه من قبل .. انت عالقة القلب برجل آخر »

فنفرت سيدة الملك من هذا التعبير الصريح وتراجعت وهي لا تزال مطرقة ظلت ساكنة فتبعها يا قوتة وهي تقول « لعلي بالغت في التصريح فوقعت عبارتي ثقيلة على سمعك اعذريني لكنني اتقدم اليك ان تصدقيني هلي اصاب ظني ؟ - انا معك كل يوم وكل ساعة لا افارقك ولا يدخل علينا احد من الرجال غير اخيك وبعض الاطفال من ابنائهم وابناء عمك فيبعد ان تكوني عالقة باحد لكنني ارى دلائل الحب في عينيك .. » فازداد احمرار وجهها وزاد حياؤها وهمت بالكلام ثم توقفت

فقالت يا قوتة « قولي . لا تخافي .. هل تحبين احداً ؟ .. ثم تبحث في من هو ذلك الاحد .. »

قالت « دعيني يا خالة .. دعيني من هذا البحث الآن . لا فائدة منه غير زيادة الاشجان .. » قالت ذلك واظهرت انها تميل الى الرقاد فاعانتها يا قوتة حتى استاقت على السرير ووضعت الغطاء عليها وجعلت تصلح ما يحيط بها من الملاءة والمخدة وهي تراقب ما يبدو منها فاذا آهت ميلها الى الحديث استأنفته والا تركتها تنام اما سيدة الملك فان ذلك الحديث هاج اشجانها ومالت الى مفاتحة حاضنها بما يكنه ضميرها واكن الحياء كان غالباً عليها . وكانت تظن الحاضنة تصر من نفسها على

استبهم الحديث فلما رأتها اطاعتها واعانتها على الرقاد ندمت واخذت تتذرع الي استئناف الكلام فاطهرت ضجرها من الغطاء وتهدت والتفتت الى ياقوتة لفته اثرت في اعماق قلبها فانحنت فوقها وهي جاثية بجانب السرير وقالت « ما بالاك يا سيدتي يا حبيبتى ؟ لماذا تكتمين همك عني .. »

فقالت ولسانها يتلعم « اخاف ان تضحكي مني او تهزئي بي .. »
قالت « معاذ الله ان افعل ذلك وكيف افعله ولماذا ؟ .. »

قالت « لاني احب رجلاً لا يخطر ببالك اني احبه ولو علم اخي به لاستغرب عملي وحسبني مجنونة .. واما انا فلا .. » وسكمت وهي تتشاغل باصلاح شعرها تحت راسها ورفع الغطاء واصلاحه .. »

فوقعت ياقوتة في حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها او لعلها ادركت قصدها وتجاهات لتسمع زيادة التصريح فقالت « لم افهم يا سيدتي مرادك .. من هو الرجل الذي وقع من نفسك هذا الموقع لا بد ان يكون نادرة الزمان »

قالت « الا تعرفينه ؟ .. بلى تعرفينه جيداً . قد رايتك في هذه الدار كما رايتك .. وشهدت انت نفسك انك لا تعرفين اشرف منه خلقاً ولا اكبر همة ولا اعز نفساً .. رايتك وبيده خصلة الشعر التي كان اخي قد بعث بها الى صاحب دمشق يستغيث به باسم نساء قصره — ان اخي ارتكب بذلك ذلاً لم يمحه الا هذا .. فرد علي شعري بعد ان انقذ حياتي من الموت ونجى شرفي من الدنس »
فصاحت ياقوتة « اظنك تعنين الشاب الكردي ! .. »

فابتدرتها بلهفة وقالت « نعم اياه اعني .. اعني ذلك الشهم الباسل .. » قال ذلك وقد عاد اليها نشاطها وتحمست وبان الاهتمام في عينيها فتقدمت ياقوتة اليها وهي تبتمس وقد شاركتها بذلك الشعور وقالت « الان فهمت المراد .. قد عرفت الشاب جيداً ولا انسى ذلك اليوم .. »

فقالت سيدة الملك « هل علمت ما اسمه ؟ » فاطرقت الحاضنة واعامت فكرتها كأنها تراجع ذاكرتها ثم قالت « نعم علمت اسمه .. ولكن هل تعلمين انت من وما هي علاقته بصلاح الدين عدونا الالد الذي يشكو اخوك امير المؤمنين ظلمه ؟ »
قالت « لا .. لا اعلم .. »

قالت « انا اعلم .. انه من رجال خاصته .. لا يخطو خطوة الا وهو معه .. »
قالت وهي تبتمس « فهو اذاً قد نال ثمرة تلك المناقب السامية فتقدم عند

مولاه .. وما اسمه .. قالت ذلك وعيناها تلمعان
 قالت « اسمه عماد الدين .. وكثيراً ما رايتُهُ واقفاً بباب قاعة الذهب في انتظار
 صلاح الدين وهو عند مولانا امير المؤمنين .. لم نشاهده من شباك قصر ك ؟ »
 قالت « لم اشاهده هناك لكنني رايتُهُ غير مرة واقفاً بباب هذا القصر يخاطب
 الاستاذ بهاء الدين فراقوش وعيناه لا ترتفعان الى الشبابيك ولا ياتننت يميناً ولا شمالاً
 كأنه لا يعرف اهل هذا القصر . وكثيراً ما وددت ان يرفع بصره لعله يلتقي ببصري
 وربما اقرأ في عينيه شيئاً يداني على رايه في فلم يفعل فلم يزدني ذلك الا شغفاً بمناقبه
 آه اعذرني يا خلة اعذرني .. طالما كتبت هذا الحب حياءً وخجلاً وكنت ارى
 في كتمانها لذة . اما الان فقد بحت به وقضي الامر »

الفصل السابع عشر

الحب سلطان

فقلت « انت يا سيدتي تحبين عماد الدين خادم صلاح الدين ! . بالله ما هذا ؟ .
 كيف علقت به بمجرد النظر اليه مرة واحدة .. هذا امر عجيب .. ان بين اعمامك وفي
 قهور اخيك عشرات من الشبان اجمل من هذا ويقع نظرك عليهم منذ اعوام وكلهم
 يمتنون نظرة منك فلم تكترثي باحد منهم .. » قالت ذلك وهزت راسها هزة الاستغراب
 فاجبتها سيدة الملك « صدقت يا خلة اني اكثر منك استغراباً لما اصابني من مجرد
 تلك النظرة .. وما هي في الحقيقة نظرة .. انها ساعة اطول من العمر كله . كنت فيها
 بين الحياة والموت فنظرت ذلك الشاب وانا اكد التي وجه ربي او اناطخ بالعار . فمد
 يده وانقذني من الشرين جميعاً . فحبل لي انه ملاك هبط علي من السماء .. واكرم
 به من ملاك » قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد توردت وجنتاها

فقلت يا قوته « اذن انت تحبين عماد الدين »

فبرقت عينها رغم ذبولها من البكاء والانكسار وابتسمت ابتسامة لطف ما تكاثف
 في وجهها من الحزن واومأت برأسها ان « نعم » واسرعت الى الغطاء فرفعته الى
 رأسها استحياء

ووقع قولها عند يا قوته موقع الاستغراب وقالت وهي تزيع الغطاء عن وجهها

بأنظف « نعم يا سيدتي ان عماد الدين شهيم نادر المثال ولكنه لا يليق بسيدة الملك
سليمة المعز لدين الله »

فنهضت وقعدت وقد انحلت شعرها حتى غطى كتفيها وخصيها ونظرت الى ياقوته
نظر العتاب وقالت « ان المعز رحمه الله لم يبلغ الى هذا السؤدد ولا توارث ابناؤه هذا
الملك الواسع الا بمناقبه وعلو همته وكرم اخلاقه . ومناقب عماد الدين لا تقل عنها
شيئاً . انك تعلمين ما اتاه هذا الشاب من المرواة يوم واقعة العبيد وكيف تهالك في
سبيل نجاتي وحمل اليّ خصلة الشعر وهو لا يعراني .. ان كنت قد نسيت ذلك فاني
لا انساه .. لا انسى يوم اتاني ذاك الشقيان وارادوا حملي من هذه الدار فانقذني
هذا الغريب منهما بغير ثواب يرجوه ولا عقاب يخافه وانما فعل ذلك مندفعاً باخلاقه
السامية .. فانا من اجل هذه الاخلاق احببته ولم انظر الى اصله وفصله .. »
وتوقفت لحظة وهي ترفع شعرها عن عينيها ثم قالت « اتذكرين ذينك الرجلين اللذين
هما بي في ذلك اليوم ؟ اذا علمت الان انهما من ابناء الملوك او الخلفاء وطلبني احدهما
هل ترضين ان اكون زوجة له ؟ »

قالت « معاذ الله انهما ساقطا الهمة .. »

قالت « اعلمي ان احدهما يغلب على ظني انه ابو الحسن الشريف الذي ترغبوني
فيه .. والاخر خادم له استعان به لاختطافي في وسط الغوغاء بعد ان علم اني لا
اريد .. » قالت ذلك وكانها ندمت على ما فرط منها فسكتت واطرقت

فقالت ياقوته وقد تولتها الدهشة « هل انت على يقين مما تقولين يا سيدتي ؟ »
قالت « لا اقول اني على يقين .. ولكنني ارجح هذا الظن كثيراً . ومع ذلك فانا
لا اقول هذا ولا ذاك - وانما اقول اني منذ رايت عماد الدين وما اتاه من المروءة
شعرت بشيء اجتذب قاي نحوه وكنت اتوقع ان اراه مرة اخرى يأتي بها الى اخي
يطلب مكافأة على صنيعه فلم يأت فازددت اعجاباً به وارتفعت منزلته في قاي وتحول
الاعجاب الى حب شديد » ثم تنهدت وقالت « ويلاه هل هو يشعر مثل شعوري ؟ »
قالت ذلك وخنقتها العبرات ولم تعد تهالك عن البكاء والحاضنة تستغرب هذا التعلق
بنظرة واحدة فاخذت تخفف عنها وتقبلها وتقول لها « خفني عنك يا سيدتي .. ارجعي
الى رشك ان مثلك لا يسترسل في عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم يره الا بضع
مرات ولا يعرف شعوره من جهته - تجلدي وارجعي الى رشك لو فرضنا وانت في
هذه الهيام علمت ان عماد الدين يجب سواك كيف تكون حالك ؟ .. تبصري قليلاً .. »

فاستجمعت سيدة الملك قواها واسترجعت رشدها واطرقت وهي تتأمل بعبارة حاضنها فرأت الحق معها . ولكن الحب سلطان مستبد لا يدع الحق ولا يعرف الصواب . وإنما يلذ له الاستبداد بلا سبب والفتك بلا حساب . ولا يحلو الحب إلا أن يكون مستبداً ومتى اذعن للأحكام العقلية والاقيسة المنطقية أو الاعتبارات الاقتصادية صار معلماً أو تاجراً أو فقيهاً . وإنما هو سلطان مطلق لا يقيد دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يسأل عما يعمل ورعيته راضية باستبداده تعد ظامه عدلاً وتحسب عسفه رفقاً . ذلك كان شعور سيدة الملك في تلك اللحظة . كان عقلها يدها على مكان الخطأ وهي لا تريد أن تراه . فاسترست في عواطفها ونظرت الى ياقوتة والاعتراف على شفيتها والانكار في عيناها وقالت « صدقت يا خالة . . ولكني لا اظنه يفعل ذلك . . لا . . لا ولكن مهما يكن . . فاني لا ارى سبيلاً الى غير ما ذكرت فدبرني برأيك . . »

فتحيرت ياقوتة في الجواب ورأت الحديث قد طال وتوالت الغرائب التي كشفت لها في تلك الليلة فعزمت على استخدام الوقت للتفكير على انفراد لعلها تهتدي الى حل يرضي سيدتها ويوافق ضميرها . فترامت على يدي سيدتها تقبلها وهي تقول « خذني عنك يا مولاتي . اني امتك افديك بروحي . . كوني مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وأن الرقاد فتوسدي فراشك . وامهليني لانظر في الامر ولا بأس عليك في كل حال . فان اخاك حفظه الله لا يجبرك على من لا تحببته . وانا اعلم منزلتك عنده . لكن لا بد من تدبير طريقة لمشاهدة عماد الدين . . توسدي فراشك وها اني ذاهبة وسافرك فيك كثيراً الليلة على الخصوص . . واما انت فلا اظنك تفكرين بي . » وضحكت لمداعبتها ثم قالت « فكري بمن تحبين » . فاستلطفت سيدة الملك تعبيرها لانها كان من اقصى امانيها ان توافقها ياقوتة على اعتقادها وتشعر معها بما في قلبها فيهنون ، عليها كل شيء . فسرت عنها واطاعت حاضنها في الرقاد وذهبت ياقوتة أيضاً الى رقادها



الفصل السابع عشر

خزانة الجوهر

قضت سيدة الملك بقية الليل بين اليقظة والنم لمفرط قلقها وافاقت في الصباح التالي على صوت المؤذن لصلاة الصبح ولم يكن يطلب منها القيام للصلاة لكنها لم تعد

تستطيع رقاباً . فجعلت تتقرب على الفراش وافكارها تائهة . وتذكرت اخاها وهاجبت ان تعلم حاله بعد ذهابه من عندها هل شفي مما كان فيه . فهضت من الفراش والتفت بمطرف من الخزن التماساً للدفع وخرجت من غرفتها الى دهليز يؤدي الى شرفة تطل على مهلى اخليفة فرأت اخاها قد خرج للصلاة فاطمان بالها عليه . وهي عائدة الى غرفتها استقباتها الحاضنة وسألها عن حالها واخذت تحادثها وتوانسها ومشت معها الى غرفتها واعانها في ايس ثيابها وامرت باعداد المائدة وجاست اليها وهي تقول « اطمئنك عن صحة سيدي امير المؤمنين فانه في خير »

قالت « عرفت ذلك من خروجه للصلاة واحمد الله على ذلك . ولكنني احب ان اراه .. »

قالت « سترينه الليلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراغ من مهام الدولة . . هيا بنا الى الطعام الآن »

فمشت الى غرفة المائدة فتنارت الطعام وهي تتوقع ان تفتحها ياقوتة بالحديث عن عماد الدين فلم تفعل فاستجيت هي ان تذكره . قضت نصف ذلك النهار وهي تتشاغل بشؤون مختلفة . واحست بعد الغداء بميل الى الرقاد من فرط تعب الامس فتوسلت فراشها فنامت ملء جفونها . وافاقت وقد بدأت اعصابها وهان عليها ما هي فيه بالنسبة الى ما كانت عليه من التعب - لان تعب الاعصاب يزيد صاحبه قلقاً ولا يريه الامور الا من وجهها الاسود

فهضت من الفراش وقد اشرق وجهها وعاد اليه ابتسامه وشفقت تطلب الحاضنة فابطأت عليها . ثم جاءتها وفي وجهها خبر نخبتي قلب سيدة الملك عند رؤيتها ولم تصبر عن الاستنهام عما وراءها فقالت ياقوتة « ما ورائي الا الخير يا سيدي .. هلم بنا » فاجنلت وقالت « الى اين ؟ »

قالت « الى خزانة الجوهر » فاعرضت عنها اعراض المنكر لما يسمعه وقالت « اين الجوهر ؟ انهم لم يتركوا فيها شيئاً »

قالت « انهم اخذوا كثيراً وتركوا كثيراً . لكنني لا ادعوك للجوهر يا سيدي وانما اريد ذهابك الى تلك الخزانة لملاقة سيدي امير المؤمنين فانه انفذ في طلبك اليه على ان توافيه الى تلك الخزانة لسبب لا اعلمه »

قالت باهفة « اخي يطاب ذهابي لملاقاته هناك ؟ »

قالت: « نعم يا سيدي . ولا حاجة الى تبديل ثيابك لانك تذهيبين الى ذلك المكان في دهليز يؤدي اليه لا تجدين فيه احداً . هلم بنا » قالت ذلك وأشارت اليها ان تمشي ففتت رأسها بملاءة لازوردية اللون . ومشت وهي تفكر في ماذا عسا . ان يكون الغرض من هذه الدعوة في ذلك النهار

خرجتا من قصر النساء الى دهليز اخلاء الخدم والجواري . فمرت سيدة الملك ولم تجد احداً في طريقها حتى اتت خزانة الجوهر . وهي غرف عديدة . نصبت فيها الخزائن والرفوف واقامت في ارضها الارائك فوق الطنافس . ولم تكن دخلت تلك الدار من عهد طويل . ولكنها كانت تسمع بما تحوي من الذخائر النفيسة والمجوهرات الثمينة وتعلم انها أخذت في ايام المستنصر بالله ابي تميم لما غاب على امره منذ نحو مئة عام . ولم تكن تتوقع ان تجد فيها شيئاً من الجوهر يستحق الذكر

وصلت الباب فاستقبلها الحاجب وادخلها و اشار الى ياقوتة بالانصراف فانصرفت . اما سيدة الملك فدخلت وعيناها شائعتان تبحثان عن اخيها . فرأته جالساً في صدر القاعة الوسطى وحده على مقعد وقد تخنّف بعمامة صغيرة وبيده سبحة يعد حباتها وهو مطرق يذكر . فلما انبأ الحاجب بمجيء اخته رفع بصره اليها وهش لها واخذ يرحب بها فترامت عليه وسألته عن صحته فقال « اني والحمد لله في خير وعافية وكيف انت ؟ »

قالت « طالما كان امير المؤمنين سالماً فانا سالمة ابقاه الله لنا ركناً وسنداً » قالت ذلك وهي تقرأ في وجهه خبراً جديداً . لكنها تجاهات وخاطبته وهي تقعد على وسادة بالقرب منه قائلة « اني لم ادخل هذه الدار منذ سنين عديدة وآخر مرة دخلتها . كنت طفلة ولا اذكر اني عامت ما فيها و ... »

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عساك ان تعلمي ؟ يكفي ان تسمعي بما كان فيها . قيل عهد جدنا الامام المستنصر رحمه الله .. انظري الى هذا الصندوق » فنظرت اليه وهو متقن الصنعة وعليه نقوش فظنته يستلفت نظرها الى نقشه فقالت « انه جميل »

قال « لا أعني جمال ظاهره ولكنني أعني ما كان فيه من الحجارة الكريمة . أخبرني والذي رحمه الله انهم اخرجوا منه في زمن المستنصر سبعة امداد زمرد قيمتها ٣٠٠٠ دينار تخاطفها الناس »

فدهشت من ذلك وقالت « ان ذلك غريب نادر »

قال « ولو اردت ان اذكر لك اسماء ما كان من التحف في هذه الدار لاستغرق سردها فقط عدة ساعات وانما اذكر عقداً من الجواهر قيمته ثمانون الف دينار بيع يومئذ بالف دينار . واخذوا من خواتم الذهب والفضة فقط نحو ١٢٠٠ خاتم فصوصها من الجواهر المختلفة فيها ثلاث خواتم ذهب مربعة على كل منها ثلاثة فصوص أحدها زمرد والاثنان ياقوت سماقي ورماني بيعت باثني عشر الف دينار . غير ما اخرجوه من الجواهر ونحوها فإنها كانت تحصى بالوية وتكال بالكيل . منها وية جواهر مشتراه في الاصل بسبعماية الف دينار باعوها بعشرين الف دينار . وطاوس ذهب مرصع بالجواهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من زجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش الطاوس . غير التحف المتوارثة عن الخلفاء او المنقولة اليها من العباسيين وغيرهم (١) ورقع الشطرنج أحجارها من الجواهر والذهب والفضة والعاج . كل هذه ومئات مثلها اخذت في نكبة المستنصر ولا فائدة من الكلام الآن . . »

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت « ان مصيبتنا قديمة يا أخي . . ولا فائدة من التذكار الآن » قالت ذلك وهي تتعجل ما في خاطر اخيها عن سبب استقدامها اليه

فقال « صدقت . . ولكنني اطمئنك ان أولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا فان بعض خواصنا واهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لنا ببعض ما كان من الذخائر ولا يزال مخبأاً الى الآن » قال ذلك ونهض الى خزانة داخلية في الحائط لا تستلفت الناظر اليها ففتحها بمفتاح استخرجه من جيبه ومدَّ يده فاخرج منها حقاً فيه عقد من الجواهر يبهز النظر دفعه اليها فتناولته وجعلت تقلبه فقال لها « خذيه جريبه على عنقك »

فتراجعت واعادته الى الحق . فمد يده واخرجه والبسها اياه في عنقها وقال « هذا لك »

فارادت ان ترجعه فمنعها وقال « خذيه انه لا يليق باحد سواك . . » واستخرج من حق آخر خاتماً حجارتها من الزمرد والياقوت نحو الذي ذكره والبسها اياه في اصبعها . فلم يعجبها منه هذا الكرم ولحظ استغرابها فقال « لاتستغربي ما تريينه فان في هذه الخزائن تحفأً أخرى لا يعلم بها سواي وسأدفعها كلها اليك لئلا تنهب كما ذهبت تلك »

فتوسعت من كلامه شيئاً يعنيه لسبب طراً عليه فقالت « ماذا تعني يا أخي ؟ معاذ الله ان يكون ما تشير اليه .. لا يجمع بهذه الذخائر سواك وسوى اولادك .. » قالت ذلك واختنق صوتها رغم ارادتها لكنها تجلجت وهمت ان تم كلامها فلحظت في عيني اخيها شيئاً كالدمع وهو ينظر اليها نظر المستعطف . ثم قال « انت لا تريد ان تبقى هذه التحف لنا »



الفصل الثامن عشر

بين خطيبين

فادركت ما يشير اليه من تمنعها عن قبول ابي الحسن زوجها لها بعد ان تكفل بقتل صلاح الدين . فاحست بوخز الضمير واثرت فيها الاسلوب الذي اختاره اخوها لمعاتبها . لكنها لا تستطيع ان توافقه ولا تعتقد ان ابا الحسن يستطيع القيام بوعده ولم تجد الوقت مناسباً للدفاع في تلك الساعة فقالت « انت تعنفني يا أخي على امر ليس في طاقتي .. فانا قد عاهدت نفسي ان لا اتزوج .. واذا كان ذلك الرجل يقدر على شيء فليفعله ثم نرى ما يكون »

فراى في جوابها شبه الرضى فقال « انما المطلوب قبل كل شيء ان تظهر الرضى به ليقدم على العمل .. اليس كذلك ؟ كيف يتصدى لهذا الخطر وهو يرى هذا الرفض ؟ » قال ذلك وهو يتسم ويهش ليسترضيها فكادت ان تغلب على امرها واوشك ان يحملها حبه لآخيها على ان توافقه في ما يريد . لكنها ما لبثت ان تصورت ابا الحسن فنفرت منه وتذكرت عماد الدين فاختلج قابها في صدرها وتوردت وجنتاها فظنها اخوها تريد اجابته لكنها تستحي فقال « ما الذي يضرك ان تحيي طلي وهذا الرجل اكفاً انسان لك .. فضلاً عما وعدنا به من الخير ... قولي انك ترضينه خطيباً لك .. واذا كنت تمسكين قبولك به مصيبة فانها مصيبة صغرى .. » وابتعدت عيناها كأنهما تنطقان بسرٍ يكتمه . وتشاغل بعد حبات مسبحته

فاطرفت سيدة الملك واعملت فكرتها في كلام اخيها فخافت ان يصح ظنها فقالت « ماذا تعني يا أخي بالمصيبة الصغرى وهل هناك مصيبة اكبر منها ؟ »

قال « اكبر منها يا اختي ان يطلبك رجل اعجمي من غير اهلك لا قبل لنا برد طلبه .. فهمت ؟ »

قالت « ماذا تعني ؟ من يتجاسر على هذا الطلب ؟ »

قال « يتجاسر عليه الذي تجاسر على سلب حقوقنا من اباينا واستبد بالامور دوننا ونحن احياء .. الرجل الذي نخاف صوته ونحسب لحركاته الف حساب .. الا يستطيع هذا الرجل ان يطلب ؟ واذا طاب من يرده ؟ »

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام اخيها فقالت « صرح بما تقول .. هل تعني صلاح الدين ؟ »

قال « نعم اياه اعني .. فما قولك ؟ »

فتراجعت وقد اصطكت ركبناها وارتعدت فرائصها ولم تمالك عن القعود على المقعد وقد امتقع لونها واوشك الدم ان يجمد في عروقها وسكنت

فبعد اخوها بجانبها واحاط ذراعه حول كتفيها ليلطف من بغتها وقال « اني ازعجتك بهذا الخبر ولكنك اخرجتني .. ولا تظني الامر قد نفذ .. انه لم يطلبك صريحاً بعد .. ولكن رجلاً من خاصته جاءني في هذا الصباح وفاجاني بهذه المصيبة بعد ان مهد الكلام بمقدمات طويلة عريضة الى ان قال « ان السلطان صلاح الدين يريد ان يتشرف بهذا القران فاحب ان يسألك على يدي قبل الاقدام على الطلب لعل هناك مانعاً »

فقالت « وماذا اجبته ؟ »

قال « هممت ان اجيبه بانك مخطوبة لابي الحسن لعلمي ان هذه الحجة تكفي للنجاة من هذه الورطة لكنني استهلتته في الجواب الى الغد لاسألك وقد اخترت هذا المكان للمقابلة حتى لا يكون معنا ثالث .. ها اني قد اطلعتك على جاية الامر فرأيتك .. ألا ترين القبول بان عمنا اولي ؟ » ولم يكن العاضد ينتظر منها غير القبول فلما ابطأت في الجواب وهي مطرقة كرر السؤال

أما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة من هذه الورطة لانها تفضل الزوايا بصلاح الدين ولا بابي الحسن لكنها تفضل عماد الدين على كليهما . وحدثها نفسها ان تصرح له بما يكره ضميرها فخافت العاقبة . فلما كرر اخوها السؤال قال « صدقت ان الاحتجاج بكوني مخطوبة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه .. قل اني مخطوبة اذا شئت ولا تذكر لمن »

قال « لېكنه لا يصدق الا اذا ذكرنا الخطيب لئلا يحسبنا نكذب لنتخلص منه .. سأقول له انك مخطوية لابي الحسن »

فابتدرته قائلة « كلا. لا تقبل هذا .. لان ذلك لا يكون ابداً » ولم تمالك عين هذا التصريح وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها

وبان الغضب في وجهه وقال « كنت اجاملك وألاطفك قبل هذا المشكل . اما الآن فلا ارى لرفضك معنى بعد ان بينت لك السبب .. لست هذه شعائر الاخوة المحبة لآخيهما . وانت تعلمين ما وعدنا ابو الحسن به . ولا سيما الآن بعد ان يعلم ان صلاح الدين مناظره فيك فانه يزداد اهتماماً في تنفيذ غرضه .. قولي انك قبلت به والا ضعف اعتقادي بتعقلك وصدق محبتك . واعلمي مع ذلك ان امير المؤمنين يخاطبك ويطلب ذلك منك وهو ولي أمرك » قال ذلك بشيء من السلطة

فعظم ذلك التهديد عاينها وهبت الحمية في صدرها ورجعت اليها عزة نفسها فنظرت الى اخيها نظر العاتب وقالت « تهددني بما لك من السلطة علي .. وبانك ولي امري ؟ ان هذا لا يغير شيئاً من عزمي . واذا شئت ان تنفذ هذه السلطة من نفسك فافعل . واما انا فيستحيل عليّ القبول بذلك المنافق المرأي .. وربما فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة . ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك .. »

فدهش العاضد لهذا التصريح وقال « ألى هذا الحد باغ من جسارتك وتخطيبيني بهذه القبيحة ؟ .. اظني اخطأت لاني شاورتك في الامر . وكان لي ان لا استشيرك لاني ولي امرك من جملة وجوه .. وانا فاعل ما اراد خيراً لك . اذ يظهر لي انك متمسكة بالخطأ لغير سبب اعاده .. لم يبق الا ان تخرجي للسوق وتختاري لك زوجاً من المارة وابناء السبيل ! . ليس ذلك من شأن بنات الخلفاء .. ان العناية جعلتك من طبقة الملوك وميزتك بالاسب الشريف فلا يجوز لك الاقتران بغير الاكفاء . وهذا ابو الحسن ابن عمنا وهو اكفأ انسان لك . يكفي الآن .. » قال ذلك وتحفز للمسير كانه قال ما لا يقبل نقضاً ولا ابراماً

اما هي فظلت واقفة واوشكت ان تسقط على الارض من التأثر لانها لا تقدر ان تبوح بما في خاطرها بعد ان رأت اخاها يكبر تفضيلها صلاح الدين فكيف لو علم انها تحب خادمه . فرأت السكوت في تلك الحال اولى وصممت ان تفعل ما يحلو لها ولو خالفت الشرع والعرف . فلما رآه يتحرك للسير مشيت بهدوء وسكينة ولم تفه بكلمة فظنها شعرت بسلطته عاينها فقبلت . فكنتم فرحه وظل على اظهار الغضب والعتب

وحالاً خرجت من الباب رأت حاضنها تنتظرها في الدهليز فرافقتها الى غرفتها
وقد نظت الحاضنة تغيراً بيناً في وجهها فاصبح همها استطلاع الخبر
اما سيدة الملك فانها صممت على عمل لا يخطر لحاضنها ولا غيرها وفضلت البقاء
على كتمانها لئلا تحول ياقوتة دون انفاذه . خطر لها ان تستقدم عماد الدين وتفرّ معه
من قصر اخيها وتنجو من ذلك الاسر . ولكنها لا تستغني عن ياقوتة في البحث عنه
واستقدامه فعزمت على كتمان ذلك عنها

اما ياقوتة فانها تهيبت من غضب سيدتها . ورغم ما لها من الداله عليها لم تجسر على
مخاطبتها . فاخذت تتدرع الى استطلاع حالها بالتجاهل فحالمًا دخلت الغرفة قالت لها
« ما لي ارى سيدتي غاضبة .. ما الذي اغضبها ؟ اني ارى في جيبها عقداً من الجوهر
وفي اصبعها خاتماً من الزمرد والياقوت لو كانا لي لزالتي عني هموم الدنيا »
فانتهبت سيدة الملك الى العقد والخاتم وكانت قد نسيتهما لفرط قلقها فنزعت العقد
من عنقها والخاتم من اصبعها ورمتهما الى الارض وجاست على السرير وهي تنهد
فالتقطت ياقوتة العقد والخاتم وهي تقول « ما بالك يا سيدتي .. ما الذي اغضبك ؟
اذا كان هذا العقد قد غيرك اعطيني اياه »

قالت « خذيه .. بل هاتيه .. » واسترجعته من يدها ووضعت في جيبها مع الخاتم
فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت « اذا كنت قد غضبت من امير
المؤمنين فما هو ذنبي يا سيدتي وانا اتفاني في خدمتك ؟ »
فاظهرت الارتياح الى قولها وكظمت غيظها وقالت « بارك الله فيك دعيني الان »
قالت « لا . لا اتركك حتى تقولي ماذا جرى بينك وبين مولانا امير المؤمنين »
قالت « انه مولاك وليس مولاي »

قالت « انه مولانا بحكم الله اطال الله بقاءه »
قالت « اطال الله بقاءه لكنه .. » وسكتت وقد شرقت بدموعها
فقالت ياقوتة « ما بالك قد غيرت عادتك معي لماذا لا تشكين اليّ همك لعلني استطيع
خدمتك بشيء . الم نكن على موعد للنظر في امر عماد الدين ؟ »

فلما سمعت اسم عماد الدين سرّى عنها وهان عليها الصبر والتفتت الى ياقوتة
وابتسمت وغيناها تلمعان من الدمع فآثر منظرها في ياقوتة واكبت على يديها تقبلها
وتقول « بالله لا تغضبي يا سيدتي .. لا تعامليني بالجفاء .. افصح لي عما يكنه ضميرك
وانا امتك افديك بروحي .. قولي لا تخافي »

فتنهت وهي تتجدد وقالت « كنا على موعده من امر عماد الدين نعم .. ماذا رأيت؟ وماذا دبرت؟ »
 قالت « لم أر شيئاً ان الأمر لك .. وانا طوع ارادتك ماذا تريد ان افعل؟
 قولي وانا فاعلة حلالاً »
 فنظرت اليها نظرة اخترقت احشاءها وقالت « اريد ان يأتي عماد الدين الى هنا في هذه الليلة .. »

قالت « في هذه الليلة ! ولماذا؟ »

قالت « لا تسأليني عن السبب .. انت تقولين انك طوع ارادتي وهذه هي ارادتي.
 اريد ان اري عماد الدين الليلة »

قالت « لك علي ذلك .. خفي عنك الآن وارجمي الى رشك واحكي لي عما جرى لك اليوم مع سيدي امير المؤمنين »

فلما اطمان بالها من جهة استقدام عماد الدين خف قلقها فجلست وامرت حاضنتها ان تجلس وقصت عايتها ما دار بينها وبين اخيها من اوله الى آخره . فآثر ذلك في رأيها ورأت سيدتها اخطأت بمقاومة الخليفة ولكنها لم تجسر على تخطئتها فظهرت انها ترى رأيها على نية ان تعود الى البحث معها في الامر بعد قليل فطمأنتها انها تفعل ما تريده وغيرت الحديث وشغلها بمهام اخرى



الفصل العشرون

عماد الدين

قد علمت من حديث العاضد واخته ان صلاح الدين بعث يخطب سيدة الملك شفاهاً وسبب ذلك ان عيسى الهكاري لما خرج من دار العلم سارتوا الى صلاح الدين واسرع في مقابلته على انفراد في خلوة وتطرق في الحديث الى خطبة اخت الخليفة واقنعه بما تقدم من الادلة السياسية فاستحسن صلاح الدين رأيه فاستقبله ليشاوره اباه فنهاه عن مشورته اذ ربما اقتضى رأيه ملاطفة الخليفة وهم لا يرون ذلك . واذكر الهكاري بسعيه في مصاحته منذ عرفه . فقال صلاح الدين « انا قابضون على ازمة

الدولة تفعل بها ما نشاء من عزل وتولية واموال وغيرها فكيف نطمع بالخلافة . وهذا لم يقدم عليه احد قبلنا من غير العرب واخاف ان نطلب الزيادة فنقع في النقصان .. « فقال « لا اعهدك ضعيف العزم يا مولاي اذا كنت لاتعرف احداً طلب الخلافة من غير العرب الا يجوز ان تطلبها انت . . او تمهدا لاولادك بسبب الاقتران باخت الخليفة ؟ وزد على ذلك ان سيدة الملك من اجل النساء خالقة فضلاً عن ذكائها ودهائها . واما الخلافة فاذا طلبتها واحوجنا النسب القرشي فانه ميسور لان كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ونزل بعضهم في بلاد الاكراد فقد يكون جدك متسلسلاً من احدهم » قال ذلك وهو يظهر الجدل . وادرك صلاح الدين انه بهون عليه ادعاء الخلافة بزواجه باخت الخليفة واذا لزم النسب القرشي انتحل له نسباً فيهم . ولكنه لا يزال يتهيب من الاقدام على الخطبة فلما رأى الحاح عيسى قال له « اذا لم يكن بدٌّ من العمل برأيك فاجعل ذلك منك على سبيل الاختبار بلا كتابة مني . . »

قال « اني فاعل ذلك من عند نفسي فاخاطب الخليفة في رغبتك وأرى ما يكون .. »

قال « حسناً » وذهب الهكاري في تلك الساعة الى العاضد واطاعه على ذلك باسلوب

لطيف فاستمهاه في الجواب كما رأيت .

اما صلاح الدين فانه بعد ذهاب الهكاري من عنده خلا بنفسه وراجع ما دار بينهما فرأى انه تسرع في الامر وكان ينبغي ان يكشف اياه به قبل الاقدام عليه . لكنه أجل ذلك حتى يعود الهكاري بالجواب وهو لا يزال في حل من الامر . وبعد قليل نادى غلام يدعو الى الطعام مع ابيه في الجانب الآخر من قصر اللؤلؤة فمضى . وهم على الغداء قال نجم الدين يخاطب ابنه صلاح الدين « يا يوسف لم ار عندهم اهتماماً بميادين السباق . لا ينبغي ان تترك رجالك يرتاحون طويلاً انشيء لهم الميادين للمسابقة على الخيول فانهم بذلك تتقوى ابدانهم ويشتغلون عن الدسائس »

قال « صدقت يا ابي ونحن لا يمضي اسبوع لا نجري فيه سباقاً فمن فاز بالسبق

قدمناه وخالعنا عليه . واحب ان اجرب ذلك بين يديك في هذه الساعة وسأختار من

رجالي أمهرهم في الركوب » ونادى عماد الدين فأتى مسرعاً وخفة الروح ظاهرة في

وجهه والشجاعة تتجلى في عينيه والنشاط ظاهر في انتصاب قامته وامتلاء عضله . فانه

وقع نظر نجم الدين عليه استلطفه فاطال النظر فيه وصلاح الدين يأمره ان يستعد

للسباق مع آخرين سماهم . فإشار عماد الدين مطيعاً وانصرف فتحول صلاح الدين الى

ايه وهو يتسم ابتسام الاعجاب وقال « كيف رأيت هذا الشاب يا ابي ؟ »

قال «كنت عازماً على ان اسألك عنه لانه وقع من نفسي موقعا جميلا واتوسم فيه الشجاعة والبسالة ولا اظنه الا بالغمماً مقاماً رفيعاً بين رجالك»

قال «وكيف اذا رأيت مهارته بركوب الخيل وخبرت اخلاقه الحميدة . يكفي استهلاكه في سبيل خدمتي انه يجني حياً مفرطاً فلوقات له القـ نفسك في النار لفعـ . . .»
قال « احرص عليه وقدمه . . .»

قال « اني لا اترك فرصة تمر الا اكرمه بها وهو الآن من جرسني ويستحق أن يكون من كبار القواد لكنه لا يزال صغير السن وسيكون له شأن . . . وقد سرني انك توسمت فيه ما توسمته انا وتحققته بالاختبار . . .»
فقال نجم الدين « هل زوجته ؟ »

فقال « اردت تزويجه بجارية جميلة فلم اجد فيه ميلاً للزواج »
فهنر نجم الدين رأسه وقال « تلك هي مناقب اصحاب المطمع طلاب السيادة ينصرفون بكليهم الى تلك المطامع . . . فاحتفظ بالشاب »

وهما في ذلك سمعا قرع الطبول استعداداً للسباق فجلس صلاح الدين مع ابيه على اريكة نصبوها لهما بين يدي القصر تشرف على حابة السباق وفوقها مظلة من الحرير الملون . واطلق الفرسان الاعنة وكان عماد الدين على فرس ازرق يمتاز عن سائر الافراس يعرفه الناظرون عن بعد ولحظ نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان بالخفة واللباقة . ولعبوا العاباً عديدة وتسبقوا وتراموا وكففة عماد الدين راجحة في كل لعب قضاوا في ذلك بضع ساعات وصلاح الدين جالس مع ابيه تحت تلك المظلة . ثم اخذ الفرسان يتوافدون للمرور امام المظلة لالقاء التحية وصلاح الدين يثني على مهارتهم ويكلمهم بما يقتضيه المقام حتى جاء عماد الدين فامر به صلاح الدين أن يترجل ويأتي الى ابيه فترجل ووقف بين يدي نجم الدين وقوف الاحترام . فقال له « يا عماد الدين ستكون رجلاً مقداماً ويسرني انك حائز على اعجاب سلطانك »

فاكب عماد الدين على يدي نجم الدين يقبلهما وقال « اني عبد لمولاي السلطان أفديه بروحي . . . واذا قدر لي ان اكون شيئاً مذكوراً فيكون ذلك من فضله . . . لا لاستحقاق . . .»

فربت له على ظهره وتناول خنجراً كان في منطقتة ودفعه اليه وقال « احتفظ بهذا الخنجر تذكراً مني . . .»

فاكبر عماد الدين هذا الاكرام من والد صلاح الدين وهو يعلم ان صلاح الدين

نفسه يهابه فترامى على يديه يقباهما . وكان صلاح الدين يخاطب بعض الفرسان فلما فرغ من خطابه تحول الى ابيه فوجده يخاطب عماد الدين فانبسطت نفسه لاجابه بذلك الشباب وقال « يسرني انك راض عنه »

فقال نجم الدين « وهو جدير بذلك وارى ان تقدمه وتجعله من خاصتك »

قال « هو من حرمي كما قلت لك »

قال « احب ان يلازمك ولا يفارقك ليلاً ولا نهاراً وان تكون له دالة الصديق

فيدخل عليك بلا اذن »

فالتفت صلاح الدين الى عماد الدين وقال له « امر والدي بذلك فانت من الآن

لا تفارقني في حل ولا ترحال » ونهض ومشى مع ابيه نحو القصر وعماد الدين يتبعهما .

وامر صلاح قيم القصر ان يختص عماد الدين بغرفة قرب غرفته ففعل واصبح عماد الدين

لفرط امتنانه لا يعرف كلاماً يؤدي به ما في خاطره ولكنه اضمر ان يتفاني في خدمة

مولاه ويغلب في صادقي المودة والمخاضين في اعمالهم ان يكون لسانهم قصيراً فيعبرون

عن شعورهم بالعمل دون الكلام

الفصل الحادي والعشرون

امر غريب

ولم يكن لهم في ذلك اليوم شاغل هام فبعد العشاء ذهب كل الى غرفته . وقضى

نجم الدين ليلته في غرفة ابنه صلاح الدين يتحادثان في شؤون كثيرة ترجع الى علاقة

مصر بنور الدين . ثم انصرف الى فراشه

بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر في امر مصر ومطامعه فيها حتى

غلب عليه التعماس فنام وقد اطفئت مصابيح القصر واطمئن الحراس . الا عماد الدين

فانه شعر بعد ان اختصه صلاح الدين بقربه انه يجب ان يكون اكثر يقظة وسهراً

على حياته . فبات وهو يفكر في ذلك فلم . لفرط قلقه ان صلاح الدين يناديه فنهض

مدعوراً واصاخ بسمعه فلم يسمع شيئاً فحدثته نفسه ان ينهض ويتسمع نخاف ان ييقظ

مولاه وهو على يقين انه سمع ذلك في الحلم . فعاد الى فراشه وقد طار نومه وكثر

قلبه بين اليقظة والنوم . واذا هو يسمع وقع خطوات فهبَّ من رقادهِ وتسمع فلم يسمع شيئاً فغاب على خاطره انه يسمع هاجساً . ونظر الى السماء فعلم ان الفجر قريب ورأى انه لم يعد قادراً على الرقاد فابس ثيابه . وحالما لاح الفجر خرج ليطل على غرفة صلاح الدين فرآها مقفلة وكل شيء هادئ والحراس بالباب كالعادة فعاد الى غرفته ولم تمض هنيهة حتى سمع صلاح الدين يناديه فلباه ودخل غرفته فراه جالساً على سريره بلباس النوم وقد اخذته الدهشة . فاسرع اليه وحياه فصاح فيه صلاح الدين « ما هذا ؟ » وأشار الى الوسادة عند رأسه . فتقدم عماد الدين فرأى خنجراً مسلولاً عليه آثار دم قديم قد أُلقي عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة فاجفل وصاح « من فعل هذا يا سيدي ؟ »

قال « لا ادري .. لكنني صحت في هذه الساعة فرأيت الحال كما تراها » فاطرق عماد الدين يفكر فوقع بصره على شيء عند قدمي السرير فاذا هو غمد ذلك الخنجر قتناوله وتأمله فلم يذكر انه يعرف صاحبه . وهو يتفحص فيه رأى في جوفه بطاقة استخرجها ودفعها الى مولاه ففضها وقرأها فبانت البغته في عينيه ثم دفعها الى عماد الدين وصفق . فدخل عليه احد الغلمان فامرهم ان ينادي الامير نجم الدين والده حالاً اما عماد الدين فانه قرأ البطاقة واعاد قراءتها وتناول الخنجر وتأمله واعاد النظر فيه فقال صلاح الدين « كيف يدخل الناس عليّ وانا نائم داخل هذا القصر والابواب موصدة ولا يشعر احد من الحراس ؟ »

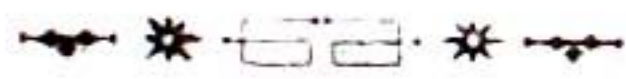
فاحس عماد الدين ان التوييح موجه نحوه لانه اقرب الحراس اليه فارتج عليه من شدة التأثر . وهمّ ان يجيب واذا بنجم الدين قد دخل فلما رآهما في تلك الحال تناول البطاقة وقرأها واذا فيها :

« من احد مريدي سيد الاسماعيليه الى يوسف صلاح الدين

« اعلم يا يوسف انك وان اقفات عليك الابواب واقمت الحراس لا تقدر ان تنجو من القصاص .. اراك قد بلغت في القحة وتناولت واستبدت وظلمت ونسيت شيخ الجبل زعيم الاسماعيليين . لو اردت قتلك الليلة لما ابقيت عليك ولكنني عفوت عنك وانا منذرك ان تصاح من سيرك . ولا تطمع ان تعرف من انا فان ذلك بعيد المنال اذ قد اكون اخاك أو خادمك أو حارسك وقد اكون خيطاً في عمامتك أو شعرة في رأسك وانت لا تدري وانما اطلب منك ان تلزم حدك والسلام »

فاستولى السكوت على الجميع لحظة . ثم اشار نجم الدين الى عماد الدين ان يقفل

الباب وان يجاسوا في خلوة لا يدخل عليهم احد . ففعل وقابه يتقد غيظاً وقد ساءه
على الخصوص حدوث هذا الامر في الليلة الاولى التي تولى بها الحراسة الخاصة واصابه
الجود لا يدري ما يقول . وادرك نجم الدين قلقة فناداه وابتسم له وقال « لا تضرب
يا بني ولا يداخلك خوف انكم لا تعرفون هؤلاء القوم ولا اظن يوسف يعرفهم »
فقال صلاح الدين « اذكر اني عرفت عنهم شيئاً . . . ولكن اي الاسماعيلية
هؤلاء . وما هذه الجسارة . كيف يستطيعون الدخول عليّ في غرفة نومي والحرس
حولي . . صدقوا لم يكن يمنعهم شيء من قتلي . . »
فصاح عماد الدين « خسئوا . . ان ذلك بعيد عنهم . . انهم لا ينالون من مولاي
السلطان شعرة قبل ان يقتل زعيمهم اللعين »
فبعد نجم الدين وامر عماد الدين ان يقعد وقال « هل تعرف من هو هذا الزعيم ؟ »
قال « كلاً يا سيدي . . ومهما يكن من شأنه . . »



الفصل الثاني والعشرون

الاسماعيلية

فقطع نجم الدين كلامه وقال « تمهل يا شاب واسمع ما سأقصه على يوسف من خبر
هذا الطاغية الذي يسمي نفسه رئيس الاسماعيلية وهم بالحقيقة الحشيشية » ووجّه
خطابه الى صلاح الدين وقال « اعلم يا بني ان الاسماعيلية او الباطنية او الحشيشية
طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيدية علاقة قل من يعرفها ولذلك احببت ان افصل
لك . ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح وقد نصره ولا
الحاكم بامر الله فانه احياء ونشره بمساعدة رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي
وفي ابامه ظهر رجل فارسي اسمه حسن بن الصباح له حديث طويل مع نظر
الملك وعمر الخيام لا محل له هنا ^(١) فانشأ حسن هذا جمعية من الفدائيين واقام في جب
الأموت قرب قزوين منذ اكثر من مئة سنة . وكان يغري رجاله على الفتك بمن
من كبار الرجال ومن جملة الذين قتلوهم نظام الملك وزير السلاجقة وكثيرون .

القواد والملوك — كانوا يقتلون ولا يعرف قاتلوهم . او اذا عرف لا يبالي ان يقتل في سبيل تنفيذ امر مولاه »

وكان صلاح الدين مصغياً لما يسمعه بكل جوارحه فقال « كاني سمعت بشي ممن هذا القبيل ولكنني لم اكن اصدقه اذ لا يعقل ان يعرض الرجل نفسه للقتل على هذه الصورة تنفيذاً لامر مولاه فقط »

فاعترض عماد الدين وعيناه تتقدان وقد هاجت الحمية في رأسه وقال « بلي ياسيدي .

هذا امر معقول . ان الرجل ليفدي مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه »

فادرك نجم الدين غرضه وقال « بارك الله فيك يا بني لكن مثلك قليل واكثر

الناس يفعلون ذلك طمعاً في شيء . اما الفدائيون هؤلاء فانما يفعلون ما يفعلونه لمجرد

طاعة رئيسهم . وقد اختلفوا في سبب هذا التفاني فيقول بعض العارفين ان حسناً هذا كان

يستهوهم بالسحر او يسقيهم الحشيشة التي تأخذ بالعقل . ولذلك عرفوا بالحشيشية

او الحشاشين ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كبار الرجال

« وكان مقرها في زمن ابن الصباح هذا في قزوين بعيدة عن هذه الديار ؛ اما الآن فان

مركزها في جبل السماق من اعمال حلب لهم فيه معقل وحصون ولهم دعاة في الاطراف

ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام خلاصته ان الرئاسة انتقلت بعد ابن

الصباح الى غيره وغيره وكان رابعهم في الاموت منذ نحو خمسين سنة يسمى حسناً ايضاً

ويضيفون الى اسمه قو لهم « على ذكره السلام » وكانت دعائه قد انتشرت في الشام

والافرنج قد فتحوها فقربوا الاسماعيلية واستعانوا بهم على المسلمين في مواقع كثيرة

سراً وجهراً . فاذن لهم ملك الافرنج صاحب حاب ان يقيموا في جبل السماق (جبل

النصيرية) ونزلوا بايناس وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام . وفي ايامه تمكنوا من الفتك بطائفة

من الملوك والقواد بمصر والشام منهم الملك الافضل امير الجيوش بمصر يقال انهم فعلوا ذلك

به لانه استبد بالامر باحكام الله . وبلغني ان الامر تغاب على بهرام وقتله لسبب لا اعلمه لعله

سأه قتل امير الجيوش وان كان قتله دفاعاً عنه . وطافوا برأس بهرام في شوارع القاهرة

هذه — وقتلوا ايضاً كثيرين من الافرنج بحجج مختلفة منهم ريمون صاحب طرابلس

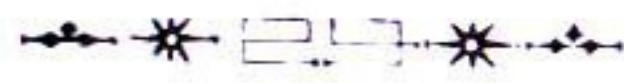
ولهم بجبل السماق عدة قلاع حتى الآن منها مصيف ومرقب وعليقة والرصافة وغيرها

يعتصمون بها . اما زعيمهم الآن فاطنه ادهي الرؤساء جميعاً اسمه راشد المدين سنان بن

سليمان اصله من البصرة . خديم رئيس الاسماعيلية في الاموت . وتفقه بالعلم والفلسفة

ثم انتقل الى الشام واقام في حاب وهو اعرج . وتظاهر بالتقوى والدين فاجتذب

العامه بذلك - ولا تجد شيئاً يستهوي العامة مثل الدين . وبلغني من بعض رجالنا هناك ان سنان هذا كان يجلس على صخر يعظ وهو جامد كالصخر . فكثرت دعواته وكانت دعوته لهم ان يتعاونوا فتغاب على عقولهم بالدهاء أو السحر لا اعلم حتى جعلوا اموالهم مشتركة بينهم - حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك « وبلغ خبره الى رئيس الاسماعيلية يومئذ في جبل السماق واسمه ابو محمد فاستقدمه اليه . وبعد قليل خلفه واستلم زعامه هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط . وقد سمعت خبره قبل سفري بقليل وهو الآن صاحب السطوة والكلمة النافذة وقد التف حوله الوف من الدعاة الفدائيين وهم يفدون به بارواحهم . اذا امر احدهم بقتل امير او ملك تنكر ودخل في خدمة ذلك الامير او الملك بصفة سائس او خادم او حارس . ولا يزال يتربص الفرص حتى تسنح له ويغمد خنجره في صدره .. فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ولكن تهديدهم هذا اثقل وقعاً من القتل »



الفصل الثالث والعشرون

التبرع

وكان صلاح الدين في اثناء سماع الحديث مطرقاً يفكر وعماد الدين يراعي حركات نجم الدين بعينه ويتلقف الفاظه باذنيه وقد هاجت اريحته وجاشت الحماسة في صدره فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى عماد الدين فرأى عينيه يكاد الشرر يتطاير منهما فتجاهل

اما صلاح الدين فقال « لا بد من وسيلة نتخذها لتجنب شر هذه الطائفة .. انه غير متشرعين لمراقبتها »

فتصدى عماد الدين قائلاً « ان مراقبتها لا تفيد شيئاً ولا بد من قطع دابرها . قال ذلك وعينه تدلان على ما يعنيه من العزم الاكيد

فاجابه نجم الدين « ماذا تعني ؟ »

قال « اذا اذن لي بابداء الرأي فعندي ان احسن دواء لهذا الداء ان يقتل رؤس

هذه العصاة فتتفرق عصابته .. »

فقال نجم الدين « هذا امر شاق لا سبيل اليه لان القوم معتصمون في الجبال الوعرة وعيونهم مبثوثة في كل مكان . وقد علمنا الآن ان منهم انساناً في هذا المقصر فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتله ؟ . »

قال عماد الدين « ان من يجب مولاه يتفانى في خدمته كما قلت يا سيدي . فكما يستطيع هذا الاسماعيلي الملعون ان يدخل غرفة السلطان صلاح الدين ويعمل ماعمله فيمكن لسواه ان يدخل على زعيم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر في صدره . واذا قتل بعد ذلك فقد أدى واجباً لينقذ انفساً شريفة من الفتك . لان هذا اللعين لا يعتمد الا قتل العطاء فلاستهلاك في سبيل قتله فخر يتطلبه كل ابي النفس »

فاحس نجم الدين ان الشاب يعني ان يذهب هو نفسه في هذه المهمة فاراد ان يثني عزوه حرصاً على حياته لاعتقاده بالخطر الذي يهدده فقال « ان هذا الامر لا يقدم عليه الا المجنون ولكننا لانحرم وسياة اخرى لاسترضائهم بالمال فانهم كثيراً ما يرتكبون القتل طمعاً بالمال اذ يغريهم بعض رجال السلطة على قتل اعدائهم . . . »

فقال عماد الدين « صدقت يا سيدي قد يسترضون بالمال ولكن هذا لانهاية . واما اذا قتل زعيمهم فانهم ينفضون من حوله »

فقال « ليس هذا بالرأي الصواب لانه صعب . . . ولا تجد من يقدم عليه اذا عرف خطره »

فقال عماد الدين وهو يشير بيده الى صدره وعيناه تلمعان حماسة « هذا عبدك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعة وارجو ان لا ترد طلبي » فقال نجم الدين « بارك الله فيك انها حمية ينذر مثاها . . . ولكننا في حاجة اليك هنا . . . »

فقال « وما الفائدة من وجودي هنا وهذه اول ليلة من حراستي اوشك مولاي لسلطان ان يقتل . اما ذهابي فارجو ان يكون قاطعاً فاصلاً . . . استحلفك برأس مولاي لسلطان صلاح الدين ان تأذن بانصرافي في هذا السبيل وهذا حظ كبير لي »

وكان صلاح الدين في اثناء هذا الجدل غارقاً في التفكير عن سبب وقوع هذا الامر في هذه الليلة فلما سمع اسمه انتبه لما يقوله عماد الدين فاجابه « ان هذه المهمة خطيرة جداً ونحن في حاجة اليك هنا »

قال « اقسمت برأسك ان اذهب فأذن لي »

فالتفت، صلاح الدين الى ابيه كانه يستشيريه فقال نجم الدين « اطعني ودع عنك هذا الخطر »

قال « اني عبد مطيع ولكنني اقسمت برأس مولاي اني ذاهب في صباح الغد ويجب ان يكون ذهابي سرّاً عن كل انسان لا يعلم به سوا كما لاننا اصبحتنا لا نعرف صديقتنا من عدونا .. فلا ينبغي ان يعلم احد بسبب ذهابي .. »

فقال صلاح الدين « اذا لم يكن بدّ من ذلك فامض وفقك الله لما تريده ولكنني كنت وانما تتباحثان افكر في السبب الذي اوجب وقوع هذا الامر الليلة فلم اهتد .. ولكنني .. » وتذكر خطبة سيدة الملك على يد الهكاري فترجح له ان هذا الامر هو الذي بعث على تحمس احد الاسماعيلية المستترين . ولكنه لم يجد هذا التعليل معقولاً فسكت

فلاحظ ابوه تردده فقال له « ما بالك يا يوسف ؟ قل ما يخطر لك العلك تتقي التصريح امام عماد الدين الذي يفديك بروحه ؟ »

فقال « كلاً يا ابي ولكنني فكرت في سبب ما حصل الليلة فلم يستقم حكمي ففضلت السكوت »

قال « قل ماذا خطر لك »

قال « اعترف لك يا ابي اني ارتكبت خطأ في صباح الامس ساقني اليه تسرعني باغراء صديق لي حميم . وذلك اني امضيت امراً كان ينبغي قبل امضائه ان استشيراه فيه وها اني الان الاقي عاقبة تسرعني »

قال « ما ذلك ؟ قل .. »

قال « اتاني صديقنا عيسى الهكاري وانت تعلم صدق مودته لي ونصحه اياماً فاقترح عليّ اقتراحاً يرى فيه خيراً كبيراً لي فاطعته ولكنني لم اكتب فيه كتاباً بل تركت الامر مبهماً ريثما استشيرك »

فلم يعد نجم الدين يستطيع صبراً على فهم مراده فقال « وما هو هذا الاقتراح قال « عرض عليّ ان يخاطب الخليفة العاضد في امر اخته سيدة الملك ان تكون زوجة لي .. »

فبانت البغته في وجه نجم الدين وصاح فيه « وهل وافقته على ذلك ؟ »

قال « ترددت كثيراً وأخيراً رضيت ان يكتبني بالسؤال الشفهي من عند نفسه قال « لا تزال تقدم على امور لا تليق بالسلطين .. مالنا ولهذا الرجل ولا .. »

بيته .. لماذا، نعرض نفسنا للفشل ؟ . هل تعرف الفتاة . . »

قال « قيل لي انها بارعة في الجمال جداً . . »

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتاً فعلم انهما يتكلمان عن سيدة الملك وكان قد رآها يوم واقعة العبيد وارجع اليها خصلة الشعر كما تقدم وقد استأظفها لكنه لم يحلم بالحصول عليها . ولذلك لما سمع طلب مولاه شعر بلذة ممزوجة بالغيرة .. لذَّ له ان تكون تلك الفتاة الجميلة لسيدة افضل من ان تكون لسواه لكنه لما تصور ذلك احس بالغيرة منه . ولحظ نجم الدين في وجهه فكراً في الموضوع فقال له « هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟ »

قال « أتيت لي فرصة رأيتها فيها وهي في معظم الاضطراب أعني يوم واقعة العبيد يوم امر مولاي النفاطين برمي النفط على القصر ثم أمرهم ان يكفوا عن رميه وكنت في جملة من دخل القصر فرأيت الفتاة في ضيق انقذتها منه ولا ازال اذكر وجهها الجميل وشعرها الذهبي . انها تليق بسيدي صلاح الدين .. وهل هي تتوقع من هو خير منه »

فقال نجم الدين وهو يظهر انه واثق مما يقول « مالنا ولها . . لا أشك في أن يوسف لم يطع الهكاري الا حياءً » ووجه كلامه الى صلاح الدين قائلاً « هل اتاك الهكاري بجواب من الخليفة ؟ »

قال « اتاني انه خاطب الخليفة فاستمهاه في الجواب ولا ندري ما يكون »
فهنَّ نجم الدين رأسه هنز الانكار وقال « لا يسهل عليه الايجاب في هذا الامر لان هؤلاء المساكين شديداً التمسك بهذه البقية الباقية من سيادتهم . أعني تمسكهم بمجد الاسلاف وانهم من سلالة بيت الرسول واننا لسنا اكفاء لبنااتهم لاننا من الاعاجم »
قال ذلك وضحك ملء فيه والتفت الى صلاح الدين فراه مطرقاً يفكر وقد تذكر قول الهكاري انه اذا احتيج الى نسب عربي وضعه له . غير ما يتوقعه من صيرورة الخلافة اليه او الى اولاده بسبب ذلك الزواج فلما التفت ابوه اليه استأنف الكلام قائلاً « ألا يحق لهم الافتخار بذلك النسب الشريف ؟ »

قال « كيف لا ! ولذلك قلت انهم ضنينون به لا يفرطون فيه فكيف ترجو قبول طلبك وانت كردي ؟ » وضحك

فراى صلاح الدين ان يقطع الحديث ليرى ما يأتي به الغد فقال وهو يتحفز للهوض من الفراش « متى اتانا جواب الخليفة ننظر فيه » ولما نهض كان الخنجر

لا يزال مأتى على الفراش فاسرع عماد الدين اليه وتناولوه وهو يقول « هل يأذن لي مولاي بهذا الخنجر؟ »

فقال « أليس عندك خنجر؟ »

قال « عندي لكنني أود أن اغمده في صدر ذلك الطاغية الذي هددنا به »

قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه « ألا تزال مصمماً على قتله؟ »

قال « اقسمت برأس مولاي ان اقتله اذ لا سبيل الى الراحة منه الا بذلك .

فارجو ان لا تراجعني والتمس من مولاي الامير نجم الدين ان يزودني برضاه ودعائه

وقد اقسمت ان لا تطلع شمس الغد الا وانا خارج القاهرة »

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظر العطف والاعجاب وقال « يسرني

ما اراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف بل هي غيرة على المسلمين كافة لان هذا

الاسماعيلي الشيطان قد اقلق العالم بدسائسه وفتكه فاذا تمكنت من قتله فانت امير

كبير وقائد عظيم لا يتقدمك احد من رجال هذه الدولة غير ابني يوسف هذا »

فاكبر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى فازداد تمكناً من عزمه

ولكنه اطرق خجلاً . فعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال « ولكن هل تعرف

الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر؟ »

قال « هب اني لا اعرف شيئاً الآن فلا يعجزني علمه »

قال « فتبقى هنا بضعة ايام لاجل الاستعداد . . . »

قال « قد اقسمت على الخروج الليلة من هذا البلد . وانما التمس ان لا يعلم احد بجهتي

مسيرتي ولا الغرض منه »

وكان صلاح الدين قد اتم لبس ثيابه فقال « بورك فيك » ونظر الى ابيه فزأ

ينظر الى عماد الدين وهو يقول له « وفقك الله في امرك كن شجاعاً واثقاً بنفسك

واعلم انك اذا وفقت الى ما تريد اتيت عملاً لم يستطعه سواك فتدال ما لم يناله احد

فهم عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ثم يد صلاح الدين وقال « استأذنكما في

تدبير شؤني اليوم وربما لا تريايني بعد الآن لاني احب ان اخرج من هذا البلد

خلصة »

قال نجم الدين « افعل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

الرسالة

نخرج عماد الدين لتدبير سفره واعداد ما يلزمه وقد اخذت مهمته تنجلي له بما يحقق بها من الخطر العظيم ولكنه صمم عليها ولا سيما بعد ما سمعه من الوعد بالكفاة قضى معظم النهار في منظره اللؤلؤة وهو يتهيأ للسفر حتى أعد كل ما يحتاج اليه وقد مالت الشمس الى الاصيل . فانفرد في غرفته يفكر في مهمته واذا بطارق يطرق بابهم فاجفل لانه لا يطرق بابه أحد لا سيما وهو على اهبة السفر . فنهض وفتح الباب فرأى غلاماً صقلياً يظهر من ثوبه وشكله انه من غلمان قصر الخليفة . فاستغرب ذلك فدخل الغلام وقال « ألي في حضرة الفارس عماد الدين ؟ »

قال « نعم ما وراءك ؟ »

فمد الغلام يده الى جيبه وهو يشير الى عماد الدين أن يغلق الباب خوفاً من أن يراه أحد واستخرج لفافة دفعها اليه . فتناولها ولم يتم فضها حتى اقشع ربدنه لانه رأى فيها خصلة الشعر الذهبي التي كان قد ارجعها الى سيدة الملك فبان البغته في وجهه لكنه تجدد وأخذ يتفرس في الكتاب فاذا هو رسالة مختصرة بلا توقيع . فاغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ وهذا نص الكتاب :

« الى البطل الباسل عماد الدين . اعلم يا سيدي انك نجيت نفساً شريفة من القتل والعار . وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صنيعك . وقد كلفتني ان ارسل اليك العلامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب لتتأكد صدق قولي . فاسرع الينا على عجل فاننا نستصرحك وقد لبيتنا من قبل بلا استصراخ . وحامل هذا الكتاب يرشدك الى الطريق »

فرغ من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه في حلم فظل هنيهة كالغائب يفكر في ما يعمله أجييب دعوة الداعي وهو على أهبة السفر ؟ أم يعتذر وهي تستصرخه . وأحس عند رؤية الشعر بجاذب يدعو الى الاجابة . وتذكر ما بعثه على حمل تلك الخصلة من دمشق الى القاهرة حتى دفعها الى صاحبها حرصاً على كرامتها بدون أن يعرفها فكيف تدعوه بلفظ الاستصراخ ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام في أثناء ذلك واقفاً ينتظر الجواب فلما استبطأه خطا خطوة نحو

عماد الدين فانتبه هذا لنفسه فالتفت الى الغلام وقال « ما وراءك غير هذا الكتاب ؟ »
قال « هذا كل ما لدي ولكنني أمرت اذا استفهمتني عن الطريق أن أرشدك اليه »
قال « وكيف ذلك ؟ هل يجهل احد الطريق الى قصر الخليفة ؟ »

فابتسم الغلام وخفض صوته وقال « ليس القصر مجهولاً ولكن صاحب هذه
الرسالة في قصر النساء ولا سبيل لرجل الى هناك ولا سيما بعد جعلتم الاستاذ بهاء الدين
قراقوش قيماً عايه فاصبح أمنع من عقاب الجو »

قال « اذا كيف يمكن الوصول الى المكان المقصود ؟ »

قال « اذا كنت قد صممت على الذهاب فاني ادلك على طريق توصلك الى داخل
قصر النساء ولا يشعر بك أحد »

فاستغرب قوله وقال « اظنك تعني ان اتنكر بثوب جارية »

قال « . . . كلا . . . فان هذا لا يعني شيئاً . . . اذ لا يستطيع أحد المرور من الباب
ان لم يعرفه الحاجب باسمه ولقبه »

قال « كيف اذا . . . قل . . . »

قال « اعرف طريقاً سرياً في سراديب تحت الارض بين هذه المنظرة وقصر
الخليفة لا يعرفها الا القليلون »

قال « سراديب تحت الارض ؟ »

قال « نعم يامولاي . . . لما بنى الخلفاء الفاطميون قصورهم ارادوا ان يكون لنسائهم
طريق يخرجن منه الى الحدائق والبساتين او الى المناظر القائمة على ضفاف هذا

الخايج . فاصطنعوا لهن سراديب تحت الارض ينزلن اليها من وسط القصر ويمشين فيها
بلا حجاب حتى يخرجن الى البساتين . وفي جهاتها السراديب المؤدية الى هذه المنظرة

فانها كانت مطروقة اكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم هنا . حتى ان ثلاثة
منهم ماتوا في هذه المنظرة وحملوا في هذه السراديب الى القصر وهم : الأمر باحكام الله

والحافظ لدين الله والفائز^(١) . ثم اهمل امرها بعد نزول غير الخلفاء في هذه المنظرة .
وتنوسيت منذ عدة سنوات ولكنني اعرفها فاذا احببت ان اسير في خدمتك فعات »

الفصل الخامس والعشرون

السراديب

فتحير عماد الدين في امره واستغرب وجود هذه السراديب واعمل فكرته في هل يجيب الدعوة ام يعتذر لانه على وشك السفر. والتفت الى نافذة الغرفة يتطلع الى الشمس فراها قد دنت من المغيب وهو لا بد له من مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما اقسام ووعد فنادى الغلام اليه وقال « كم يقتضي لنا من الوقت لنصل الى القصر ؟ » قال « لا يستغرق سيرنا الا دقائق معدودة »

فقال في نفسه « اجيب الدعوة واعد سريعاً فاسافر » والتفت الى الغلام وقال « هلم بنا »

قال « تمهل ريثما تغيب الشمس فنذهب في الظلام لئلا يشعر بنا احد من اهل هذا القصر »

فتصور عماد الدين الخطر المحقق به في هذه المهمة لكنه اكبر ان يتخوف او يحسب للمخاطر حساباً وهو الذاهب لقتل زعيم الاسماعيليين ... فقال « انتظرنى اذاً خارج هذه المنطرة فالايك هناك بعد الغروب »

قال « حسناً . . سامكث في انتظارك تحت هذه الجميزة بجانب الخايج فاذا رأيتك نادماً تقدمت نحوك ومعى الرداء الذي ينبغي ان تلتف به في اثناء الطريق وعند الوصول الى القصر لئلا ينكر احد من اهل القصر هذا اللباس » قال ذلك وخرج وخلف عماد الدين على مثل الجمر من القلق . فلما خلا بنفسه استأنف النظر الى ذلك الكتاب اعاد قراءته وتذكر المرة الاولى التي شاهد بها صاحبة ذلك الشعر وما سمعه عنها الامس من امر صلاح الدين فرأى انه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤالها فيحرضها على القبول به . ولما تصور ذلك هبت الغيرة في قلبه . ولكنه تعمد الاغضاء عن هذا الشعور حياً بمصلحة مولاه

ولما سدل الليل نقابه خرج باخف ملابسه وسلاحه حتى دنا من الجميزة فرأى سحاً كأنه امرأة قادماً نحوه فتقدم اليه وتفرس فيه فاذا هو الغلام قد التفت بملاءة كالازار او المطرف ودفع اليه ملاءة التفت بها عماد الدين ومشى الغلام بين يديه في بستان لا يرون شيئاً غير اشباح الاشجار تتراءى بينهما وبين الافق . مشياً مدة

لا يتكلمان ثم التفت الغلام الى عماد الدين وأمسك بيده كأنه يقوده الى نزلة فنزل معه الى حفرة . ومد الغلام يده الى اعشاب يابسة ازاوحها فوصل الى باب من حديد فيه حاقة قبض عليها واعانه عماد الدين ففتحا الباب فشعر عماد الدين بريح فيها رطوبة وعفونة فعلم انها انت من ذلك السرداب . فقال له الغلام « اتبعني ياسيدي اقتص خطواتي »

فتبعه وشعر انه يمشي على ارض مرصفة بالحجارة . ولكن الظلام كان شديداً جداً واخذت رائحة العفونة تشتد كلما امعنوا في السرداب . فخاف عماد الدين ان يكون قد فرط بنفسه فقال « هل انت على ثقة من امر هذا الطريق ؟ » قال « نعم وقد جئت فيه اليك اليوم »

فاطمأن خاطره وسكت وهو يخطو ويتامس الجدران . ثم سمع وقع اقدام فوق السرداب فقال له الغلام « نحن الان تحت القصر الصغير وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الخليفة فقصر النساء . . »

ولما أحسن الغلام انهما تحت قصر النساء أشار الى عماد الدين أن يقف فوق فتقدم هو الهويني حتى رفع باب السرداب فبصر عماد الدين بالنور وبعد قليل اتاه الغلام وأمسك بيده وأشار اليه أن يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو في غرفة فيها مصباح فنظر الى نفسه والى رفيقه على النور بعد هذه السفارة في الظلام فرأى عليهم التراب ونسيج العناكب فنفض الرداء ونظر الى الغلام وأشار بيده يستفهم عما يعمل فاوماً اليه أن ينزع الملاءة ويتبعه ففعل فدخلا حجرة مفروشة باحسن الرياش فتحقق انه في قصر الخليفة فإشار اليه الغلام أن يقعد وينتظر ويخرج هو . فقعد وقلبه يخفق تطلعاً لما سيراه في تلك الليلة وتذكر مجيئه الى هذا القصر من عهد غير بعيد — وكيف رأى سيدة الملك . وطال انتظاره حتى تولاه القلق . واذا بالغلام قد عاد ومعه ياقوتة الحاضنة فحالما وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت

اما هي فاسرعت اليها وحيته وأشارت الى الغلام ان ينصرف فانصرف وظلم ياقوته وحدها مع عماد الدين فقالت « لقد اتعبناك ياسيدي واتينا بك في هذا الليل . . . فقال « لا بأس يا سيدتي وانما ارجو أن لا يكون لاستقداي سبب يوجب القلق »

فتحننحت وقالت « لا والحمد لله . . الا تذكر انك رأيتني يا عماد الدين ؟ . . » قال « بلى اذكر ذلك جيداً »

قالت « اما انا فلا انسى قدومك في ذلك اليوم العصيب .. وما اتيت به من الأريحية والنخوة في انقاذ مولاتي سيدة الملك من خطر الموت . انها لا تنفك تذكر ذلك الفضل لك . وكثيراً ما تمنيت ان تراك لتكافئك على صنيعك ولكنك لم تعد .. »
فقال مسرعاً « لاني لم افعل ما فعلته لاجل المكافأة .. وأنا غني عن ذلك بفضل مولاي صلاح الدين .. »

قالت « طبعاً .. ولكن المكافأة لا تعطى دائماً للحاجة اليها بل هي تدل على امتنان المعطي نحو المعطى له .. وعلى كل حال فليس ذلك من شأني بل هو يرجع اليك واليها فاذا التقيتما صرت انا غريبة . أليس كذلك ؟ » قالت ذلك وضحكت وفي عينيها وغمغمة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام فتوسم عماد الدين في كلامها معنى اختلج له قلبه . ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بينه وبين سيدة الملك وهي اخت الخليفة اعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها « كيف مولاتنا سيدة الملك ارجو ان تكون في خير وعافية ؟ »

قالت « ألم تصلك رسالتها ؟ »

قال « كيف لا ؟ وما الذي اتى بي في هذا الوقت »

قالت « وخصلة الشعر ؟ »

فمد يده واستخرجها من جيبه وقال « هذه هي »

قالت « ألا تريد أي تردها اليها كما رددتها في المرة الماضية ؟ »

قال « بلى . وانا جئت اجابة لدعوتك لانك قلت ان سيدة الملك تستعصر خني فهل

هناك باعث هام ؟ »

قالت « انما بعثها على ذلك رغبته في مكافأتك . وقد كلفتني ان ادفع اليك هذا

العقد » واستخرجت عقداً من اللؤلؤ لم يقع بصر عماد الدين عليه حتى دهش . وقدمت

العقد اليه فتناوله ولم ينظر اليه بل اعاده اليها وهو يقول « شكراً لمولاتي .. اني في

غنى عن تحميتها هذه الثقلة لاني لم افعل ما فعلته طمعاً بالمكافأة »

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت « اني مأمورة بايصال هذه الهدية اليك فاذا

كنت لم تقبلها فاني ادعو صاحبها لتقدمها بنفسها .. ولكن احذر ان تكون قاسياً

يا عماد الدين »

فزاده هذا التعبير بياناً لما توسمه في عبارتها الاولى فسكت وقد اوتبكت في أمره

الفصل السادس والعشرون

اللقاء

أما هي فنهضت وخرجت وتركت العقد في مكانها على البساط وظل عماد الدين وحده وهو مرتبك لا يدري ما يقول أو يعمل . ثم عادت ياقوتة وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالنتاب حتى لا يظهر إلا عيناها وبعض جبينها فلاحظ في عيناها ذبولاً وقد تغيرت عن ذي قبل . فلما رآها دخلت وقف لها وتنادب واطرق فتقدمت إليه وهي تهاسك وقالت « اجلس يا عماد الدين . . انك ذو فضل على حياتي وشرفي ولا حاجة الى الوقوف لي . اجلس . قد اتعبناك بهذه الدعوة الليلة وازعجناك فضاءت فضلك علينا . . » قالت ذلك وهي تقعد وتشير إليه ان يقعد فقعدت وظلت ياقوتة واقفة وهي تتناول العقد عن البساط ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت « هذا العقد دفعته اليه حسب امرك فلم يقبله » فتناولته واتجهت نحو عماد الدين وقالت « ارفض هدية صغيرة قدمتها اليك وانت قد اهديتني حياتي ؟ » ومدت يدها نحوه والعقد في كفها وهي تتوقع ان يمد يده فيتناوله منها . فلما ابطأ تصدت ياقوتة للكلام قائلة « ماذا اوصيتك يا عماد الدين . . ألم اقل لك لا تكن قاسياً ؟ »

فحجل ومد يده وتناول العقد وهو يقول « اني اقبله هدية لا مكافأة » ولما مد يده ليتناوله لمست انامله كفها فاحس ببردها وارتعاشها واحست هي برعشة كهربائية سرت في عروقها . وبان البشر في محياها فقعدت ياقوتة وهي تضحك وتقول « ها اذه قبله منها ولم يقبله مني . . »

فقطع كلامها قائلاً « لانك اردت ان آخذه مكافأة على خدمة فلم اقبله طبعاً لاني اذا كنت قد فعلت خيراً فلم افعله طمعاً بالمال . . و . . » فقطعت ياقوتة كلامه قائلة « طمعاً بماذا اذا ؟ يظهر انكما تعارفاً قبل ذلك اليوم و . . و . . » وضحكت

فاستغرب تعريض هذه الحاضرة بح تبادل بينهما وهو لا يعلم بشيء من ذلك وانما يعلم انه استلطنها ومال اليها ولم يحلم انها استلظفته او مالت اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده استحالة حصوله عاينها . فلما سمع ذلك التعريض تحرك قابله واوشك ان

يشعر بالامل فاعترض افكاره صلاح الدين وما سمعه في ذلك اليوم من -نوطيته اياها فانكر على نفسه أن يتصدى لامر يخص مولاه وهو يفديه بروحه . واصبح يعدُّ حديثه معها خيانة لكنه لم يجسر على التصريح بذلك فتجاهل وقال « انما فعلت ما فعلته يومئذ مدفوعاً بما تفرضه عليّ المروءة . . من يستطيع ان يرى سيدة الملك بين يدي الاشرار يريدون ان يلحقوا الاذى بها ولا يفديها بروحه ؟ »

فالتفت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها النقاب وخافت ان يمنعها عن الكلام فازاحته عن فيها وقالت « لا بأس من كشف هذا الوجه بين يديك فانك صاحب الفضل في بقاءه . . انك تستغرب وجود رجل يستطيع ان يراني في ذلك الخطر ولا يفديني بروحه . . لا تستغرب ذلك يا عماد الدين فقد كان في قصري عشرات من اهلي وعشيرتي لم يقدم احد منهم على ما اقدمت انت عليه . وكانك كنت على موعد من تلك الساعة فدفعت اليّ خصلة الشعر صيانة لها ولي . . فهل الام اذا نظرت اليك نظري الى ملاك هبط من السماء لانتقادي . أما انت فلا اعلم كيف كان شعورك في تلك الساعة . . » فرأى في اطرائها اشارة الى حبهال لكنه كذب نفسه وعاد الى الانكار فقال « أما شعوري فهواني وانا في خدمة مولاي السلطان صلاح الدين وقد امرنا ان نكف عن رمي النفط وقع بصري على زجاجة نفط سقطت في هذه الدار وانا على يقين انها ليست من عندنا فاستغربت وقوعها . ثم رأيت ندلاً مثلماً اغتتم اشتغال اهل القصر بانفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه اناس ارادوا القبض عليك فلم اتمالك عن الوثوب عليهم ولم اكن اعلم انهم يريدونك ولا انك سيدة الملك أخت الخليفة . فاما وقع نظري عليك ورأيت هذا الشعر الذهبي عامت انك هي . وكانت تلك الخصلة في جيبي فدفعتها اليك . . »

فاما سمعت اسم صلاح الدين اجففت لكنها مالت الى معرفة قصة خصلة الشعر فقالت « من اين وصلت هذه الخصلة اليك ؟ »

فتوقف عن الجواب حتى خاف ان ترتاب منه ثم قال « اتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق . . ما لنا ولهذا . وقد سألتني عن شعوري في تلك الساعة فهو اني شعرت بحمية لم أستطع دفعها ووثبت لمقاومة أولئك الاشرار وانا لا أعرفهم ولا أعرف على من هم وأبون . فلا فضل لي على سيدة الملك لاني لم اكن اعرف انها المقصودة بالاذى وانما فعلت ما فعلته مدفوعاً بالمروءة »

الفصل السابع والعشرون

التاميح

وكأن يتكلم وهي تنظر اليه وتكاد تتأقفه بعينها فلما وصل الى ذكر والمروءة صاحت فيه « ومن اجل هذه المروءة شعرت بهذا الشعور ورغبت في استقدامك لاعترف بحميلك »

فحجل من هذا الاطراء وقال « العفو يا سيدتي ان مثلي لا يستحق هذا الاطراء من اخت امير المؤمنين لاننا عبيد ويجب علينا التناهي في الدفاع عن صاحب هذا المقام السامي .. »

فابتدته قائلة « اسمع يا عماد الدين .. لست عبداً لا ... لو انك اندفعت الى هذه المنقبة لاجل اخت الخليفة لقلنا انك فعلت ذلك تقرباً من امير المؤمنين . ولكنك انما دفعك اليه انفس ابية وهمة عالية واريحية ومروءة لا نعهد مثلها في من نعرفهم بين اظهرنا من الامراء وابناء الخلفاء . فهذه الخصال رفعت قدرك وجعلتك في مصاف الملوك .. لا تقل انك عبد معاذ الله .. بل انت امير من اعظم الامراء وستكون كذلك قريباً اذا شئت .. » وظهر في عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيلاً للتجاهل . واعجبه قولها انه سيكون اميراً وهو في ذلك اليوم اوشك ان يصير من الامراء بما آتته من اعجاب نجم الدين به وتقديره . وتذكر المهمة التي هو ذاهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فاز بها . فتفاءل من مطابقة قولها قول نجم الدين انه امير او سيصير اميراً عن قريب . ثم ابتته برفاة انه قد مضى هزيع من الليل فخاف ان يطول الكلام في تلك الجلسة ولم تعجبه مقدمات الحديث لعلمه بما طلبه صلاح الدين من اخيها . وخيل له انها استقدمته لامر يتعلق بذلك الطلب اذ لا يزال يستبعد ان يكون هو المقصود به . فاراد ان يتحقق ظنه فقال « اذا صرت شيئاً مذكوراً فانما يكون الفضل فيه لمولاتي سيدة الملك لانهم احسنت الظن بعبيدها فقدمه مولاه السلطان صلاح الدين في مساء الامس حتى جعل اقرب اعوانه اليه »

فاما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية اجفأت وانقبضت نفسها وتذكرت جري لها بسببه ولم يعجبها اقتران اسمها باسمه في هذا الموضوع . لكنها سررت لقول

ان صلاح الدين قدمه فقالت « لا غرابة في تقديمك فانت اهل لاكثر من ذلك . . . انك امير وسيد وستنال مقاماً لم يناله صلاح الدين ولن يناله هو ولا غيره من السلاطين أو الامراء . . . هذا اذا شئت . . . » وتلعم لسانها وغلبت على امرها وابرقت عينها ووبان الحياء في محياها فاطرقت . وكانها ندمت على ما فرط منها فجعلت تتشاغل بتثنية طرف جدياتها المرسة على صدرها من تحت النقاب

أما هو فلم يبق عنده شك بما تعنيه واستعظمه منها وهاجت عواطفه واحس بانعطاف جديد نحوها بعد ان سمع تصريحها انها تحبه وانها تفضله على صلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريد ما مع انه لا يرجو ان ترضى به فاستنكف ان يقوم مقامه أو يقف في سبيله أو يعتدي عليه وهو صنيعته وقد صمم ان يفديه بروحه . فلم يتمالك عن النهوض وقال « ان سيدتي بالغت في اطراء عبدها كثيراً فانا صنيعه مولاي السلطان ولا اخفي عنها اني ذاهب هذه الليلة في مهمة تخصه واخاف ان اتأخر عنها اذا اطلت المقام هنا . . . »

فامسكت بيده واقعدته وقد بانت انفة الملوك في وجهها وقالت بصيغة الامر « لا لست عبداً لاحد ولا صنيعه احد . . . وقد قلت لك انك امير وسيد . . . لا . . . لا ينبغي ان تذهب في خدمة احد اني في حاجة اليك وقد استصرختك . . . اين حيتك ومروءتك . . . ؟ »

فاما قبضت على يده سرت الرعشة في كل اعضائه وقعد بالرغم منه . لكنه لما سمع كلامها خاف ان يغلب على امره فقال وهو يتحفز للنهوض « ان هذه المروءة نفسها تحماني على الذهاب الآن لاني تعهدت بامر لا بد من الذهاب فيه الآن وهو يخص مولاي صلاح الدين واذا كانت مولاتي ترى في هذه المناقب وانا صنيعه صلاح الدين وخادمه فكيف لو عرفته هو ؟ »

فنفرت من هذا الجواب وكانت لا تزال قابضة على يده فتركتها واعرضت بوجهها وهي تظهر الغضب فتصدت الحاضنة ياقوتة وقالت « ما بالك يا عماد الدين ؟ تخاطبك مولاتي من الشرق فتجيبها من الغرب ألم تفهم مرادها ؟ »

قال « نعم فهمت ويسرني رضاها عني وقد غمرتني بفضائها وانعامها . ولكنني صنيعه السلطان صلاح الدين وانا ذاهب في خدمته » وتحول نحو سيده الملك وقال « لماذا غضبت مني يا سيدتي لما التمس رضاك »

فسرها عتابه فالتفت نحوها وعيناها تعانبانه وقالت « لاني اخاطبك واطاب

الجواب عن نفسك فتجيبني عن صلاح الدين ما لنا وله . دعه في ساطانه انه لا دخل له في هذا الحديث .. الم تفهم ؟ . »

فتجيب عماد الدين في امره وارتهج عليه وعلم انها لا تريد صلاح الدين واوشك ان يغلب على عقله .. من يقف هذا الموقف ولا يغايبه الهيام ويتساط على قلبه ؟ لكن عماد الدين كان قوي الارادة شديد الاحترام لصلاح الدين وكان تلك الليلة في شاغل عن كل شيء بامر زعيم الاسماعيليه وسفره فتجلد ونهض بلطف وهو يقول « فهمت ياسيديتي على قدر امكاني واذا لم افهم فلاني ارى نفسي لا استحق هذه النعمة . ولا ازال ارى مولاي صلاح الدين احق بها ... لا تغضبي ياسيديتي ان صلاح الدين لم تعرفيه ولو عرفته لضربت بعماد الدين عرض الحائط .. ومع ذلك فاني طوع امرك ولكن ... » فقطعت كلامه وتوجهت نحوه وهي تبسم والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « لا تقل ولكن ... بل قل انك تطيعني في ما اطلبه »

قال، « اطيعك في كل شيء ولكن بعد رجوعي من هذا السفر .. ان سفري لا بد منه وقد اقسمت ان اكون في صباح الغد خارج هذا البلد . ومضى بعض الليل وانا لم اتحرك من مكاني .. فبالله اسمحي لي بالانصراف الآن .. » فقالت والدهشة ظاهرة في وجهها « تنصرف الآن ؟ الى اين ؟ » قال « الى منظره اللؤلؤة ومن هناك اركب حالاً واسافر .. » قالت « تسافر؟ ويلاه ! الى اين ؟ »

قال « في عرض يختص بمولاي السلطان .. »

فاطرقت وهي لا تدري ما تقول فخاف ان يجرح الحديث الى ما لا يقوى على دفعه وقد احس ان الحب كاد يستولي على ارادته وهو حريص على القيام بوعدده ولا سيما بعد ان اقسم وصمم فقال « اسمحي لي ياسيديتي بالانصراف واعلمي اني رهين امرك ولولا ما سبق من تعهدي باصر السفر لما خالفتك في شيء ولكنني ساعود سالماً ان شاء الله وعند ذلك لا ترين مني الا ما يرضيك .. استودعك الله الآن »

الفصل الثامن والعشرون

المباغثة

قال ذلك ومد يده اصاحتها فلم تمد له يدها رغبة في استبقائه لتمام حديثها اولعها تنبيه عن السفر . واذا هي تسمع وقع اقدم مسرعة خارج باب الغرفة فنظرت الى ياقوتة فرأتها قد امتنع لونها وتحنزت للنهوض . ولم تك تد نف حتى رأت غلامها الذي جاء بعماد الدين داخلاً والمباغثة على وجهه مع الخوف فصاحت فيه « ما وراءك؟ ويلك ! » فقال وصوته يرتجف « ان الاستاذ بهاء الدين قراقوش يطاب ان يراك؟ » فاجفت عند ذكر اسمه وقالت « ولماذا؟ وكيف . . ماله ولنا؟ »

قال « كنت ساهراً لمراقبة كل حركة كما امرتني الخالة اطل على القصر من شرفة لايوان فرأيت شبحاً قادماً من الخارج نحو باب هذا القصر لم اعرفه لانه ماتف بعباءة كبيرة كأنه جاء متكرراً فجعلت اراقبه حتى وصل الى باب القصر وطلب مقابلة الاستاذ بهاء الدين . فجاء لمقابلته ودار بينهما حديث لم افهمه ولكنني لحظت ان القادم الح عليه ان يفتش داخل القصر وتأكد لي ذلك لما رايت الاستاذ بهاء الدين دخل القصر بسرعة ورجع ذلك الرجل كما جاء . وسمعت بهاء الدين يأمر احد الخصيان بالذهاب الى سيدتي فاسرعت لاخبرك بذلك »

فاستولت الدهشة على الجميع وظلوا سكوتاً الا سيدة الملك فقالت « تباً لذلك الخائن . . لا اعلم كيف اطاع على مجيء عماد الدين الى هنا . . حتى وشى بنا الى الاستاذ » فقالت ياقوتة « اتظنين مجيء بهاء الدين يتعلق بعماد الدين » قالت « لا بد من ذلك ولكنه سيعود خائباً »

فقال عماد الدين « لا تخافي ياسيدي ان روعي فداك ماذا جرى؟ » قالت « لم يجر شيء . . ولكنني ساذن بذهابك رغم ارادتي . وهذا يسرُّك ولكنه يسوءني » والتفتت الى الغلام وقالت « يا غلام عد بعماد الدين من هذا السرداب كما جئت به منه » والتفتت الى عماد الدين وقالت « ارجو ان تبقى على وعدك وان تذكرني في اثناء سفرك . . واعلم ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قطع كلامي وحال دون اتمامه وانا لا ازال في اوله لكنني اترك فهم الباقي الى فطنتك وما يدلك عليه قلبك . واحسبني عبرت عن مرادي بما لمحي اكثر مما بنطقي . . كنت قبيل

استقدامك في بأس شديد وكنت ارجو ان يزول كل بأس بحضورك . فاذا انت على سفر وجاء هذا الاستاذ فلم يتمكن من اتمام شكواي فاقول لك بالاختصار اني افكر فيك دائماً وانا سجينه في هذا القصر . . . ويا حبذا لو اني اخرج به معك الساعة . . . »
 قالت ذلك وشرقت بدموعها

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين وهو شاب في مقتبل العمر وبين يديه اشرف نساء مصر واجملهن تشكو له حبها وتدعوه الى قربها . فهاجت عواطفه وكاد يغاب على امره وينسى مهمته وانما عصمه ادب نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت . لكنه اشار برأسه وعينيه انه رهن امرها بعد عودته وارادت ان تستزيده ايضاحاً فتصدت الحاضنة بلهفة قائلة « يكفي يا سيدتي . يكفي . ان بهاء الدين يطالب مقابلتك بالحاح ولا يستطيع استمهاله » وتقدمت الى عماد الدين فامسكت بيده وجرته حتى خرج من تلك الغرفة الى باب السرداب . وكان الغلام في انتظاره هناك وقد فتح الباب فالتفت كل منهما بردائه وذهبا واغلق الباب وعاد كل شيء الى اصابه . وتمشت سيدة الملك الى غرفة الاستقبال فرأت قراقوش في انتظارها هناك . فاطهرت الاستغراب من طلبه مقابلتها في تلك الساعة

(فقال « بلغني ان رجلاً غريباً دخل هذا القصر الليلة اين هو ؟ »)

قالت « تسألني سؤالاً انت اولى بالجواب عليه لان مفاتيح القصر بيدك وقد سدت علينا الطرق والنوافذ فاذا دخل غريب علينا فانت المسئول »
 قال « لم يدخل احد من باب القصر . . . »

قالت « هل هبط من السماء ؟ » قالت ذلك بغضب

فقال « لا تغضبي يا سيدتي اني انما اتصدى للسؤال حرصاً على كرامة سيدة الملك وعملاً بامر امير المؤمنين »

فضحكت فحكة استهزاء وغضب وقالت « ما احرصكم على اوامر امير المؤمنين وكرامة اخته . . من انباك بدخول الرجال علينا خاصة ؟ »

فجبل بهاء الدين من هذا التوبيخ وندم على تسبرعه وقال « لم اقل انكم تفعلون ذلك عنوة يا سيدتي . . ولكنني اقول ما بلغني ولم اسمع من رجل حقير او جاهل فقطعت كلامه وقالت « مهما يكن من امر الذي بلغك فانه نذل كاذب هذا »

فقطعت كلامه وقالت « مهما يكن من امر الذي بلغك فانه نذل كاذب هذا »
 قصري ابحت فيه عمن بثت « قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو غرفتها والحمام

تهرع في اثرها وقلبها يرقص فرحاً لانجاة من تلك التهمة الشنيعة

الفصل التاسع والعشرون

الحب سلطان

فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك في غرفتها اكبت عليها وجعات تقبلها وتداعبها وهي ساكنة وقد عادت اليها هو اجسها ثم انترت من بين يديها وقالت « دعيني يا ياقوتة دعيني وشأني اني تعسة شقية .. ويلاه ما هذا البلاء .. لم اكذب اتوسم باباً للفرج حتى اقفات عليّ الابواب وسدت دوني السبل .. » واخذت في البكاء فعملت ياقوتة على التخفيف منها وقالت « لا تنكري نعمة الله .. لم تطمئني انه يحبك وهذا ما كنت تطالين معرفته و .. »

فقطعت كلامها بغضب وقالت « يحبني ؟ هل فهمت من قوله انه يحبني .. الم تريه كيف كان مرتبكاً في امره وكما ذكرت له ما في نفسي حول الموضوع الى مولاه صلاح الدين .. انه يحب مولاه فقط .. » قالت ذلك ومسحت عينها بمنديلها وهمت ان تعود للكلام

فسبقها ياقوتة قائلة « ولكن حبه هذا مبني على همة عالية واريحية و .. » قالت « وما يفيدني اذا كانت هذه المناقب فيه ولا يحبني . وزد على ذلك انه مسافر في مهمة في خدمة مولاه ولم يشأ ان يتأخر ساعة لاجلي . وانا تركت حسي ونسبي وعرضت نفسي لغضب اخي وسائر اهلي من اجله فهل يدل هذا على حبه ؟ » قالت « لا شك انه يحبك وقد توسمت ذلك في عينيه لكنه شهم اذا وعد وفي . وقد اقبم ان يسافر الليلة فلا يريد ان يحنث بيمينه . واوكد لك انه لو طال جلوسنا برهة لرايت منه كل ما يسرك لانه لم يكن في اول الحديث يصدق انك تحبينه ولم يكن يحلم بهذه النعمة . فلما دنا من الموضوع جاء هذا الطواشي وكدر علينا امرنا .. ولكن كوني مطمئنة انه سيعود اليك .. »

فغلب عليها الامل — والمحبة كثير الريب لكنه سريع التصديق قريب الامل — فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها اشرق وجهها وبان الابتسام حول شفيتها واقبلت بوجهها نحوها وقالت « صحيح ؟ هل انت على ثقة مما تقولين ؟ هل هو يحبني ؟ » ثم اطرقت كأنها عادت الى رشدها . وضمت خديها بين كفيها وصاحت « ويلاه ؟ ماذا جرى لي ؟ من انا ؟ الست سيدة الملك العاقلة الحازمة ابنة امير المؤمنين واخت امير

المؤمنين سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول ؟ ما الذي اصابني حتى صرت كالجنونة
واصبح قلبي اسيراً بين يدي شاب غريب لا حسب له ولا نسب أتسقط ما يجود به علي
مرث بكلمة عطف او تودد ... وهؤلاء ابناء اعمامي الشرفاء يتمنون مني لفته رضى :
لله ما اشد وطأة الحب وما اقوى سلطانه .. »

فلما سمعتها ياقوتة تقول ذلك توسمت منها الرجوع الى الصواب لعلها تنجو من
لواعج الحب فبادرتها قائلة « الم اقل لك يا سيدتي ..؟ قد كنت في نعيم وراحة قبل
ان ... »

فاسرعت سيدة الملك فوضعت كفها على فم ياقوتة تعجبياً في اسكتها وقالت « ومع
ذلك فان الحب يعزيني عن كل شي ... يكفي ما رأيته من اقتناعي بكلمة من عماد الدين
لو قالها لنسيت كل شيء . ومع ذلك فان اهلي بان اسمعها منه انساني القصور والخلافة
والنسب الشريف . انساني كل شيء .. ذلك هو الحب يا ياقوتة . ليس في الدنيا الذ
منه اذا كان متبادلاً .. وهو بيننا متبادل ان شاء الله .. اليس كذلك ؟ »

فعادت الى مسيرتها وقالت « هذا ما قاته لك يا سيدتي .. فاتكلي على الله
واصبري فان الفرج قريب »

فاجبت سيدة الملك ان تحتم الحديث بهذا الوعد فاخذت تهتم بالذهاب الى الفراش
وياقوتة تساعدها

اما عماد الدين فانه دخل السرداب مرغماً ولم يكن يريد الرجوع هارباً من وجه
قراقوش او غيره . ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفراراً من التأخير
عن المهمة التي هو سائر فيها — مرّ في السرداب متجسماً والغلام يسير بين يديه
حتى وصل الى الطرف الاخر عند منظرة اللؤلؤة . فخرج وعاد الغلام الى القصر
مشى عماد الدين بين الاشجار يطلب غرفته واذا هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة
الفجر فاجفل . ولم يكن يظن نفسه تأخر بهذا المقدار فاسرع الى غرفته وامر باعداء
جواده واستعد للسفر وهم بالخروج قبل طلوع النهار حسب وعده . واذا بصلاح الدين
يناديه من غرفته فاسرع ملبياً فراه قاعداً في فراشه فاكب على يده يقبلها فقال
« انت مسافر يا عماد الدين ؟ »

قال « نعم يا سيدي .. وقد ابطأت قليلاً ولكن لا تطع علي الشمس الا خارج
القاهرة كما قلت »

قال « كنت احب ان اراك قبل الان وقد سألت عنك مراراً فلم يجدوك

حجرتك . احببت ان اراك لعلي اثنيك عن عزمك وانت سائر في مهمة يمكن الاستغناء عنها وربما كنا احوج اليك هنا مما في الخارج »
قال « اني طوع امر مولاي .. لكنني قد تأهبت للذهاب فادع لي بالنجاح ، اذا فزت فببركة سلطاني ومولاي . واذا مت فان روحي فداء » قال ذلك ووقف ينتظر الامر فاجابه صلاح الدين « سر بحراسة المولى ولا اوصيك بالشجاعة فانك شجاع ولكنني لا احب ان تلقي بنفسك في التهاكة فانك عزيز علينا ... سر بحراسة الله »
فعاد وقبل يد صلاح الدين وخرج فركب جواده وسار ولم تمض دقائق قليلة حتى صار خارج القاهرة وهو عايم بالطرق ومسالكها . وحالما خلا بنفسه عادت اليه هواجسه بما لاقاه من الغرائب المدهشة في الليل الماضي . ولما اشرفت الشمس توهم ان ما مر به من ذلك حلم رآه في منامه اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحفاوة والتقرب من سيدة نساء مصر . لكنه ما لبث ان جس جيبه فوجد العقد فيه حتى تحقق ان ذلك حدث في اليقظة . فلنتركه في هواجسه ولنعد الى اهل القاهرة

الفصل الثلاثون

المكاري وقراقوش

تركنا قراقوش بعد مفارقة سيدة الملك وقد استغرب ما سمعه . لكنه ما زال يتوقع ان يجد احداً في القصر لان ابا الحسن اكد له وجود رجل غريب . فعاد الى التفتيش في كل مكان فلم ير احداً . فعاد الى غرفته قرب باب القصر فرأى ابا الحسن في انتظاره على مثل الجمر . وكان ينتظر ان يراه قادماً اليه ومعه عماد الدين يرسفه في القيود فلما رآه وحده صاح به « اين الرجل ؟ »

وكان قراقوش يحترم ابا الحسن لما يعلم من نفوذه عند الخليفة فاجابه بلطف قائلاً « لم اجد احداً يا سيدي »

قال « يا للعجب ! كيف لم تجده .. انا على يقين من دخوله هذا القصر .. وانت تعرفه »

قال « من هو ؟ »

قال « عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين »

قال « عماد الدين ! لا يعقل دخوله هنا . ان هذا الشاب من رجالنا لا يجسر على المجيء . . . وكيف يمكنه ان يدخل هذا القصر ويخرج منه ولا آراه وانا ساهر لا تفوتني حركة من حركات اهله والمفتاح بيدي ؟ واي غرض له من المجيء ؟ . لا بد من خطأ في البلاغ الذي اتصل بك »

قال « انا على يقين يا استاذ ان عماد الدين دخل هذا القصر . واما غرضه فيه فلا ادري ما هو لكنني سمعت من بعض غلمان القصر ان لهذا الشاب معرفة باهل هذا القصر قبل ان صار الاستاذ بهاء الدين زمامه والامر الناهي فيه . بلغني انه دخل اليه في يوم واقعة العبيد و . . »

فاستغرب قراقوش هذا الحديث فقال « قل لي من انباك الآن بدخوله هنا ؟ »

قال « خادمي وهو من العارفين بدخائل القصر واذا شئت دعوته اليك »

قال « ادعه اين هو ؟ »

فوقف ابو الحسن بالباب ونادى « يا غلام »

فلما دخل الغلام تذكر قراقوش انه من قدماء الغلمان في قصور الخلفاء فقال له

« كيف تقول بدخول الرجال هذا القصر ؟ ومن انباك بذلك ؟ »

لاشتفت الغلام الى ابي الحسن وقال « هل اقول ما اعرفه ؟ »

قال « قل »

فالتفت الى قراقوش وقال « علمت بدخوله لاني رأيتُهُ داخلًا القاعة الكبرى »

فصاح فيه « رأيتُهُ بعينيك ؟ »

قال « نعم ياسيدي وقد مكث هناك مع سيدة الملك وحاضنتها مدة »

قال « ولماذا لم تخبرني ؟ »

قال « لم اتجاسر خوفاً من سيدتي فبلغت الامر الى مولاي ابي الحسن ليبلغك

اياه وهو من اقرباء امير المؤمنين وله دالة ونفوذ . . وقد فعل »

قال « هذا لا يمكن . . لا يمكن ان يدخل أحد هذا القصر ولا اعلم به وليس للقصر

باب آخر غير هذا — الا ان يدخل من الدهليز الذي يمرُّ به الخليفة من قصر الذهب وهذا عليه الحراس يمنعون ايا كان من المرور فكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟

قال « ان سيدي الاستاذ زمام القصور حديث العهد في هذا القصر لا يعرف دخائ

وسر اديبه ودهاليزه وفي جملتها سرداب بينه وبين منظرة اللؤلؤة وبما جاء عماد الدين فيه . .

فلما سمع ذكر منظرة اللؤلؤة أجل البحث الى وقت آخر وختم الحديث بقو

« وعلى كل حال فان هذا القصر ليس فيه احد من الرجال الغرباء الآن واذا كان فيه احد فانه لا يفلت منه . وسينال جزاءه . لان مولاي السلطان أوصاني خيراً بالقصر وشدد عليّ بالمحافظة عليه لصيانة اهله ... واني شاكر للشريف ابي الحسن على غيرته . » فقطع ابو الحسن كلامه قائلاً « اني افعل ذلك غيرة على النسب الشريف الذي يجمعني باهل هذا القصر .. ولكن لا بأس سيظهر الحق » ثم خرج وهو يقول « لقد ازعجناك الليلة بلا طائل » وانصرف

فلما خلا قراقوش بنفسه عاد الى التفكير واستعاد ما سمعه من ذلك الغلام عن وجود الدهاليز والسر اديب . وبعد اعمال الفكرة ترجح له صدق التهمة فرأى أن يرفع الأمر الى صلاح الدين . فلما كان الضحى ركب الى منظرة اللؤلؤة . ولكنه رأى أن يلتقى صديقه ضياء الدين الهكاري ليستشيره في الامر قبل الدخول على صلاح الدين لانه اصبح في تلك الاثناء اكثر مخالطة له منه . فلما وصل المنظرة سأل عن الفقيه عيسى الهكاري فقيل له انه منفرد في غرفته . وهم الحراس أن يرحبوا بقراقوش ويبلغوا خبره الى صلاح الدين فاشار اليهم أن لا يفعلوا وتحول عن فرسه وطلب غرفة الهكاري في بعض اطراف البستان . فلما علم الفقيه بقدمه وقف له ورحب به . وكانا صديقين اصطحبا في خدمة صلاح الدين وتعبا في اسناد الوزارة اليه بعد عمه كما تقدم . وهما يتفانيان في مصلحته

رحب الهكاري بهاء الدين قواقوش ترحيباً كثيراً وقال له « ماذا جرى ؟ اني لم اشاهدك من عهد بعيد شغلوك بحراسة النساء وما اجدرك بقيادة الرجال .. » و اشار اليه ان يجلس على وسادة فوق الطنفسة

فجلس بهاء الدين وهو يقول « ان حراسة النساء اصعب مراساً من قيادة الجند لانها تشتمل على حراسة النساء من الرجال . وانت ماذا تعمل ؟ هل دبرت شيئاً جديداً في خدمة هذا السلطان العظيم .. اني لا اذكر اسمه الا ويتهاى قبلي فرحاً .. » فقطع الهكاري كلامه قائلاً بصوت خافت « وخصوصاً لما نتذكر اننا استطعنا أن نضعه في هذا المنصب كما تعلم »

فابتدره بهاء الدين قائلاً بلهفة « احذر يا صاح أن تقول هذا ويسمك أحد اذ ليس على الملوك اثقل وقعاً من التمنين . والآن ماذا تفعل ؟ »

فضحك الهكاري وقال « انا ساع الآن في أمر لا استغني فيه عن يدك . واذا نجحنا فيه يحق لنا ان نفاخر بما اديناه من الخدم الجميلة للسلطان صلاح الدين »

فتطاول بهاء الدين بعنقه نحوه وقال « وماذا عسى أن تفعل فوق ما فعلناه . انه سلطان مطلق وليس بعد هذا المنصب مطمع »

قال « بلى . . ان السلطان يقدر ان يطمع بالخلافة »

فتحول وجهه عنه بازدرء وقال « لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه »

فقال « لم اعهدك متسرعاً . . متى علمت الطريق الذي اخترته غيرت ظنك

في الامر . . »

قال « وماذا عسى أن يكون الطريق . . »

قال « طريق الزواج وقد خطبت له سيدة الملك اخت الخليفة فاذا تزوجها فابنه منها يكتسب حقاً في الخلافة اذا اتحدت معه القوة كفي لنيل هذا المنصب كما اراد طغرل بك السلجوقي أن يفعل و . . »

فقطع بهاء الدين كلامه قائلاً « فهمت ما تريده وهو نعم الرأي ولكن هل رضي

الخليفة ان يزوج اخته لهذا المولى الكردي (وضحك) ؟ لا اظنه يرضى »

قال « اذا لم يرض طوعاً رضي كرهاً . وقد وعدنا بالجواب بعد قليل »

فقال قراقوش « لقد اذكرتني امراً جئت من اجله وشغلتني عنه بحديثك .

ان عماد الدين خادم السلطان ارتكب شططاً لا ادري اذا علم به السلطان ما يكون

قصاصه وخصوصاً بعد ما علمته من خطبته و . . . »

فطمع الهكاري كلامه قائلاً « لا تقل خادم السلطان بل قل صاحبه وحارسه الخاص

قال « ومتى بلغ هذا المنصب ؟ »

قال « بلغه اول البارحة على يد الامير نجم الدين — لله هو من رجل كبير العقاب

عالي الهممة . . »

قال « صدقت أن نجم الدين جدير أن يكون والد هذا السلطان . . واين هو عم

الدين ؟ احب أن اراه لاهنئه واسأله سؤالاً »

قال « خرج من هذه المنظرة في هذا الصباح في مهمة لا يعلم احد حقيقةها

وماذا تريد أن تسأله ؟ »

فقص قراقوش خبر الامس كما جرى . فظهر الهكاري ارتيابه في صحة الرو

واكد له أن عماد الدين قضى طول ليله في الاستعداد للسفر وبرز المنظرة في الفجر

فوقع قراقوش في حيرة وعاد الى الارتياح في الامر وخصوصاً بعد ان سمع حديث

الخطبة لكنه اراد أن يطلع صلاح الدين على ما سمعه فاستشار الهكاري في ذلك

فقال « دعه الآن لا تخبره لئلا يغير ذلك من عزمه على الخطبة وانا أجب أن يتم اقترانه لاني ضامن المستقبل باذن الله »

الفصل الحادي والثلاثون

جلسة تاريخية

وهم في ذلك وقد همّ قراقوش ان يتكلم دخل غلام الهكاري وقال « في الباب رسول من مولانا السلطان »

فقال الفقيه « يدخل »

فدخل الغلام ولما رأى قراقوش هناك بانت البغته في وجهه وقال « سيدي الاستاذ بهاء الدين هنا؟ كنت ذاهباً اليه ايضاً »

فقال الهكاري « ما وراءك؟ »

قال « ان السلطان يطلب حضوركم في القاعة الآن وقد امرني ان ادعو سائر الخاصة و كنت عازماً على الذهاب الى القصر الكبير لادعي سيدي الاستاذ فاذا هم هنا » فقال قراقوش « اننا ذاهبان وماذا عسي ان يكون الباعث على هذه الدعوة؟ » قال « لا ادري ياسيدي ولكنني رايت نجاباً وصل في هذا الصباح قادماً من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان فما زال منذ تلقاها وهو يقاب فيها وقد تغير وجهه وبان الغضب فيه . ثم شاور مولانا الامير نجم الدين والظاهر انهما اقررا على عقد جلسة للبحث في امر هام »

فاشار قراقوش الى الهكاري بيده مستفهماً عما يعامه من هذا الامر . فاشار الى الغلام ان ينصرف ومشى مع قراقوش وخاطبه في اثناء الطريق سرّاً وقال « ان امر هذا الكتاب عامت به في هذا الصباح وقد استقدمني السلطان واطاعني عليه وعملت عملاً ترضاه مني »

قال « وما ذلك »

قال « ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب دمشق شديد اللهجة جداً »

قال « وما سبب ذلك؟ »

قال « الا تذكر خروج مولانا السلطان في صفر من هذا العام الى بلاد الشام »

لمحاربة الافرنج وقد صحبته في هذا السفر . فنازل حصن الشوبك ثم طاب الكرك
 وحصره وضيق عليه وعلى من به من الافرنج حتى طلبوا التسليم والامان . لكنهم
 استمهلوه عشرة ايام فاجابهم الى ذلك . وكان السلطان نور الدين في دمشق فلما بلغه
 ما فعله صلاح الدين ارتاب في امره وانت تعلم ما بينهما من المحاذرة وما في نفس صلاح
 الدين من الطمع في سلطنة مصر لنفسه . . . « قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلاً
 « لا اظن احداً اطمعه فيها سواك وقد احسنت . . . كمل »

فقال الهكاري « الاتراه اهلاً لها؟ . مالنا ولذاك . . ان نور الدين لما سمع بما
 فعله صلاح الدين في الكرك خرج من دمشق قاصداً حرب الافرنج ليغتم تضيق
 صلاح الدين عليهم من جهة ويضيق عليهم هو من جهة اخرى فيذهب ملكهم . وقد
 رأيت في ذلك خطراً على سلطاننا لان نور الدين متى اذل الافرنج واخضعهم تفرغ
 للسلطان صلاح الدين وهو وزيره والناس اطوع له مما الى وزيره فتذهب مطامع
 صلاح الدين بمصر ادراج الرياح والافضل ان يبقى نور الدين مشغولاً عن صلاح
 الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضي الله امراً كان معفوفاً . . . « فقطع قراقوش حديثاً
 قائلاً « لله درك من داهية واحسبك عرضت هذا الرأي على السلطان . . . »

« قال « عرضته عليه بعض الناس واشار عليه ان يرجع لمصر بحجة ينتحلها ومم
 قالوه له « ان دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحال انت من جانب ونور
 الدين من جانب ملكها . ومتى زال الافرنج من الطريق واخذ ملكهم لم يبق بديار مصر
 مقام مع نور الدين . وان جاء نور الدين اليك وانت ههنا فلا بد لك من الاجتماع
 وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما يشاء . ان شاء تركك اولا فقد لا تقدر على الامتنان
 عليه . والمصاحبة الرجوع الى مصر » (١)

فرجع مولانا السلطان الى مصر كما تعلم وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال الدين
 المصرية لامور باخته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها فيخاف
 عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخاف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة
 واطال في الاعتذار . فيظن ان نور الدين لم يصدق هذه الاعتذار . فبعث اليه كت
 يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق . فلقيته في هذا الصباح وقد اخذ منه الغضب مأخ
 عظيماً فاسرّ الي غضبه وانه لم يعد يستطيع صبراً على كتمان غرضه فخفت غض
 واستمهلتته ولا اراه مصغياً ولا اخال هذه الدعوة الا لاهم يتعلق بالكتاب «

وكانا قد وصلا الى قاعة الاجتماع والحرس ببابها فزاحوا لهما الستر. فدخل الهكاري اولاً وتبعه قراقوش وكانت جاسة حافلة اجتمع فيها نخبة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله وفي جملتهم ابوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي وابن اخيه تقي الدين . فالتقى الهكاري وقراقوش التحية فرد صلاح الدين عليهما وقال « مرحباً بالفقيه الحكيم ضياء الدين وبالبطل الاستاذ زمام القصر بهاء الدين » وأشار اليهما بيده فجلسا وعينا الهكاري تراعي صلاح الدين فرآه رغم ما يحاول اظهاره من التؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى الغضب في عينه

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين « يا نخبة الامراء الابطال وخيرة الاهل والخلان ان السلطان نور الدين صاحب دمشق اقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب الينا الذهب اليه . ونحن في ما نعلمون من حرج المقام وما يحقد بنا من الدسائس والمكائد في بلد كل اهله اعداؤنا يترقبون منا غفلة او ضعفاً ليثبوا بنا . فلما اعتذرت له بذلك كتب اليّ يهددني انه حامل علينا بخياله ورجله . وانتم رجالي واهلي وما يقال لي كانه يقال لكم . فلم اشأ ان اقطع في الجواب قبل ان اشاوركم فماذا ترون ؟ » وكان صلاح الدين يتكلم والحضور سكوت كان على رؤوسهم الطير ولعلك لو استطلعت خفايا سرائرهم لرأيت كلاً منهم ينتظر ما يقوله الآخرون ولا يريد أن يكون هو البادئ في الرأي . وعيونهم متجهة بالاكثر الى الامير نجم الدين والد صلاح الدين لما يعلمونه من حزمه وعلوهمته ودهائه فلم يقل شيئاً . ولكنه كان مطرقاً يفكر وقد قعد الاربعاء على وسادة عالية وفي يده هناة كالقلم يلاعبها بين اصابعه ولا يخفى اضطرابه على المتفرس فيه

وكان الهكاري جالساً بجانب قراقوش وحدثه نفسه ان يتكلم ويقوي عزم صلاح الدين على مقاومة نور الدين فالتفت الى قراقوش كانه يستشير في الامر وهم قراقوش ان يوافقه على ذلك فاذا بتقي الدين ابن أخي صلاح الدين قد غلبت عليه حمية الشباب فوقف وقال « اذا كان عمي السلطان قد جمعنا ليشاورنا في هل ننصره الى نور الدين فهو يعلم اننا لم نلحق به الا لاتفاني في نصرته . فاذا جاء نور الدين مصررنا منعناه بحد السيف »

فبان البشر في وجه صلاح الدين استحساناً لتلك الجرأة وابتسم . فكان لا يتسامه تأثير شديد على ضمائر الحضور فجعلوا يتسابقون الى الموافقة على رأي ذلك الشاب بمثل قوله . وعلا الضجيج ونجم الدين لا يزال مطرقاً والعيون محدقة به لترى ما يبذره

واذا به اثار بالقلم الذي في يده اشارة استمهال فاصغى الكل وعبونهم على شفتيه .
فنظر الى تقي الدين نظرة ازدجار وتوبيخ وامره ان يقعد وانتهر من وافقه من
الحضور . والتفت الى صلاح الدين وقال « يا يوسف اراك تبغي امراً عظيماً انت اقصر
باعاً من ان تناله . انا ابوك وهذا خلاك شهاب الدين ونحن اكثر محبة لك من جميع من
ترى . والله لو اني وخالك هذا وقع نظرنا على السلطان نور الدين لم نمكث الا ان
نقتل بين يديه . ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف افعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما
ظنك بغيرنا . وكل من تراه عندك من الامراء لو راوا نور الدين وحده لم يتجاسروا
على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها . فان امر سمعنا
واطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى
هذه البلاد فاي حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتى منديلاً ويأخذني
اليك وما هنا من يمتنع : هذا هو الراي يا بني »

فلما قال نجم الدين ذلك اطرق الحضور وتعلموا وندموا على ما كان منهم . واما
نجم الدين فخافاً فرغ من كلامه نهض وخرج فنهض الامراء جميعاً وتفرقوا وفي جماعتهم
عيسى الهكاري . فانه قبض على يد قراقوش وخرج به الى خلوة فقال قراقوش
« يا هذا ؟ لا اعهد نجم الدين جبناً ضعيف العزم الى هذا الحد . . والله اوشكت
ان اقف لمعارضته »

فضحك الهكاري وقال « لقد اخطأت يا استاذ . ليس بين هؤلاء من هو اقوى
قلباً واجراً على الامور منه . واكنه حكيم عاقل والله اني كنت اقرأ فكره وهو مطرق
يسترق النظر الى الحضور وهم يتكلمون — وقد تبين ما في كلامهم من الحدة نخاف ان
يجاريهم بالكلام فيفسد التدبير . واذا شئت ان تحقق ذلك اتبعني . اني اراه داخلاً
الى غرفة صلاح الدين وحده »

فمشى قراقوش في اثره حتى اقتربا من الغرفة فاهجهما نجم الدين فاشار اليهما ان
يدخلا فدخلا واغلقا الباب وراءهما وصلاح الدين بهم ان يعاتب اياه على ما سمعه
منه . فالتفت نجم الدين الى الهكاري وقال « انت حكيم وصاحب تدبير . وقد اخبرني
يوسف بما كان من تدبيرك مع الاستاذ قراقوش في سبيل مصلحته . لذلك فاني لا اخشى
ان اقول رأيي امامكما » والتفت الى صلاح الدين وقال « باي عقل فعلت هذا يا يوسف
اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربتة رجعنا اهم الوجوه اليه ؟ وحينئذ
لانقوى عايه . واما اذا باغى قولي واننا في طاعته تركنا واشتغل بغيرنا ريثما تعمل

لاقدار عملها . . « ثم وجه كلامه الى الهكاري وقرأ قوش وقال « والله لو اراد نور
لدين قصبه من قصب السكر بصبر لقائلته عليها حتى امنعه او اقتل » قال ذلك
وعيناه تتلا لأن

فهم صلاح الدين بيد ابيه يقبلها وقال « صدقت يا ابي . قد نطقت بالصواب وانا
فاعل ذلك باذن الله . . ما احوجني الى رايك وتديرك »

والتفت الهكاري الى قراقوش ولسان حاله يقول « الم اقل لك هذا ؟ »
فاكب قراقوش على يد نجم الدين فقباها وقال « لا حرمنا الله من رايك
سيدي . . » وقبل ان يفرقوا سمعوا الأذان فذهبوا للصلاة ثم الى الغداء

الفصل الثاني والثلاثون

الشعب

اما ابو الحسن فلما عاد بصفقة المغبون ولم يظفر بعماد الدين ولا استطاع اغاظة
سيدة الملك رأى ان يبلغ ذلك الى الخليفة باسلوب يمكنه من مرامه . فصبر حتى طاع
النهار وهو صباح الاثنين احد اليومين اللذين يجلس الخليفة فيهما للناس من كل
اسبوع واليوم الآخر يوم الخميس . فاجل ابو الحسن المقابلة الى اليوم التالي . وقضى
ذلك اليوم وهو يدبر الحبائل وينصب المكائد . وبكر في الصباح التالي الى بيت الجاليس
الشريف فرحب به فسأله عن الخليفة فقال « انه مريض وقد اشتد المرض عليه بالامس
حتى شغل بالنا »

فابتدره ابو الحسن قائلاً « يظهر انه انتكس لما بلغه خبر قصر النساء »
فلم يفهم الجاليس مراده فقال « وماذا جرى ؟ » وأشار اليه ان يتفضل يدخل .
فاظهر انه اخطأ بذلك التصريح وانه يريد الكتاب محافظة على كرامة اخت
الخليفة فقال « لم يجز شيء » وجعل يبلع ريقه وهو يناول لجام البغلة الى السائس
ويمشي مع الجاليس الى قاعة الاستقبال

فانطلت الحيلة على الجاليس فقال « كيف لم يجز شيء وقد قلت انه جرى ؟ قل
لا تخف عني . . فاني لا اخاطب الخليفة بشأنه اذا احببت كتمانته عنه »
قال وهو يقعد ويظهر عدم الاكتراث « ليس هذا وقت الكلام بما يكدر الخليفة
وانما يهمني ان يشفي من مرضه . . ما الذي جدَّ عليه حماء الله من كل سوء »

قال « ما زال منذ اصاب بالحمى يوم ذلك الاجتماع وهو متوعك المزاج . فلما كان صباح الامس وهو يوم الجلوس للناس لم يحضر نسألت عنه فقيل لي انه قضى يومه في دار النساء وعلمت بعد الظهر ان الحمى عاودته بشدة .. »

فاظهر ابو الحسن الاهتمام الشديد بالامر وقال وهو ينظر في البساط « قضى نهار الامس في دار النساء ! واصيب بعد الظهر بالحمى .. فلا بد ان يكون ظني الاول في الحله » قال « وما هو ؟ قل يا ابا الحسن .. ما عهدتك تخفي عني شيئاً .. قل ماذا جرى في دار النساء ؟ »

قال « لا احب ان يشيع هذا الخبر حفظاً لكرامة اهل القصر .. علمت ان غريباً دخل ذلك القصر مساء اول البارحة وقضى معظم الليل فيه . ولما علمت بخبره اسرعت الى زمام القصر (قراقوش) وطلبت اليه القبض عليه فاذا به قد فر في السرايب .. رأيت ؟ رأيت هذه الطياشة ؟ »

فاطرق المجلس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من احد يتجاسر على عرض الخليفة ولا يعقل انه يستطيع الدخول الى القصر مع ما حوله من الحراس . ثم ان اخت الخليفة بعيدة عن مثل هذه الظنون . ولحظ ابو الحسن تردده في تصديق الخبر فبادر قائلاً « اراك مطرقاً تفكر كأنك لم تصدق قولي .. وحقك ان ترتاب . ولكن هذه المرأة التي تزعم انها لا تريد الزواج فراراً من ابي الحسن انما هي عالقة القلب شاب غريب من الاكراد اعدائنا »

فصاح « من الاكراد ! ماذا تقول ؟ »

فاجاب بهدوء وتألماً « ومن خدم الاكراد »

فلطم الشيخ كفه بكفه وقال « باللفضيحة ماذا يكون حال امير المؤمنين اذا بلغه

ذلك الخبر ولكن .. »

فقال ابو الحسن « ومن يتجاسر على تبليغه هذا الخبر ؟ لا ينبغي ان يعلم به او لعله

علم وكظم فاصابته الحمى .. أتأسف كثيراً لاني اطلعت على هذه الفعلة ولكن ما العمان

لا بد من تدبير حيلة ننقذ بها عرضنا من العار ! »

فتألّم المجلس مما سمعه واعتقد صحته وهو سليم القلب كما علمت . فاوشك ان تدمع

عيناه من الغضب فوق ما هو فيه من الكدر على مرض الخليفة . وكان لا يزال واقفاً فقعد

وهو خائر القوى . فاخذ ابو الحسن يتظاهر بالتخفيف عنه . وهو يعد ذهنه لمكيد

يفوز بها بمرامه فقال « يحق لنا البكاء في هذا اليوم فلنبك يا عزيزي فلنبك .. »

واخذ في البكاء حتى نسي المجلس حزنه واشتغل بالتخفيف عن ابي الحسن فقال له
 « لا بد من الصبر يا مولاي ان البكاء لا ينفعنا شيئاً .. لا بد من تدبير طريقة .. »
 فاسرع ابو الحسن الى مسح عينيه وتظاهر بالجد والاهتمام والتفت الى المجلس
 وقال « نعم لا بد من تدبير طريقة ولكن الامر اعظم مما يظهر لك يا عماء »
 قال « وهل اعظم من ذلك ؟ »

قال « ان الامر بنفسه عظيم كما علمت ولكنني افكر في المستقبل واراقب ما قد
 تأتي به الاقدار مما لم يكن بالحسبان »
 فضل المجلس ساكتاً يفكر ولم يجب . فقطع ابو الحسن سلسلة افكاره بالسؤال
 قائلاً « من هو طيب مولانا امير المؤمنين ؟ »

قال « طيبه الشيخ السيد رئيس الاطباء لا يثق الا به لسعة علمه وطول اختباره »
 فقال ابو الحسن « الشيخ السيد ؟ هل هو ماهر في صناعة الطب ؟ »
 قال « كيف لا وقد نال الحظوى عند الائمة الفاطميين من ايام الامر رحمه الله
 وكان صغير السن وابوه طيب قبله . ثم ورت هذا المنصب بعده (١) وما زال
 يطب الائمة رحمه الله الى الان وقد اصبح شيخاً طاعناً في السن »
 فقال « وماذا يقول عن مرض مولانا ؟ هل سألته »

قال « سألته ولكنه لم يجيني جواباً صريحاً »

قال « اني اخاف جواب الاطباء ان لم يكن صريحاً .. لانهم اذا خافوا على مريضهم
 الموت جعلوا كلامهم عنه مبهماً .. »

فاجفل المجلس عند سماع لفظ الموت لانه كان يحب العاضد وقال « لا سمح
 الله يا سيدي .. لا سمح الله ان يكون على الامام العاضد بأس »

فقال ابو الحسن « اعوذ بالله ان يخرج من في او يمر بذهني سوء يصيب امامنا
 واطلب الى الله اذا كان قد كتب شيء على امير المؤمنين ان يفديه بروحي .. ولكن
 العاقل من فكر بالامر قبل وقوعه ولا سيما في الامامة . لان الامام قطب تدور عليه
 امور الدولة وبه تتعلق القلوب . والاصابة به غير الاصابة باحد الناس .. وهذا معنى
 قولي لك ان المسألة اعظم مما تتصور . هل فهمت مرادي ؟ »

فادرك المجلس انه يعني لو مات العاضد كيف يكون حال الامة بعده فقال « فهمت
 يا بني ان الامر جليل ولكن .. »

(١) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ٢

فاسرع ابو الحسن وهو يروغ كالثعلب وقال « كلنا عبيد الموت يا عماء وعسى ان تكون حياة الامام العاضد اطول من حياة نكل منا . واضرع اليه تعالى ان لا يميتني الا في حياته - » ودمعت عيناه فتأثر الجليس وشاركه بذلك الشعور على مظهره وقال « ذلك ما نتمناه جميعاً وخصوصاً لان مولانا حفظه الله ليس لنا ملجأ سواه وقد كابد في امامته من اولئك الاكراد ما لم يكابده سواه ولولا حزمه وتعقله لا ادري كيف كانت حالنا . . »

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه كانه فطن لامر هام وقال « هذا ما يدور في خلدي ويجول في خاطري ويحوم حول لساني ولا يطاوعني قلبي عليه . . اذا كان هذا حالنا الآن فكيف يكون شأننا لو حدث ما نتمنى موتنا قبله . . لو ان في بيت العاضد رجلاً حازماً يخلفه لكان خيراً ولكنهم اطفال كما تعلم وهذا المنصب لا يستطيعه الا المحنكون نظيرك . . كم كنت اود ان يكون لك يد في هذا الامر . . »

فاستعظم الجليس هذا الاطراء واخذ يتنصل من هذا الحق فقال « اني عبد خادم لا يقال لي مثل هذا القول وانما يطمع بهذا الامر من كان مثلك يا ابا الحسن . . » فاخذ ابو الحسن يهز رأسه هز الانكار وقال « انا ! نعم كنت راغباً في هذا المنصب كما علمت وقد قلت لي ان الامام رضي ان اكون وني عهده . وهذا شرف لي لكنني الآن اتردد كثيراً في القبول . . »

فقال الجليس « لا ينبغي ان تتردد فان في قبورك انقاذ هذه الدولة »

فوجد الفرصة قد سنحت ليستشهد الجليس بان العاضد بايعه بولاية العهد فقال « وهب اني اردت ان اتفاني وارضى فهل يصدق القوم ان العاضد بايعني ؟ » قال « انا اشهد بذلك . . الم يكن رضي على الشرط المعلوم ؟ وانما اجل الامر سوقتاً وقد اعترضته شؤون مختلفة . . »

فرقص قلب ابي الحسن طرباً عند سماع ذلك الوعد فعاد الى المغالطة وقال « انا اعلم ان مثلك اذا شهد فشهادته اوثق من عقد مبرم . . ولكن ما لنا ولهذا الان ارجو ان لا يحدث ما يدعو الى استشهاده وان ينهض مولانا الامام صحيحاً معافى ونتمتع برؤيته ونقبل يديه ونصلي وراءه . . »

قال « عسى ان شاء الله »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام مسرعة ودخل غلام عرفا انه من غلمان القصر فاجفلا فقال الجليس « ما وراءك »

قال وصوته يرتجف « ان مولانا الامام يجب ان يراك الآن عاجلاً »

فقال « وكيف هو ؟ »

قال « لا ادري لكنني رأيت الشيخ السيد عنده ومعه اطباء كثيرون .. »

فنهض الجايس وهو يقول « يظهر ان المرض اشتد عليه »

« فقال ابو الحسن « لا بد من ذهابك اليه حالاً . ولو كنت اعلم اني انفعه لسرت معك واكنني ساسعى بعد قليل للاطمئنان . وانا ذاهب الآن الى المسجد لادعوه بالشفاء » قال ذلك وخرج وترك الجايس يتأهب للركوب الى الخليفة

الفصل الثالث والثلاثون

الدسائس

اما ابو الحسن فانه رجع على بغلته الى منزله . وخلا في غرفته واخذ يفكر في حيلة يدبرها لنيل بغيته . وقد تأكد له دنو اجل الخليفة فكيف يهد الامر لنفسه وهو يعلم ان شهادة الجايس لا تكفي وان القول الفصل لصلاح الدين . اذا اظهر رضاه عن مرشح للخلافة نالها . فانزوى في الغرفة على كرسي واقفل الباب وجعل يفكر في الطريقة المؤدية الى غرضه وبعد التفكير ساعة - لا يحرك رأسه ولا يده وانما كان يحرك شفتيه وعينيه - وثب من مكانه وصفق فجاء الغلام فقال له « اسرج البغلة » فقال « لا تزال مسرجة يا سيدي »

فركبها وسار قاصداً عيسى الهكاري صديقه . وكان الهكاري في غرفته المعهودة يطالع في بعض كتب الفقه فلما انبأ الغلام بمجيء الشريف ابي الحسن خف له واستقبله احسن استقبال لانه كان يتوقع ان يحتاج اليه في تدبير بعض الشؤون لمصاحبة صلاح الدين

فبدأ ابو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كانه يتم ما دار بينهما عند اجتماعهما في دار البعالم فقال « اراك لا تزال تفتش في الكتب ... هل ترى منها نفعاً ؟ » قال « كيف لا ؟ ومثلك لا يسأل هذا السؤال يا سيدي »

قال « صدقت لكني لا اعني الفائدة الشرعية وصيانة الحقوق وانما اعني الفائدة التي يطلبها الناس من اعمالهم .. ام انت مثلي تهتم بالعلم لاجل العلم نفسه ؟ »

قال « اطلب العلم لاجل العلم ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد اخرى . . »
فادرك ابو الحسن انه يشير الى ما يتوهم الهكاري انه استنبطه من مطالعة تاريخ
طغرل بك من تلقاء نفسه حتى حرض صلاح الدين على اخذ الخليفة كما علمت . فعمد
الى اطرائه وتغريبه ليتوصل الى مراده فقال « انك حكيم عاقل وقد علمت الآن
صدق خدمتك للسلطان صلاح الدين . . الم تكن انت اشرت عليه بخطبة أخت
الخليفة ؟ . لا تنكر ذلك »

فاراد ان يتواضع ويتصل من ذلك الفضل فقال « ايسر لي هذه الدالة يا ابا الحسن »
فقال « مهما يكن من تنصلك فانا اعتقد نفوذ كلمتك والآن اتعلم لماذا جئتك ؟ »
قال « لا »

قال جئتك لامر اذا علمت كيف تفهمه وتفعل به خدمت مولاك خدمة حسنة . .
وان كان فيه خدمة اصديقك ابي الحسن ولك ايضاً »

فتناول بعنقه وقال « رحم الله من نفع واستنفع . . قل ما وراءك »

قال « اتعلم ان الامام العاضد في حال الاحتضار الآن ؟ »

قال « اعلم انه مريض فهل اشتد عليه المرض ؟ »

قال « انه في اشد حالات المرض . . واذا مات صارت الخلافة الى ولي عهده وانت

تعلم انه غلام عنيد لا يعرف فضل الرجال . . »

قال « اي فضل تعني ؟ »

قال « اسمع . . اني مطالعك على سرّ يهملك الاطلاع عليه . . ان العاضد مائت

الليلة او غداً . وانا اكثر اهله معرفة بفضل السلطان صلاح الدين — لا اقول اني احب

ان يتولى هذا الامر هو ويخرجه من ايدينا . ولو قات لك ذلك لا تصدقني ولكنني اعلم

ان مقاومة القوة الغالبة لاتفيد شيئاً . واذا صارت الخلافة الى ولي العهد الذي تعرفه

كان ذلك باعثاً على القلاق . اني اعرف افكاره واعلم انه ينوي ان يشير الشيعة

ويحرضهم على مناوأة السلطان ورجاله . . وهذا لايفيد احداً من الجانيين . ولا اخفي

عندك ان العاضد كان عازماً ان يجعل ولاية العهد اليّ فاوصي لي بذلك على يد المجلس

الشريف واوشك ان يكتب العهد لكن المرض منعه . فاخاف اذا توفي في مرضه

هذا ان ينكر رجاله واهله عليّ ذلك . فاذا اخذتم بيدي وصيرتم هذا الامر اليّ عرفت

لكم فضلكم واغنيتكم عن التعب . . ارجو ان تكون قد فهمت مرادي واضن

ما بيننا من الصداقة القديمة يكفي للوثوق بي والتعويل على قولي »

وكان الهكاري يسمع كلام ابي الحسن ويفكر فيه . فلما وقف عند هذه العبارة قال « وبعد ذلك ؟ »

قال « اعني اذا خاطبت السلطان صلاح الدين في الامر اعرض عليه هذا الرأي كانه منك فيعرف لك هذا الفضل وانت راجح من كل وجه ... ان ما اعرضه عليك عظيم الاهمية وفيه نفع للسلطان ولك ولي فما قولك ؟ »

فراى الهكاري كلام ابي الحسن معقولاً . وادرك ان عمله هذا خيانة لاهل الخليفة لكنه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لانهم اذا اعانوا هذا الخائن على تولي الخلافة كان عوناً لهم في ما يريدون ويهون عليهم ان يخاعوه في ما بعد اذا شاؤوا فضلاً عن انه يسهل على صلاح الدين التزوج بسيدة الملك على يده فيتم تديره . فنظر الى ابي الحسن نظر متفرس وقال « انت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك »

قال « لا انكر ذلك ولكنني اخدم مصلحة السلطان صلاح الدين ايضاً من كل وجه واذا لم تصغ لرأيي تعبت جميعاً لان المصريين قلوبهم مع خلفائهم كما لا يخفى عليك . اوني مهارتك في اتمام هذا الامر واعلم انك ستكون اقرب المقربين »

قال « لك علي ذلك . سأبذل ما في وسعي في هذا السبيل ونرى ما يكون »
فتحضر ابو الحسن للنهوض وهو يقول « انا ذاهب وسنلتقي غداً ولا حاجة بي الى تنبيهك بان يبقى ما قاناه هنا مكتوماً عن كل انسان »
قال « لا حاجة الى التوصية »

الفصل الرابع والثلاثون

اقطع الشجرة من جذرها

نهض ابو الحسن وركب بغلته وعاد . . وظل الهكاري واقفاً برهة يعيد في ذهنه ما سمعه فرأى فيه خيراً كثيراً . فبادر الى تنفيذه وسار الى صلاح الدين فراه مع ابيه في شرفة تطل على الخايج وقد جاسا هناك للاستراحة فاستأذن عليهما فاذن له فدخل فامر به نجم الدين بالجلوس فجلس وتكاد عيناه تنطقان بما في خاطره فقال له صلاح الدين « ما وراءك يا ضياء الدين »

قال « جئت مولاي بامر هام »

قال « كل ما تأتي به هام نافع . اني لا انسى بلاءك في مصاحبتنا . قل ما بدا لك »
فاخذ يقص عليه ما دار بينه وبين ابي الحسن من اوله الى اخره والاهتمام ظاهر
في عينيه . فلما فرغ من كلامه ابرقت عيننا صلاح الدين ونظر الى ابيه كأنه يستشير
في الامر . وكان نجم الدين يسمع كلام الهكاري ويمحسه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح
الدين ينظر اليه قال « انه رأى جميل لكنه لا يزال فطيراً لاسيما والعاقد لا يزال حياً
فاذا مات نظرنا في الامر — بارك الله في همتك يا ابا محمد » وسكت

فعلم الهكاري انه ينبغي له ان ينصرف ليخلو الاميران ويتباحثا فاستأذن وخرج
فلما خلا نجم الدين بابنه جعل يتفرس في عينيه . كأنه يطلب اليه ان يقول ما في
خاطره فقال صلاح الدين « ما رأي والدي بما سمعه ؟ »
قال « انما اسألك عن رأيك . . »

قال « اني ارى فرصة لا ينبغي ضياعها . لا انكر انها خيانة من ابي الحسن هذا
لكنها تفيدنا . واذا وليناه الخلافة بامرنا زاد نفوذنا وكان آله في يدنا . . »
فابتسم نجم الدين ابتسام استخفاف وقال « انك يا يوسف رجل حرب ورأي
ولكنك لا تزال في حاجة الى الدربة والحيلة . . . استفدنا من وشاية هذا الرجل ان
القوم اذا مات خايفتهم تضععوا واختلّفوا فيما بينهم وهي فرصة لقطع تلك الخلافة
من جذرها . لا نبايع هذا ولا غيره . وانما نقبض على القصور ونحبس اهلها المذكور
اصحاب الحق في الخلافة حتى يبيدوا . وقد خطبنا للخليفة العباسي منذ مدة ولا بد
من الشدة والحزم فينتهي الامر . اليس ذلك خيراً من ان نبايع خليفة آخر ونعود
الى التعب من اوله ؟ »

فاجب صلاح الدين برأي ابيه ورأي الصواب فيه وخجل لما فاته ادراكه من الامر
ولم يسعه الا الاصغاء والاذعان وقال « بورك فيك يا ابتاه من حكيم حازم »
فقال « ولا يكفي ذلك وانما يجب ان نتأهب من الآن ونجعل الجند على استعداد
للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الخليفة السيء الحظ نفسه الاخير . . واتقدم اليك
ان تكتم ما اقوله لك الآن عن كل احد حتى يأتي وقته فننفذه . واحذر ان تفعل كما
فعلت بالامس فتكشف شرك في جلسة عانية . فقد قيل استعينوا على قضاء حوائجكم
بالكتان »

فحنى صلاح الدين راسه اعجاباً وطاعة وهمم بتقبيل يد والده اعترافاً باقتداره
فلجذب نجم الدين يده وقال « ارجو ان تستفيد من قولي يا بني انك ستكون سلطاً

عظيماً فاعمد الى التؤدة والحزم واذكر وصية ابيك «
 اما ابو الحسن فخرج من عند الهكاري وقد امتلأ صدره املاً وتحقق لديه الفوز
 بالملكة وسار تَوّاً الى دار الخليفة وهو يتنسم خبر العاضد في اثناء الطريق . فعلم انه في
 اشد حالات المرض فايقن انه مائت في ذلك الليل فاعمل فكرته في الوصول الى غرضه .
 وقد توهم فوزه بالخلافة وبقي القبض على سيدة الملك فاطمه بمرض الخليفة وسأل
 عن المجلس الشريف فقيل له انه في غرفة الخليفة لا يأذن بخروجه والاطباء وقوف
 بين يديه يبدلون الدواء بالدواء بلا فائدة . فاحتال ابو الحسن في الوصول الى الشيخ
 السيد طيب الخليفة فاستفهمه عن حقيقة حال العاضد فاجابه « انه يكاد يكون في
 حال الاحتضار » فبكى وبالع في البكاء حتى اشفق الطبيب عاينه واخذ يخفف عنه
 فخرج تَوّاً الى قصر النساء وقد مالت الشمس الى الاصيل وطلب ان يرى بهاء الدين
 قراقوش . فقيل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الدين فجلس ابو الحسن في غرفة
 الاستقبال بباب القصر ينتظر رجوعه

وبعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام . وكان ابو الحسن يتوقع
 ان يسمع منه ترحاباً بعد رجوعه من عند صلاح الدين لاعتقاده بان السلطان لا بد
 من ان يكون قد خاطبه بامرته بعد ما كان من تدبيره مع الهكاري . فلما رأى بهاء
 الدين مقبلاً على فرسه تصدى له بالباب وهو يبتسم فلم يكثر له قراقوش واظهر انه
 لم يره فخاطبه ابو الحسن قائلاً « مرحباً بالاستاذ كيف فارقت السلطان ؟ »
 فالتفت اليه بهاء الدين كانه رآه لأول مرة وقال « انت هنا يا ابا الحسن ؟ . »
 قال « انا هنا في انتظارك منذ ساعة .. كيف حال مولانا الامام يا ترى الآن ؟ »
 قال بهاء الدين وهو يقعد على مقعد في تلك الغرفة « انه في حال المرض الشديد
 شفاه الله » ولم يدع ابا الحسن للعود كالعادة

فقعد ابو الحسن من تلقاء نفسه واخذ يظهر الاسف على حال العاضد ويفرك يديه
 ويعصر عينيه ويهز رأسه وهو مطرق ثم قال « هل انت متأكد انه شديد المرض ؟ »
 قال « هكذا قيل لي الساعة .. شفاه الله .. انه كان رضي الخلق »

فبادر الى الجواب باهتمام وقال « صدقت يا استاذ ان الامام كان من احسن اهلنا
 خلقاً واطيبهم قلباً ولذلك .. » وتخنخ وهز رأسه كانه يحاول كتمان امر خطر له
 ثم التفت الى قراقوش وقال « لا بد انك لحظت بدقة نظرك يا استاذ ماذا كانت نتيجة
 طيب قلبه وتساهله .. وان لم تر ذلك رأي العين .. اما انا فقد رأيت .. على ان الامر

الآن اعظم مما تعلمه وينبغي لنا ملافاة الخطر قبل وقوعه ... انا اعلم انك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه .. لكنني استميتك عذراً اذا رأيت في قاتماً فاني اضن بسمعة اهلي ان ياحقها ما يشوهها . وقد علمت ما كان بالامس من امر ذلك الغريب الذي دخل هذا القصر وخرج منه ولم تتمكن من القبض عليه لان اهل هذا القصر ارشدوه الى طريق الفرار ... لا اقول ذلك طعناً باحد لاني اعتقد ذلك من عواقب الطيش عن جهل لا عن سوء نية . فسيدة الملك هذا حالها واخوها حيٌّ فاذا اصابه سوء لا سمح الله كيف يكون حالها .. » وتخنح وتوجه بكليته نحو قراقوش وهو يظهر الثقة فيه والاعتماد عليه وقال « ولا ينبغي لي ان اخفي عنك امراً اخفيته عن سائر الناس ولم يطلع عليه غير صديقي وصديقك الفقيه ضياء الدين الهكاري . اعني ان الامام العاضد بايعني بالخلافة بعده وخطبتُ اخته هذه وهي لا تعلم بعد . وانما يعلم ذلك المجلس الشريف ويعلمه ايضاً صديقي ضياء الدين والسلطان صلاح الدين وكان لي معه حديث طويل بهذا الشأن في هذا الصباح لا ادري اذا كان قد اطالعك عليه .. » وصبر ليري ما يبدو من قراقوش فاذا هو لا يزال مصغياً لا يبدي حراكاً

فعاد ابوالحسن الى اتمام حديثه فقال « واذا كان لم يطالعك عليه لا بد انه مطالعك قريباً .. وانما جئتك الآن استعينك في صيانة عرضي وعرض الامام شفاء الله ربه يستقر الامر في نصابه ويشرف عليه السلطان صلاح الدين حفظه الله .. هذا امر قد تم الاتفاق عليه بيني وبينه ... وانما اطلب اليك ان تحتفظ بهذا القصر وانت فاعل ذلك . لكنني اخاف ان يتمكن الاعداء من دخوله سرّاً فاري ان تأمر بنقل اخنوخ الخليفة منه الى قصر آخر ليس فيه سراديب ... واظن دار الضيافة افضل القصور لهذا الغرض » قال ذلك وهو يتفرس في عيني بهاء الدين وينتظر رأيه في ذلك

الفصل الخامس والثلاثون

الفرار

اما بهاء الدين فاطهر عدم الاهتمام وقال « لا اري باعثاً على هذا القلق يا ابا الحسن والخليفة لا يزال حياً »
قال « انما العاقل من فكر في الامر قبل وقوعه اما اذا وقع فلا فائدة من التفكير

اسمع .. اسمع .. اليس هذا صياح النساء في القصر؟. يظهر ان العاضد فارق الحياة .. مسكين « واخذ يفرك كفيه ويبيكي »

أما بهاء الدين فلما سمع الصياح وقف والاهتمام باد في محياه .. وأشار الى بعض الغلمان ان يمضي في مهمة . أوماً الى ابي الحسن ان يمكث هناك ريثما يعود وان لا يخرج قبل رجوعه . وتحول قراقوش الى مكان آخر في القصر وقد علا الضجيج فتحقق ما بو الحسن موت الخليفة فاصبح همه القبض على سيدة الملك . وأسف لذهاب قراقوش ولم يعلم سبب ذهابه . فتعد في تلك الغرفة وهو مطرق يفكر كانه على الجمر . فسمع قرقة اللجم وصهيل الخيل فاطل من النافذة فرأى فرساناً يسرعون نحو القصر كأنهم يحيطون به من كل ناحية فعجب لذلك . ثم شعر بيد تهز كتفه برعشة فالتفت فاذا بالغلام الذي كان قد اصطنعه وجعله جاسوساً على سيدة الملك في ذلك القصر واقفاً يرتعد والبغته ظاهرة في وجهه فصاح به « جوهر ! ما وراءك ؟ »

فقال « هلم يا سيدي .. انج بنفسك ؟ »

قال « الى اين ؟ . لا .. اني باق حتى ارى هذه اللعينة وأخذها .. ألم ترها ؟ »

قال « انج بنفسك يا سيدي .. انج .. ان الامر على غير ما تظن .. اخرج من هذه الغرفة قبل ان يتم النطاق حول القصر .. اخرج » قال ذلك وجهه بكمه واغتم اشتغال الناس بالصياح والارتباك وخرج به من الغرفة . ولم يصدق انه صار خارج القصر وهو يلهث من الخوف . فقال ابو الحسن وهو يطاوعه في المسير « الى اين انت ذاهب بي ؟ »

فاجابه وهو يشير اليه ان يتبعه « تعال يا سيدي .. وسأقص عليك الخبر انج بنفسك .. »

وما زالوا يمشيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتاً من بيوت العامة لا تقع عليه شبهة . وهو منزل لذلك الغلام كان يختبئ فيه عند الحاجة . فلما دخلا البيت أقفل الغلام الباب وقعد وقد امتقع لونه وابو الحسن يستغرب ذلك منه ولا يزال يعتقد ان الغلام مخطئ بتوهمه اعتماداً على ما دار بينه وبين الهكاري . فاما استقر بهما الجلوس قال ابو الحسن « قل الآن ما الذي حملك على هذا الفرار ؟ . »

قال « لو لم افر بك لكنت الآن في السجن »

فضحك ابو الحسن بتهمك وقال « في السجن ؟ هه هه ... هذا امر بعيد . ولا

الومك على هذا الخوف لانك لا تعلم ما دار بيني وبين القوم في هذا الصباح . . . »
 قال « علمت كل شيء وعلمت ان تدبيرك لم يفلح وان قراقوش اللعين لما كنت انت
 في انتظاره بالقصر كان هو عند صلاح الدين ذهب اليه بامر مستعجل فامرته ان يحيط
 قصور الخلفاء بالجند . وحالما يموت الخليفة يقبض على كل ما في القصور من النساء
 والاولاد والرجال والغلمان وكل شيء . . . »

سمع ابو الحسن هذا القول ولم يصدقه فقال « كيف عرفت ذلك ؟ ومن اطالعك
 على هذا السر يا جاهل . . . لا يبعد ان يكون صلاح الدين قد امر هذا الطواشي ان
 يحتفظ بالقصور وما فيها وهو انما امره بذلك لئلا يتعدى عايتها احد من دعاة الامامة
 سواي . ولا الومك على توهمك لانك لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بيني وبينهم مما ساطلعك
 عاينه في وقت آخر »

فقال « قات لك يا سيدي اني مطاع على كل شيء . . . وما انا جاهل كما تقول بل انا
 عاقل ساهر على مصلحة مولاي الشريف . . . وقد تحققت ان صلاح الدين امر طواشيه
 هذا ان يقبض على من في القصر وان يحث عنك بنوع خاص . . . واذا كنت لا تصدق
 ارجع الى القصر وانظر ماذا تكون النتيجة »

فلحق ابو الحسن وهو يرتعد من الغيظ واخذ يعث بلحيته وهو يراجع ما
 سمعه ويستغربه والغلام ساكت لا يبدي حراكاً . ثم التفت ابو الحسن اليه وقال
 « يا جوهر . . . هل انت واثق مما تقول ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة وان شئت ان تحقق قولي اخرج متنكراً وانظر الجند
 يحثون عن الشريف ابي الحسن كما يحثون عن سائر ابناء الخلفاء في قصر النساء . ولا
 اضمن انهم لا يكشفون امرنا ويقبضون عاينا ولو تنكرنا »

فاما تحقق ابو الحسن صدق غلامه وايقن بفشله حمي غضبه حتى اصبح صدره
 يرتفع وينخفض وهو يغلي كالرجل . ونسي موقفه مع غلامه فاخذ يزجر كالاسد ثم
 صار يرغي كالثعلب ويتظاهر بالتجلد والتفت الى الغلام وقال « مالنا ولهم دعنا منهم . . .
 لا اعلم السبب في نعمتهم علي ايضاً . . . اني بذلت الجهد في خدمتهم . . . من ياترى سيخلف
 العاضد على كرسي الامامة ؟ »

فقال الغلام « لا يظهر انهم سيولون احداً مكانه لانهم ينوون القبض على كل من
 بقي من اصحاب هذا النسب ولذلك خفت عايتك »

فعاد الى الاطراق واخذ في تدبير حيلة للانتقام لان فشله كان مزدوجاً - ذهب

آماله في الخلافة وابعده ما بينه وبين سيدة الملك . لكنه لم يشك انها ستنام عليه متى
اكرهها صلاح الدين على ان تكون له

اما سيدة الملك فتركناها مساء الامس بعد ذهاب عماد الدين من عندها وقد
ذهبت الى الفراش . ولكن النوم لم يزرها وتراكت عليها الهواجس . وبكرت في
الصباح للاستحمام عن اخيها فقيل لها انه مريض لكن الاطباء عنده ولا تقدر ان تراه .
فصبرت وهي تتوقع الاذن في رؤيته فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . فاذن لها وكان
احسن حالا مما نظن فاطمان خاطرها عليه وجعلت تخفف عنه وتطمئنه . وتذكرت
مقاومتها له في ذينك اليومين بشأن خطبتها وتعب ضميرها لئلا يكون لمرضه علاقة
بتلك المقاومة فندمت على ذلك

• وبعد قليل انبيء العاضد بمجيء الطبيب والجاليس فاشار الى سيدة الملك بالذهاب
وطمأنها انه في خير . فعادت الى غرفتها وهي في قلق على اخيها ولم يطمئن خاطرها
عليه . واتتها ياقوته وسألها فبكت واغرقت في البكاء رغم ارادتها فظنت ياقوته ان
الخليفة مات فصاحت صياح الندب فسمعتها سائر الجوارى فافتدين بها فعانت الضوضاء
وابو الحسن عند قراقوش فظنوا الخليفة مات كما تقدم وهو لم يمت

الفصل السادس والثلاثون

مقابلة هامة

وكان قراقوش قد استقدمه صلاح الدين في ضحى ذلك اليوم على اثر ما جاء به
الهكاري من ابي الحسن وانباء بما علموه عن داخلية القوم . واوصاه ان يكون على
حذر وان يجعل الجند قريبا من القصور فاذا علم بوفاة العاضد احاط القصور بالجند وبعث
اليه بنجر ذلك . ولا يأذن لاحد من اهلها بالخروج لاية علة كانت . ونبهه بنوع خاص
الى ابي الحسن والقبض عليه . فجاء قراقوش فرأى ابا الحسن عنده فاستبناه حتى يرى
ما يكون . فلما سمع الصياح داخل القصر وظن الخليفة مات خرج لتدريب الفرسان
وامر ابا الحسن بالبقاء ريثما يعود . فلما عاد لم يجده هناك فبعث في طلبه فلم يقف على
خبره فاسف لنجاته وبث العيون للقبض عليه واخذ يهتم بارسال الخبر الى صلاح
الدين بوفاة العاضد . ثم علم ان الخليفة لا يزال في قيد الحياة فسرّ لانه لم يتعجل في

ارسال خبر الوفاة لصلاح الدين لئلا يأتي ويجد الخبر نادبا فيوبخه . على انه ابقى
الجند حول القصر ليرى ما يكون . فلما دنت الشمس من المغيب جاءه احد الغلمان
يقول « ان مولانا السلطان قادم بموكبه »

نخف قراقوش للقائه . فراه تحول نحو قصر الذهب حيث يقيم الخليفة فاستغرب
ذلك ومكث في مكانه لا يدري سبب مجيء السلطان في تلك الساعة . واذا بصديقه
الهكاري يمشي نحوه فرحب به فسأله عن سبب قدوم السلطان فقال « لان العاضد
طلب أن يراه » (١)

فاستغرب قوله وصاح فيه « الخليفة طلب ان يرى مولانا السلطان ؟ »

قال « وما هو مكان الغرابة ؟ »

قال « انت ادري مني بمكانها . . وسنرى السبب بعد قليل »

فدخل قراقوش وادخل الهكاري معه وجاسا ودار بينهما الحديث عن مقاصد

صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك

اما سيدة الملك فعلمت بعد قليل ان بكاءها وبكاء حاضنتها اشاعا خبر وفاة الخليفة

فتشاءمت وسكتت . ولكنها انزوت في غرفتها لا تريد ان ترى احداً وقلبهما يشتعل

قلقا على حياة اخيها فضلاً عن متاعبها الاخرى . ولما غربت الشمس انقبضت نفسها

وهي في انواع من الشدة كل منها يقبض النفس ويبعث على القلق . لكن ساعة

الغروب زادت انقباضاً واصبحت شديدة الرغبة في رؤية اخيها . واذا بالحاضنة اتت

مسرعة وقالت « ان سيدي امير المؤمنين يطلب ان يراك »

فاجفلت لكنها فرحت واسرعت في الذهاب . والتفت بمطرفها وخمارها ومشيت في

الدهليز والحاضنة تسير بين يديها . فسمعت ضوضاءً ولغطاً من جوانب الدهليز والنوم

ضعيف لم يساعدها على تبين الوجوه . لكنها استأنست باصوات بعض اهلها فاستفهمت

الحاضنة عما سمعته فقالت « انك تسمعين اصوات ابناء اخيك واخوتك . . »

فاجفلت وتراجعت . فقالت لها يا قوته « ما بالك يا سيدتي »

فقالت « ما الذي جاء بهم الى هنا ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس على اخي »

قالت « انه بعث في استقدامهم كما بعث في استقدامك . . »

فمشيت وركبتها ترتعدان وقابها يخفق تطلعا لما عساه ان يكون من حال اخيها

لانه لا يبعث في طب اهل الاوهو في اشد حالات المرض . ولما علم اولاد العاضد بقدوم

وسعوا لها واقترب اكبرهم داود ولي العهد من عمته وقبل يدها فقبلته وهي تماسك

البكاء تشجيعاً له . وصلت الى باب الغرفة وركتها ترعدان واذناها مصغيتان لعلها تسمع كلاماً تطمئن له فسمعت صوتاً استغربت لانه لا تذكر انها سمعته قبلاً . فالتفت بالحنار ووسع لها الحرسى وازاح الستار عن الباب والغرفة قد اضيئت فيها الشموع فارسلت نظراً الى الداخل فرأت اخاها مستلقياً على السرير وعلى وجهه دلائل الضعف الشديد . لكنه لما وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات فترامت سيدة الملك عليه ولم تاتفت الى احد من الحضور وأخذت تقبله وتقول « لا بأس عليك يا اخي ويا سيدي . . . لا بأس عليك »

فقبلها هو ولم يجب لكنها احست بدموعه تتساقط على خدها فتجلدت ونهضت وهي تقول « لا بأس عليك يا سيدي انك في عافية الحمد لله » والتفت الى حولها فرأت الجايس الشريف جاثياً بجانب فراش الامام . ورجلاً قاعداً على وسادة لم تكذب تفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها وتذكرت انها رأت وجهه في بعض المواقف الرسمية من خلال النواقد وهو صلاح الدين . فوشكت ان ترتبك بامرها ويظهر الارتباك فيها فتجلدت ولم تشك ان صلاح الدين جاء ليخطبها

وكان سائر ابناء الخليفة قد دخلوا في اثرها الى الغرفة فإشار العاضد اليهم جميعاً ن يتقدموا فتقدموا فقبلهم واحداً واحداً وهو يبكي ومنظره يفتت الاكباد . ويبقى احد من الحضور الابكى حتى صلاح الدين . أما العاضد فإشار الى ابنائه بالجلوس اوماً الى سيدة الملك ان تقعد على فراشه بالقرب منه . فجلست وهي تحاذران يظهر جهها لصلاح الدين

« * * * »

الفصل السابع والثلاثون

الوصاية

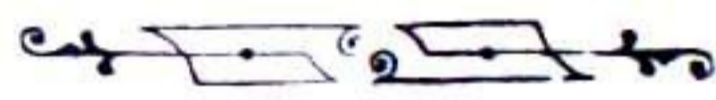
جلسوا والسكوت مستول على المكان مدة ثم تكلم العاضد ووجه خطابه الى سيدة الملك قائلاً بصوت ضعيف مضطرب متقطع « يا اختاه انت تعرفين منزلتك سيدي . . . انك اختي وصديقتي ومرشدتي . . . كم استشرتكم وكم عولت على رأيكم . . . الان وقد دنت الساعة وشعرت باقتراب الاجل والذهاب الى حيث التقي وجه ربي . . . حبيت ان اتوثق من حالك وحال ابنائي بعدي . . . (وتوقف عن الكلام ريثما

يستريح والجميع مطرقون ثم قال) وقد علمت بالاختبار... ان ليس حولي من رجالي أو اهلي من اثق به واعول عليه بشأنكم... وانت تعلمين ما كان في خاطري على السلطان يوسف صلاح الدين (واشار بيده نحوه) وقد طالما شكوت لك من معاملته.. اعترف بذلك وانا في آخر ساعة من ساعات الدنيا واول ساعة من ساعات الآخرة... اعترف اني شكوت من معاملته.. لكنني لا اجد الان من اثق بقوله واتحقق انه فاعل ما يقوله سواه. لاني محاط باقوام قوالين غير فعالين.. يتنافسون في تمني ويتسابقون الى ابتزاز اموالي او نيل المراتب بالحيل والدسائس... فبعثت الى السلطان وكلفته مشقة الحضور لاوصيه بكم خيراً» وأشار بانامله ان يمهله ريثما يستريح وسكت وهو يابث فاطرقوا وهم يمسكون انفاسهم ويكتمون ما يتردد في آماقهم من الدمع لا يلتفت احد هم الى الاخر تهيباً من منظر الخليفة وتطلعاً لما سيقوله. ثم عاد العاضد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلاً « هذه يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها... وهؤلاء ابناي وكبيرهم داود هذا... اني تارك امرهم اليك خوفاً من ان يصيبهم مكروه بعدي. واشهد عليك الله ان تأخذ بناصرهم.. فهل تعدي انك فاعل ما اقول؟ »

فاما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة في اثناء كلام اخيها اختلج قلبها خوفاً وبأساً لئلا تكون اذا مات اخوها رهينة أمر صلاح الدين ولا سيما بعد هذه التوصية. ثم سمعت صلاح الدين يجيب اخاها قائلاً « انت يا امير المؤمنين في خير وعافية باذن الله ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام بالتوصية... فانك مبل من هذا المرض قريباً ان شاء الله.. اما وقد ذكرت امر الوصاية فاعلم يا سيدي ان الخادم (يعني نفسه) قائم بما أوصيت به وليكن المولى اعزه الله على ثقة من هذا الوعد ان اهلك هؤلاء لا يصيبهم سوء ما دمت في قيد الحياة ولك علي عهد الله بذلك »

فلم تجد سيدة الملك ذكراً لها في هذا الجواب فايقنت انها واقعة في ماتتخوفه فعظم عليها الامر فضلاً عما هي فيه من القلق على حياة اخيها فاخذت بالبكاء رغم ارادتها. وارادت الخروج تخفيفاً عن اخيها فمد يده وقبض على يدها ليجلسها فاحست بارتعاش يده فاقشعر بدنهما وقعدت وهي تنظر اليه فرأته ينظر الى صلاح الدين وعيناه تلمعان والدمع يغشاهما. وكأنه اراد الكلام فامتنع عليه فاشار باصبعه الى اخته. ففهم صلاح الدين انه يوصيه بها فاجابه حلاً « كن مطمئناً على سيدة الملك انها اختك ونعم الاخت هي.. لكنها ايضاً اختي بعهد الله... وكفى »

فلما سمعت تصرّيحها انها اخته سرّري عنها ورغم ما هي فيه من اليأس والحزن
 اوشكت ان تبتمس لاعتقادها ان صلاح الدين لم يدعها اخته الا وقد عدل عن التزوج
 بها وهو غاية ما تريده . لاسيما وقد ضمن حمايتها فاصبحت في مأمن من تعدي ابي الحسن
 أو غيره . ولم يكده يطمئن خاطرها من هذا الوجه وقد شغلت عن الخطر الملم باخيها
 فاذا هو يسعل وينتفض في فراشه من شدة الرعشة . وهي نوبة عصبية توالت عليه في
 ذينك اليومين . فنهض الجليس واسرع يدعو الطيب الشيخ السيد من غرفة اخرى .
 فدخل الطيب و اشار الى الحضور ان ينصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه
 فنهضوا جميعاً . ومشى اولاً صلاح الدين مشية الاسد وسيدة الملك تراقبه واحست من
 تلك الساعة انها تحبه حب الاعجاب وهي من طبعها تعجب برجال المروءة والنجدة
 وهو ما بعثها على حب عماد الدين كما علمت . فاحست بارتياح الى صلاح الدين واطمئنان
 الى رؤيته . ثم اوما اليها الجليس ان تنصرف الى قصرها وكذلك سائر الحضور
 من اهلها



الفصل الثامن والثلاثون

ياقوتة

فانصرفوا وتزودت سيدة الملك بنظرة من اخيها وخرجت وقابها مطمئن وقد
 نسيت حزنها على حاله او شغلت عنه . وكانت حاضنها تنتظرها في الدهايز وتتوقع ان
 تراها باكية وخصوصاً لما علمت بوجود صلاح الدين هناك فاخذت تتأهب للتخفيف
 عنها . فاذا هي مشرقة الوجه رغم ما يجول في عينيها من الدمع ورغم ما ظهر في
 اجفانها من الذبول فقبضت على يدها ومشيت معها فعلمت من خطواتها وحركاتها انها
 فرحة . وما صدقت انها وصلت الى قصرها ودخات غرفتها حتى ابتدرتها قائلة « كيف
 سيدي امير المؤمنين ؟ ارجو ان يكون في صحة »

فقالت وهي تنزع الحمار عن رأسها « انه في غاية الضعف وقد دأهته الان نوبة
 شديدة اوجبت امر الطيب باخراجنا من عنده ليعالجه . . . وكان قلبها ضعيفاً
 يقطع الكلام تقطيعاً . . . »

فقالت « شفاه الله . . من كان عنده وانت هناك ؟ » قالت ذلك وهي تراقب ما

يظهر منها

حد الخ

قالت « كان هناك السلطان صلاح الدين الملك الشهم .. » وسكتت

فقالت ياقوته « لماذا سكت وكيف عرفت أنه شهم؟ يظهر أنك رفضته قبلاً لأنك

لم تكوني تعرفينه جيداً أما الآن عند المشاهدة فقد تبين لك أنه يستحق حبك » وظهرت

المداعبة ثم قالت « لكنني لم اعلم سبب حضوره عند امير المؤمنين في هذا اليوم العله جاء

لاتمام طلبه وعقد الخطبة؟ » قالت ذلك وهي تساعد في نزع المطرف عن كتفها

قالت سيدة الملك وهي تنظر في المرأة لتتحقق حال وجهها « ان اخي بعث اليه »

قالت « امير المؤمنين بعث اليه؟ ولماذا؟ . »

فتذكرت الخطر على حياة اخيها فانقبضت نفسها وقالت « بعث اليه ليوصيه

بنا خيراً .. »

فبغتت ياقوته من هذه المفاجأة وقالت « يوصيه بكم خيراً! من تعنين؟ »

قالت « اعني انا وابناء اخي واخوتي .. لان اخي شفاه الله ايمن انه لا ينقه من

هذا المرض واعترف انه لا يجد من رجاله من يثق به ليوصيه بنا غير صلاح الدين ..

فبعث اليه والينا واوصاه بنا .. »

فعدت ياقوته الى المداعبة لتشغل سيدها عن الحزن وقالت « طبعاً ان صلاح

الدين وافق امير المؤمنين على طلبه لانه مطالب بهذه الخدمة بواجب المصاهرة »

وابتسمت وعيناها تراعيان عيني سيدة الملك لترى ما تدلان عليه

فابتسمت سيدة الملك والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « بل هو قال انه يفعل ذلك

بحكم الاخوة وليس المصاهرة »

فاستغربت هذا التعبير وقالت « بحكم الاخوة؟ وأي اخوة يا سيدتي »

قالت « لما اوصاه اخي بي فلكي يؤكد له العمل بوصيته قال له « كن مطمئناً على

سيرة الملك انها اختك وهي ايضاً اختي بعهد الله وكفى »

فلم تهالك ياقوته عند ذلك من ضم سيدة الملك الى صدرها واخذت تقبلها وتقول

« ان مصيبتنا بمرض سيدي امير المؤمنين كبيرة واذا اصابه سوء لا سمح الله فان

المصيبة تكون اعظم كثيراً . ولكن في ظلمات هذه المصائب المدهمة نوراً قد اثار قاي

واخرجني من ديجور اليأس لان اكبرهم كان علي من جهتك انما هو طاب صلاح الدين

خطبتك وانت لا تريدينه لانك عالقة القلب بعهد الدين - وانا اعلم سلطة صلاح الدين

وانه اذا اراد امراً لا يقدر احد على رده . وقد قلت الآن انه تخلى عن الخطبة وتعه

بحمايتك كالك اخته .. فاطمئي ياسيدي ولا يهملك سعي الساعين او وشاية الواشين ..

فعلت سيدة الملك انها تعني ابا الحسن فاجابتها بعينها وكل جوارحها موافقة علي قولها لكنها انتبهت فجأة الى حال لمخبرها فعادت الى الانقباض ولطمت كفيها وقالت « ويلاه .. ان اخي في حال اليأس من الحياة .. ماذا اعمل .. كيف يصير امرنا اذا مات .. » وغصت بريقها وعادت الى البكاء واخذت ياقوتة تخنّف عنها

، قضت معظم ذلك الليل بالقلق ولم تفق الا صباحاً على اصوات النعاة . ولم يقع خبر موت اخيها وقعاً غريباً عندها لكن وقعه كان شديداً . ولم يمض يسير حتى تعالي الصياح في القصور واجتمع الوزراء ورجال الدولة والكتاب وغيرهم وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس . واراد اهل الخليفة اقامة مأتم يليق بالخلفاء وهم رجال الدولة ان يبائعوا لداود ولي العهد . واذا بالقصور قد احاط بها رجال صلاح الدين . ثم جاء بهاء الدين قواقوش الى المجلس الشريف وقال له « ان السلطان يتقدم اليكم ان تجعلوا المأتم مختصراً خوفاً من وقوع القلاقل ومن مات فقد مات ولا يجدي الصياح والعويل نفعاً » فلم يسع القوم الا الاصغاء والرضوخ وخصوصاً بعد ما شاهدوه من استقدام الخليفة لصلاح الدين بالامس وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما . وانما دهم استقدامه على رفيع منزلته عنده . ومهما يكن من الامر فالقوة غالبية وجند صلاح الدين قابض على المدينة بيد من حديد . فاذعن القوم الى امره



الفصل التاسع والثلاثون

قراقوش

اما سيدة الملك فبلغها التشديد بمنع اهل ذلك القصر من الخروج ورأت الجند محققاً به من كل ناحية فاكتفت بالبكاء وهي في غرفتها فهذبت اخاها وبكته والحاضنة بين يديها تبكي معها

وهما في ذلك سمعتا دبدبة في باب القصر نخفت سيدة الملك فهضت ياقوتة وهي تقول « لا تخافي يا سيدي بعد ان سماك صلاح الدين احته » ولم تصل الى باب الغرفة حتى سمعت قارعاً يقرعه بلطف فسري عنها وفتحته فرأت قراقوش واقفاً باحترام وهو يقول « هل مولانا سيدة الملك هنا ؟ »

قالت « نعم ماذا تريد منها ؟ انها في اشد حالات الحزن »

قال « اريد ان اعزيها واطمئنتها واطاب اليها ان لا تهتم بما قد تراه من دخول بعض الناس الى هذا القصر او خروجهم منه . واحب ان اسألها مسألة »
فصاحت سيدة الملك من الداخل « تفضل يا استاذ ماذا تريد ؟ »
فدخل قراقوش وهو ينظر اليها نظر الاستعطف فالتفتت اليه وقالت « ما وراءك الآن ؟ ماذا تريد .. ها ان امير المؤمنين قد مات .. فليسكن روعك وروع اصحابك .. »
وغصت بريقها

فجئنا قراقوش بين يديها قائلاً « ان موت امير المؤمنين قد ساءني يا سيدتي لكنه جرى بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما جئت الآن لاخبرك ان مولاي السلطان امرني ان اقبض على ما في هذه القصور من الاموال وخصوصاً ما في هذا القصر من النساء وهن كثيرات كما تعلمين . وانما استثنى منهن سيدتي اخت امير المؤمنين ومن شاءت ان يصحبها من اهل هذا القصر من غير اهلها و .. »
فقطعت كلامه قائلة « وماذا تعملون باهلي .. اين هم ؟ »

قال « لا بأس عليهم .. لان المولى الراحل رحمه الله قد اوصى السلطان بهم خيراً وهو عازم على نقلهم من هذا القصر الى قصر آخر يكونون فيه تحت رعايته لا بأس عليهم . وخصوصاً مولاتي سيدة الملك فمن تريدن ان يخرج معك من الاتباع او الخدم او ان تحمايه من الاثاث والآنية او غير ذلك ؟ »

فاطرقت وقد كبر عليها الخروج من ذلك القصر . ومع اطمئنانها بما ستناله من الرعاية عند صلاح الدين لم تتمالك عن النفور من هذا الامر وقالت « تخرجوننا من قصورنا .. وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال والاطفال فانهم يعدون بالآلاف »
قال « يا سيدتي ان مولاي صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة احد . فمن كانت من الجوارى ذات بعل اطلتها مع بعلها ومن كانت حرّة ولا بعل لها اطلق سراحها واما الجوارى غير الحرائر فيهبهن لبعض رجاله . اما اهل الخليفة فانهم سيقيمون نساء ورجالاً في غاية الاكرام والحفاوة تحت عنايته ويفرق فيهم الاعطية والالبسة والاقواب بحيث لا ينقصهم شيء . كانهم في قصورهم في حياة الخليفة رحمه الله . ولا سيما سيدتي فانها ستناك كل رعاية هي ومن معها .. »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تفعلون بولي العهد داود أم يبايعوه . ؟ »

فبلع ريقه وقال « لا اظنهم يبايعون احداً فان السلطان نور الدين مولانا الاكبر قد امر ان نبايع للمستضيء بالله العباسي .. ولا يكون على الارض خليفتان . على اني

أرى الخلافة إلا تبعاً لصاحبها وخطراً عليه ولا فائدة منها .. استمبح سيدتي عذراً في .
 اختصار الحديث لاني مضطر للاشتغال بتنفيذ اوامر مولاي السلطان بالقبض على ما
 في هذه القصور كما قلت لك . فاخبريني ما الذي تريد ان احتفظ به لك .. « قال
 ذلك ونهض واطهر انه يريد الخروج فقالت « اريد ان تصحبني هذه الحاضنة وهي
 تخبرك بما اريد ان اخذه من الاثاث او الثياب .. » وحوّلت وجهها عنه
 فآتمت ياقوتة كلامها قائلة « دعوا هذه الغرفة والتي الى جانبها لا يمسهما احد وانا
 اهي فيهما ما يجب نقله .. بارك الله فيك يا استاذ .. »

فتحول قراقوش وخرج فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك قالت لها « الحمد لله ان
 صلاح الدين قائم بوعدده .. رأيتك تدققين في السؤال وتستغرين عدم المبايعه لسيدي
 داود .. احدي الله انهم لم يستخدموا السيف في فناء من بقي من اهل الخلافة كما فعل
 غيرهم في مثل هذه الحال . ألم يأمر ابو العباس السفاح بقتل كل من بقي من بني أمية
 حتى لا يبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ فلو امر صلاح الدين مثل هذا الامر من
 قدر على رده .. أم تظنين ذلك المغرور ابا الحسن يرده .. لعنة الله عليه »

فلما سمعت ذكر ابي الحسن أحست براحة لانها نجت من حبائله في ظل صلاح
 الدين ونشطت للخروج فقالت « اعدي ما نحتاج اليه من ائمن المتاع واخفه .. »
 الت ذلك وتنهدت . فاخذت ياقوتة تهتم بذلك . وكان يومهم هذا من اعظم ايام الشدة
 لانهم في يوم الانتقال من دولة الى دولة



الفصل الرابعون

آخر الدولة

أما قراقوش فانه قبض على ما في تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح
 ووجدا اكثرهن من الحرائر فاطلقهن . وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن في رجاله واخلى
 لك القصور من الناس . واخذ كل ما صلح له ولاهله وامرائه والخواص من مماليكه
 اوليائه من الذخائر وغيزها . واخذوا من الجواهر والمصوغات ما لا يحصره وصف .
 كتفي بنقل عبارة مؤرخ الدولتين في تعداد ما استولوا عليه منها قال « واخلى دوره

(دور العاضد) واغلاق قصوره وسلط جزى ^{على} الموجود وابطل الوزن والعد عن
الموزون والمعدود واخذ كل ما صالح له ولا هله وإمرائه ولخواص ممالئكه وأوليائه من
اخائر الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد
والدرة اليتيمة والياقوتة العالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبرية
والاواني النضية والصواني الصينية والمنسوجات المغربية والممزوجات الذهبية والمحركات
النضارية والكرايم واليتائم والعقود والتائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود
والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشي والعبير والحبير والوثير والنشير
والعيني واللجيني والبسط والفرش ومالا يعد احصاء ولا يحد استقصاء فوقع فيها الفناء
وكشف عنها الغطاء واسرف فيها العطاء واطلق البيع بعد ذلك في كل حدث وعتيق
وليس وسحيق وبال واسمال ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ
ومعمول واستمر البيع فيها عشر سنين وتنقلت البلاد بايدي المسافرين الواردين
والصادرين « اه (١)



صلاح الدين الايوبي

اما اهل الخليفة فنقلهم صلاح الدين الى دار برجوان في الحارة المنسوبة اليه
واختص سيده الملك بالاكرام والحفاوة

(٦) كتاب الروضتين ١٩٤ ج ١

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستسدي على منابرها لخليفةها الشيعي العاضد لدين الله . فامر صلاح الدين ان تتحول الخطبة للمستضيء بالله الخليفة العباسي كما كان نور الدين قد طلب منه على يد ابيه نجم الدين . وكان قد اعتذر له في التأجيل خوف الفتنة والواقع انه اجلها ليستعين بذلك على نور الدين اذا اراد ان يأخذ مصر منه بالقوة . فبأخذ هو جانب العاضد ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر الشام . فلما تأكد ضعف العاضد وتحقق اشتغال نور الدين عن مناهضته عزم على اقامة الخطبة العباسية مظهراً بها الطاعة لنور الدين . فلم يجسر احد من العلماء ان يبدأ بذلك الا رجلاً اعجمياً اسمه الامير العالم تصدى للخطبة . فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر ودعا للمستضيء العباسي فوافقته الناس ولم يظهروا معارضة فكتب بذلك الى سائر بلاد مصر . وكان هذا في اثناء اشتداد المرض على العاضد وتوفي ولم يعلم به . فاصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ ومنعوا ابناء العاضد وسائر الرجال من اهله عن الزواج حتى لا يعقبوا نسلاً يطالب بالخلافة .



الفصل الحادي والاربعون

الهواجس

اما سيدة الملك فلما رأت نفسها في قصرها الجديد في دار برجوان اكبرت ذلك الانتقال . ولما بلغها تحوّل الدعوة للعباسيين تحققت ذهاب دولة العلويين فشق ذلك عليها كثيراً فضلاً عن وفاة اخيها . قضت اياماً وهي منزوية في غرفة من قصرها لا تكلم احداً الا ياقوتة تتردد اليها لتخفف عنها ومهما يكن من مشاغلها المتقدمة ذكرها فان امرها مع عماد الدين كان غالباً عليها . وقد فارقت في تلك الليلة المهولة وهي بين الشك واليقين من امره . وكانت وهي في ابان احزانها تود ان تفتحها ياقوتة بمحدثه لعلمها تسمع ما يقوي املها بلقاءه وياقوتة لاتفعل ليس عن تهيب ولكنها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبت وتود ان تنسأه وتتحوّل عنه . فلا ترى من الحكمة ان تفتحها بذكره او ان تجعل ذكره من اسباب اطمئنانها وراحتها على انها كانت قد استأذنت صلاح الدين في الخروج للتنزه في البساتين . ولم يكن

يؤذن بذلك لسواها من اهل الخليفة. ولكن صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك والاحترام لارادتها قياماً بعهد لآخيها. وكان ذلك من اكبر اسباب تعزيتها على مصائبها. على انه شغل عنها مدة بالحروب في الشام وتوفي في اثناء ذلك ابوه (سنة ۵۶۸ هـ) وحدثت امور اخرى شغاته عنها لكنه كان يوصي بهاء الدين قراقوش بها مضت مدة لم تسمع فيها شيئاً عن عماد الدين ولاهي تعرف مقره ولا مصيره ولا ترى باباً للسؤال او البحث فضاقت صدرها واستولى عليها القنوط وتغلبت عليها السويداء واصبحت لا تفرح بنزهة ولا تراح الى حديث. وقل طعامها وتكاثر ارقها فاخذت في الهزال وياقوتة تبذل جهودها في تساتها وكما رأت ضعفها وانقباضها تحيرت في امرها. وكانت تظن طول غياب عماد الدين ينسيها اياه ولما لم تعد تسمعها تذكر ظننها نسيته لكنها ما لبثت ان ادركت خطأها ذات ليلة وهي نائمة في غرفة مستطرقاً الى غرفتها اذ افاقت على صوت سيدة الملك وهي تناديها « يا قوتة يا قوتة ! »

فوثبت من فراشها الى فراش سيدتها فرأتها قد قعدت على السرير وشعره منبوش وتغيرت سحنها فترامت عليها وصاحت « مولاتي حبيبتي ماذا تريدن ؟ » فقالت « عماد الدين . . عماد الدين ! اين هو ؟ . سمعتم ينادونه » فقالت « اين هو يا سيدتي ؟ . انه ليس هنا . . انك ترين حاملاً . . ألا تعلمين انه مسافر ؟ »

فازاحت شعرها عن جبينها وتفرست في ما حولها وعيناها تدلان على اضطراب وارتيابها وقالت « انه مسافر ! آه ما اطول هذا السفر . . اني سمعت اسمه في الحلم ياليتني ظلمت نائمة لعلي اسمع ذكره مرة ثانية او ربما تراءى لي طيفه . . » قالت ذلك واغرقت في البكاء

فاكبت ياقوتة عليها واخذت تخفف عنها وتقول « لماذا تفعلين ذلك يا سيدتي ماذا اصابك ؟ اين تعقلك وحكمتك ؟ »

فاجتذبت نفسها من بين ذراعيها وهي تقول « لا تذكرني التعقل والحكمة لا محل لها مع الحب يا ياقوتة . . يا لله ماذا جرى لي . . وبلاه لم اعد اخشى التصرف بما في قلبي . . لكنني حبسته زماناً حتى كان يقتلني . . تدبري الامر واسعفيني . يا عماد الدين . . » وعادت الى البكاء

فجثت ياقوتة بين يديها وقالت « هوني عليك يا مولاتي واتكلي علي . لماذا تفاتحيني بهذا الامر من قبل ؟ »

قالت « وما الفائدة من الكلام ؟ . ما نسيت قد كلمتك اخبريني اين عماد الدين
 ما العمل للوصول اليه .. ألم تعلمي مقره الم تسألني احداً عنه ؟ قولي »
 قالت وهي تمسح دموع سيدتها بمنديلها « نعم سألت عنه وقد علمت من الاستاذ
 بهاء الدين قراقوش انه سار بمهمة سرية اذا نجح فيها صار رجلاً عظيماً يليق بسيدة
 الملك . وهذا امر ذو بال يا سيدتي . لان بنت الخليفة واخت الخليفة لا يليق بها
 ان تزوج بواحد من عامة الناس وو . . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا تقولي خائنة ولا عامة .. اني اسيرة في هذا القصر وهو
 طابق .. وقابي اسيرته ايضاً ولا ادري اذا كان قلبه كذلك .. » وشرقت بدموعها
 فاخذت ياقوتة تضمها وتمسح دموعها وتقبلها وتقول « خفني عنك يا سيدتي ..
 وارجمي الى رشدك .. واصبري .. لنرى ماذا نعمل »

قالت « ماذا نعمل قد طال غيابه ولا ادري ما اصابه .. »
 قالت « لم يصبه شيء ولا بد من عودته ظافراً ويصير من كبار الرجال . واذا علم
 صلاح الدين بملك اليه زاده رفعة وتقدماً .. يظهر انك نسيت هذه النعمة .. نسيت
 لتفات صلاح الدين اليك ومعاملته اياك معاملة الاخ لاخته .. ؟ »
 قالت « كلام انس ذلك ولولاه لقضيت حزناً وكآبة .. ولكن ما الذي اسمعني
 اسم عماد الدين في هذه الليلة ؟ »

قالت « لعل ذلك فاتحة القرب تمهلي الى الغد لنرى ما يكون .. » وأشارت اليها
 ان تعود الى الرقاد فاطاعتها ونامت وانصرفت ياقوتة الى غرفتها وهي تفكر في سيدتها
 وقد ندمت لسكوته عن ذكر عماد الدين كل هذه المدة على انها اعتقدت ان سيدتها لم
 تسمع اسم عماد الدين عبثاً وانه لا بد من شيء يحدث بشأنه
 وقد تحقق ظنها في صباح اليوم التالي اذ جاءها قراقوش يقول « ان السلطان
 صلاح الدين قادم بعد قليل لمقابلة سيدة الملك .. »

فبغتت لكنها توسمت بتلك المقابلة خيراً — وصاحب اليأس يتوسم من كل جديد
 فرجاً فقالت « هل يطلب مولانا السلطان ان يقابل سيدتي ويخاطبها ؟ انه يفعل حسناً
 لانها منقبضة النفس وهي تستانس برؤيته .. انا ذاهبة لاخبرها بقدمه » ومضت اليها

الفصل الثاني والإربعون

المكيدة

وكانت سيدة الملك قد نهضت من الفراش وهمت ان تستدعي ياقوتة فلما دخلت
عاليها قرأت البشر في محياها فخفق قلبها وقالت « ما وراءك ؟ »

فقالت وهي تبتمس « لعل الفرج قريب .. ان السلطان صلاح الدين آت لمشاهدتك »

قالت « هو طاب ذلك مما تلقاه نفسه ؟ » وتوردت وجنتها من البغته

قالت « نعم يا سيدتي فلعل عنده خبراً يسرك .. قومي والبسي ثيابك »

فنهضت وساعدتها ياقوتة في اللبس فارتدت ثوباً بسيطاً واصلحت شعرها وتخمرت

وخرجت الى قاعة الاستقبال وركبتها ترتعشان من التأثر

وبعد قليل سمعت وقع خطوات في الدار واذا بهاء الدين قراقوش قد دخل وهو

يقول « ان مولانا السلطان قادم .. »

فهيأت سيدة الملك لملاقاته . ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف في القاء التحية

فهمت النهوض له ف اشار اليها ان تقعد وهو يبتسم وقال « اجلسي يا اختي ... »

قد ابطأت في زيارتك هذه المرة لغيابي عن مصر .. كيف انت ؟ ارجو ان تكوني

في خير »

فاما سمعته يناديها بالاخوة انبسطت نفسها وقالت « طالما كنت مشمولة برضى

السلطان صلاح الدين فانا في خير الحمد لله ... »

قعد صلاح الدين على وسادة بين يديها وهو يشير الى قراقوش ان يقعد . وظلت

ياقوتة واقفة . فقال صلاح الدين مخاطب سيدة الملك « ارجو ان تكوني حائزة على

اسباب الراحة في هذا القصر »

قالت « نعم اني من نعم السلطان لا ينقصني شيء من اسباب الراحة لان الاستاذ

ههنا الدين لا يندخر وسعاً في هذا السبيل ... ويكفيني من اسباب السعادة ان يدعيني

السلطان صلاح الدين اخته »

قال « فاذا كنت راضية عن هذه الاخوة لم يبق باعث لوضع هذا النقاب على

محيالك .. » وضحك

فازاحت النقاب عن وجهها وقالت « نعم صدقت » واطرقت حياءً

فراى صلاح الدين البضع في راسه فقال « اراك منحرفة المزاج يا سيده الملك هل تشكين من شيء ؟ »

فسكتت وظلت مطرقة فالتفت الى ياقوته فعلمت انه يستفهمها عن سبب ذلك النحول فقالت « انها لا تشكو الماء لكنها منحرفة المزاج قليلاً .. »

قال « لا بأس عليك يا اخية .. وارجو ان لا اكون قد ثققت بهذه الزيارة .. وانما حملني عليها الاطمئنان عنك .. ولكي اسألك عن امر لا احب ان يطلع عليه سواك واظنك اعلم الناس به »

فتطاعت الى معرفة ما يريد وقال « اني رهينة ما تريد يا سيدي » وشخصت في وجهه لترى ما يريد

فالتفت يمينا وشمالاً كأنه يتحقق خلوا المكان من الغرباء وقال « انت تعلمين ان اخاك رحمه الله اوصاني بك وبسائر اهلك خيراً واظني فمت بواجب الوصية .. » ف اشارت بعينها ورأسها ان « نعم »

فقال « واظني لم اقصر ايضاً في توخي كل وسيلة لاسعاد حال هذه البلاد من كل وجه .. فرفعت كثيراً من المظالم التي كانت في عهد الدولة الماضية وقد اتاها الذين كانوا محيطين بالمرحوم اخيك . وكنت اظن هذا كافياً لاجماع اولئك القوم على الطاعة .. » وسكت

فقالت « اظنهم مجمعين .. لان مولانا السلطان لم يذخر وسعاً في تخفيف الضرائب واجراء العدل »

قال « وكان في امكان ما تحولت هذه الدولة الى يدي ان اقتل كل من كان من الامراء والوزراء على رأي الدولة الماضية لكنني لم افعل ذلك رغبة في ان يعرفوا لنا هذا الفضل .. »

فاستغربت قوله وتوسمت من ورائه شيئاً جديداً و اشارت بعينها كأنها تستفهم عما حدث فقال « ولكنني علمت ان هؤلاء الامراء والاعيان يتآمرون علينا .. » فرفعت بصرها وقالت « يتآمرون على السلطان ؟ »

قال « نعم .. ولو تأمروا فيما بينهم فقط هان شرهم لكنهم يستعينون علينا بالاعداء .. انهم يخبرون اعداءنا الافرنج من ساحل الشام وصقلية يحرصونهم على مناواتنا ليتاح لهم القيام علينا او تخرج هذه البلاد من ايدينا » قال ذلك وقد بان الغضب في غنة صوته « (١) »

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ١١

فأجفت وقالت « يتواطؤون مع الأخرج على ساطانهم ! يا لها من خيانة .. »
 واطرقت لحظة ثم قالت « هل توثق سيدي من هذا الخبر ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة مما اقول . لان خبرهم جاءني من رجل اثق به وثوقي
 بنفسي .. قبحهم الله .. اذا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى
 العباسية شرّاً وكلاهما اسلاميتان فكيف بانتقالها الى الاخرج وهم اعداؤنا الالاء
 مذهباً ووطناً . فبدلاً من ان نتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا
 ونحرضهم على فتح بلادنا ؟ . هل رأيت اضعف رأياً من هؤلاء .. ألا يحل قتل
 الساعين في ذلك ؟ » قال هذا وقد ارتفع صوته وابرقت عيناه رغم ما حاوله من
 تلطيف غضبه بين يدي سيدة الملك وقد عبث بعثنونه بحكة

اما هي فانها شاركتة في الغضب واحست بنوع من الخجل لان الذين قاموا بتلك
 المؤامرة من رجال اخيها فقالت « نعم .. انها خيانة عظيمة .. ولكنني استغرب
 وقوع مثل هذا العمل من قوم عقلاء .. فربما كان الساعون فيه من بعض
 العامة الجهلاء »

قال « انهم من اكبر الامراء والاعيان وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيديين
 اقربائكم . ولم نوفق الى القبض عليه مع من كان في القصر منكم . وحسبنا ان اكتفى
 بالنجاة من القتل واختفى لكنه الآن من اكبر المحرضين على هذه الخيانة .. اظنك
 عرفته .. ولولا دخوله في هذا الامر لم اتعبك في شرح هذه الواقعة . وانما اردت
 الاستعانة بك في استطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئاً لانه كان اقرب المقربين
 لاختيك رحمه الله .. حتى انه كان طامعاً بولاية العهد بعده .. اظنك عرفته .. »

فعامت سيدة الملك انه يعني ابا الحسن فامتقع لونها غضباً وقالت « عرفته نعم ..
 اظنك تعني ذلك الشريف الكاذب .. انه يدعي النسب فينا وليس هو منا ... الا
 تعني ابا الحسن ؟ »

قال « اياه اعني .. انه من اكبر المنافقين الخائنين لانه جاءنا والمرحوم العاضد على
 على فراش الموت وتوسل الينا في نقل ولاية العهد اليه على ان يكون عوناً لنا في كل
 شيء فلم نوافقته . فانقلب الى دس الدسائس ونصب الحبائل فاطاعه جماعة من المارقين
 وسينال كل منهم جزاءه .. وانما التمس منك ان ترشدينا عما تعلمينه من مكان ابي
 الحسن » قال ذلك وهو يتلطف في السؤال بخفض صوته
 فظلمت ساكته وقد تمنيت ان يكون ما يقوله صلاح الدين صحيحاً ليقع ابوالحسن في

شر أعماله وتتخلص منه وأحبت ان تتحقق كحجة تلك الدعوة فقالت « نعم اعرف نقص
هذا الرجل وسوء خلقه ومطامعه وسأبحث عن مكانه .. ولكنني ارجوان يكون سيدي
على ثقة من الخبر واذا شاء ان يزيدني بياناً فانه يعينني على البحث »

قال « ان هذا الخبر تلقيته من عدة مصادر فشككت فيه حتى اتاني بشأنه كتاب
من رجل لا اشك في صدقه كتب الكتاب بخطه وقد وصاني في فجر الامس سرّاً مع
وفد ارساله الافرنج الموالون لاولئك الخائنين بحجة انهم يحملون اليّ هدية من بعض
ملوكهم وهم انما يحتالون في مقابلة تلك العصابة ليقموا المكيدة ... وهذا هو الكتاب
اذا طالعه اغناني عن زيادة الايضاح » قال ذلك ومدّ يده الى جيبه واستخرج لفافة
دفعها الى قراقوش ليقرأها



الفصل الثالث والاربعون

نص الكتاب

ففتحها بهاء الدين واخذ يقرأ « اكتب هذا الكتاب الى مولاي السلطان وانا
في اعماق السجن في بيت المقدس . لا يسعني الوقت لتفصيل سبب سجنني فان الكلام
فيه يطول وانما اسرعت الى كتابته لانقل الى مولاي خبراً هاماً عرفتته عن ثقة واخاف
اذا تأخر وصوله ان ينتهي بما اكره وقوعه — عامت بعد خروجي من مصر بموت
العاقد وانتقال الدولة الى مولاي السلطان وسمعت وانا في هذا السجن ان بعض
رجال تلك الدولة يجتمعون سرّاً في الفسطاط يتآمرون على اخراج هذا الامر من
حوزته . وقد خابروا الافرنج في هذه الديار على ان يهاجموا مصر بجند كثيف يجمعونه
من هنا ومن صقلية وان اهل مصر يكونون معهم على جندكم . وان اولئك المؤتمرين
يرأسهم رجل من العلويين اسمه ابو الحسن وهو الذي اغرى الناقين على هذه الدولة
فوافقوه واستنجدوا الافرنج . وقد وافقهم الافرنج واخذوا يتأهبون لهذه الحملة لكنهم
هياوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج
لكنهم بالحقيقة يريدون الاجتماع بتلك العصابة واتمام المؤامرة . وقد وفقني الله بواسطة
صديق لي هنا ان اطلع على ذلك وان ارسل هذه الرسالة مع حامل هذا الكتاب وهو
بحسب الظاهر من جملة خدم الوفد او هو دلياهم في الطريق فدفعت اليه هذا الكتاب

فاذا وصل اليكم ادفعوا الى حاملة مئة درهما وكرموه — اما انا فلا ازال هنا وسابقى حتى يتاح لي الخروج للقيام بالمهمة التي وقفت «حياتي للقيام بها في خدمة مولاي السلطان — وانا ظافر بها باذن الله فاما ان اعود اليكم فائزاً منصوراً او اموت في هذا السبيل فداء لمولاي لان حياتي وحياة كل رجاله مبدولة في خدمته . . »

وكانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها في اثناء ذلك ان الكتاب يتعلق بعماد الدين . فلما سمعت قوله في الفقرة الاخيرة يذكر المهمة التي انتدب لها خفق قلبها وتبادر الى ذهنها ان يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه وخصوصاً لانه يقول برح مصر قبل وفاة اخيها . . فبدت البغته في وجهها وتسارعت دقات قلبها ولم تمالك عند الفراغ من تلاوة الكتاب ان قالت « هل يامر السلطان ان اعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟ »

قال « ينبغي لنا حفظ اسمه لكنني نظراً لما بدا لي من غيرتك وصدق لهجتك لا ارى مانعاً من ذكره انه شاب جمع بين المرواة والحماسة وصدق المودة . . كنا قد انفذناه لامر هام لا يجسر عليه سواه لا اظنك تعرفينه » ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على نظر بهاء الدين قراقوش فقراً في وجهه شيئاً يستدعي التوقف عن التصريح لكنه لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد ان وعد بالتصريح ونظر الى سيدة الملك فرآها متطاوله بعنقها وعيناها شاخصتان في شفثيه تكاد تحتلب الكلام من فيه احتلاباً فقال « ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين »

لم يكذب يلفظ باسمه حتى صاحت سيدة الملك « عماد الدين آه عماد الدين » واغمي عليها . فدهش السلطان ونهض واسرعت ياقوتة الى الماء اخذت ترش سيدتها به وتفرك يديها واقترب بهاء الدين من صلاح الدين فاصغى اليه فقال له « كنت اشرت الى مولاي ان لا يذكر هذا الاسم . . »

فقال « وما الذي يعنيه من امره ؟ هل تعرف شيئاً عن ذلك » فقال همساً في اذنه « عرفت شيئاً منه قبل سفره لكن ضياء الدين الهكاري منعني من ابرازه لمولاي مخافة ان يفسد سعيه يومئذ في خطبة هذه السيدة » وضحك فقال صلاح الدين « وما هي علاقتها به ؟ يظهر انها تحبه . . »

فأوماً اليه ان يتبعه الى غرفة اخرى ريثما تفرغ ياقوتة من معالجة سيدتها فتبعها فلما خلا به قص عليه ما كان من امر عماد الدين ليلة مجيئه الى القصر في السرداب وكيف وشى به ابو الحسن ولم يتمكنوا من القبض عليه الى آخر الحديث

فوقف صلاح الدين يفكر في ما اتفق وسرعه في تلك الجلسة وقد سرَّ لاطلاعه على ذلك السر لأنه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة الملك . وشكر الله لأنه لم يوفق الى خطبتها لنفسه فقال لبهاء الدين « لقد سرني اطلاعي على ذلك فيجب علينا ان نسعى في جمع شمل هذين المحبين . . والحمد لله ان سعي الهكاري لم يتكلل بالنجاح » فقال قراقوش « ويمكننا ان نتخذ سعيينا في مصاحبتها وسيلة لسعي هذه السيدة في المساعدة على كشف تلك المؤامرة لانها من اقدر الناس على ذلك . فاذا اخلصت الخدمة في هذا السبيل ساعدناها على مرامها . . »

فضحك صلاح الدين وقال « لله درك يا بهاء الدين . . انك لا تنظر في خير لاحد ان لم يعد جانب منه عليك . . احسنت »

قال « انما يهمني القيام بخدمة مولاي اعزه الله »

ثم تحول صلاح الدين نحو باب القاعة وسأل عن سيدة الملك فقيل له انها افاقت فدخل فراها جالسة على وسادة وقد اطرقت خجلاً وبان التعب في محياها وذبات عينها . فتقدم نحوها وقال « قد علمت امرك وسرني ما علمته من علاقة حبيينا عماد الدين بك . واعلمي اني باذل اقصى الجهد في تقصير مدة غيابه . . ولا يكون الا ما تريد وقد اوصيت صديقي بهاء الدين ان ينظر في ما كنا فيه . . استودعك الله »

فوقفت لوداعه والخجل غالب عليها ولم تجب باسانها لكن عينها ادتا واجب الشكر . على انها لم تستطع السكوت عما يحتاج فؤادها من الخوف على عماد الدين فقالت وصوتها يرتجف « ولكنه في اعماق السجن يا مولاي »

قال « انه سيأتي باذن الله واذا ظل في السجن فاننا نفتح بيت المقدس لنخرجه منه وان في فتحه تعزيزاً لدولة الاسلام . . لا تخافي » وابتسم ومشى مشية الاسد وهي تشيعه ببصرها وتزداد اعجاباً بعلو همته وكبر نفسه . ورأت انتقال السيادة اليه وذهاب دولة اخيها امراً طبيعياً لا بد من وقوعه لما كانت تعلمه من ضعف نفوس رجال اخيها وفساد آرائهم وتنازعهم على التافه من الامور شأن الدولة في اواخر عمرها وبعد خروج صلاح الدين تقدم بهاء الدين اليها فقال « سأعود اليك بعد قليل ربما ترتاحين كوني مطمئنة » ونحك



الفصل الرابع والأربعون

جواهر

ولم يبق هناك الا سيده الملك وياقوتة . فقالت ياقوتة ووجهها مشرق « الحمد لله قد صدق ظني ونلت ما كنت اريده »

فتهدت سيده الملك وقالت « ما الذي نلناه وقد تبين لي من نص ذلك الكتاب ان عماد الدين في اعماق السجن عند الافرنج وانه مصمم على مهمة يظهر انها في غاية الخطر وانه اذا لم يفز بها ظل هناك او ... » وغصت بريقها

فقالت « الا يكفي يا مولاتي اننا علمنا بوجوده حيا ؟ وان صلاح الدين عون لك في الوصول اليه ؟ وسيقتص من ذلك الخائن ؟ هيا بنا الى الطعام واتكلي على الله »

فهدت وقد سرى عنها وتناولت طعامها وحديثهما في اثناء ذلك عن المؤامرة وابي الحسن . وبعد الطعام اتى قراقوش - وهو يدخل المكان بلا استئذان - وقال « ياسيدة الملك اهنيك برضى السلطان صلاح الدين فانه اوصاني بك خيراً .. انما ينبغي لنا ان نكتشف مكان تلك المؤامرة فهل تعرفين عنه شيئاً ؟ »

فاطرت تفكر ثم قالت « اني لي ذلك وانا لا اعرف شارباً من شوارع هذا البلد لاني قضيت عمري محبوسة في القصور »

فتصدت ياقوتة للكلام وقالت « ان كشف هذا الخبأ علي »

فقال قراقوش « اين هو ؟ »

قالت « لا اعلم ولكنني ارجو البلوغ الى خبره .. الا تعرف الغلام جواهر ؟ »

قال « اعرفه .. الم يكن من غلمان القصر ؟ »

قالت « نعم . وهو جاسوس ذلك الخائن كان يحمل اليه اخبارنا ويطلع

على اسرارنا »

قال « وما الفائدة من معرفته ان كان هذا شأنه وهو خائن لنا ؟ »

قالت « ان الخائن لا يثبت في الامانة لاحد . كان في الامس اميناً لابي الحسن علي

وهو الآن سيكون اميناً لنا عليه »

قال « اين هو ؟ »

قالت « هو في هذا القصر وقد اخبرني بعض الغلمان انه غاضب على ابي الحسن

اساء معاملته ولم يبق له فيه وطرف بعد سر سرج مولاتي من ذلك القصر ودخولها في
حياطة مولانا السلطان . فنفر منه وجاء يتزلف اليها . هل استقدمه اليك الآن ؟ »
قال « افعلي »

فامرت احد الغلمان ان يستقدمه وعادت . فرأت سيدتها قد ابرقت عينها من
السرور وقالت لها « بورك فيك يا قوته انك ساهرة »

قالت « لا بد ان يعود كيد الخائن في نحره » ثم جاء جوهر وعيناه ترقصان في
وجهه من الاضطراب — وكذلك بصر المنافق لا يستقر في مكانه

فنظر اليه قراقوش نظر المتفرس وقال له « يا جوهر باغنا ان ابا الحسن خدعك
حيناً حتى اخرجك عن طاعة مولاتنا .. لكن سررتني انك رجعت الى الصواب وعلمت
امك لاتنال خيراً الا بصدق الخدمة في صاحبة مولاتنا سيدة الملك ومولانا السلطان .. »
فاكب جوهر على يد بهاء الدين يقبها ويتظاهر بالندم والاحلاص وقال
« يعلم الله اني كنت مغشوشاً فان ذلك الرجل خدعني واوهمني انه يد الامام المرحوم
يفعل ما يشاء . ثم علمت انه يريد به شرّاً وانا قد ربيت في خدمة مولاي فلا يليق بي
ان اغدر به . فلما تحققت سوء قصد ابي الحسن تركته لاني اكره الخيانة . ولا سيما بمن
احسن اليّ وانا صديعته وعبده »

فقال قراقوش وهو يظهر انه صدقه « بارك الله فيك .. واعلم اني حسن الظن
بك وسأزيد في عطائك ولا اسألك عما مضى . وانما اطلب اليك امراً واحداً هو هين
عليك وفيه انتقام لك من ذلك الخائن هل تطيعني ؟ »

فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد جنائياته الماضية فقال « اني رهين
الاشارة ياسيدي »

قال « اطلب منك ان تخبرني عن المكان الذي يجتمع فيه ابو الحسن واقربانه
هل تعرف اين هو ؟ »

قال « ذلك هين ياسيدي .. نعم اعرفه واعرف الذين يجتمعون معه .. قببهم
الله .. كنت عازماً ان اطلعكم على ذلك وان لم تسألوني عنه فانه فرض علينا .. وكان
يمنعني الخجل من خطأي الماضي »

فربت له على ظهره ونحك وقال « عافاك الله هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال « هو في الفسطة ياسيدي .. »

قال « الآن تحققت صدقك لاني كنت عالماً انه هناك . فانا واضع ثقتي فيك من

هذه الساعة . وانت تعلم ان ثقتي هي ثقة ~~بمولا~~ لنا السلطان ولا يخفى عليك ما يستفيده صاحب هذه الثقة .. اصاح ما افسدته يا جوهر . وقد اوصتني مولانا سيده الملك خيراً بك واخبرتني كم كنت مخلصاً في خدمتها قبلاً . ولكن ذلك الخائن اغراك على هذه الخيانة . مضى ما مضى .. تعال معي » قال ذلك وتحوّل وتبعه جوهر وقد بدر الى العسل قبل ان يحدث ما يغير عزم ذلك الغلام المنتقلب . وصمم ان لا يفارقه قبل الوصول الى المطلوب

على انه تذكر امراً احب ان يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب فرجع اليها وقال « ينبغي ياسيدي ان تتكلي عليّ بكل ما يخطر لك . . ولا بد انك تذكرين اطلاعي على مجيء عماد الدين الى قصرك واحمد الله على انه نجح سالماً »

فاغتمت تقربه اليها وتلطئه في طمأننتها وقالت « اما وانت مشعرتي معي وقد رأيت السلطان راضياً عني اتقدم اليك ان تزيدني بياناً عن حال عماد الدين »

قال « لا اشرف عن حاله الآن غير مافي كتابه الذي تلوته عليك الساعة . . »

قالت « أعني هل عاينه خطر هناك ومتى تظنه يعود؟ »

قال « لا اعلم متى يعود اما الخطو فلا اخافه عاينه لعامي بشجاعته وتعقله ولا بد من الإتكال على الله . . كوني مطمئنة في كل حال » قال ذلك ومشى فهرع جوهر في اثره وقد سره ما يؤمله من الفوز بالمكافأة - لا يهمه ما يترتب على عماله من قتل النفوس وخراب البيوت - ان امثال هذا الخائن ينتصهم الشعور الحلي الذي يسمونه الضمير . فهم ينظرون في الاعمال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يشعرون بغير ذلك . والدنيا عندهم لها وجهان وجه منفعتهم وهو ما ينبغي بقاءه واما الوجه الآخر فهو كالعدم في نظرهم فلا يباليون ان يمحي من الوجود او يساق اصحابه الى المجازر . وقد يسرهم ما يرونه في الآخرين من الاذى وان لم ينالوا هم منه خيراً لانفسهم . فكيف اذ كان لهم منه نفع - نعوذ بالله من هؤلاء . . لكنهم بحول الله قايلون ولو كانوا كثيرين لخربت الدنيا من عهد بعيد



الفصل الخامس والاربعون

الفسطاط

مشى قراقوش وجوهر في خدمته وكان جوهر مملوكاً حبشياً وفيه ذكاء ولكنه لم يكن له ضمير كما علمت فالتفت قراقوش اليه في اثناء الطريق وقال « يا جوهر ما العمل الآن ؟ »

قال « الامر لمولاي »

قال « انا متكل عليك في الوصول الى الغرض .. اريد ان اطاع على مجتمع القوم واسمع حديثهم هل يتيسر لك ذلك الليلة ؟ »

قال « نعم ياسيدي نذهب بعد الغروب اذا شئت »

قال « الى اين ؟ »

قال « الى الفسطاط لان القوم يجتمعون في بيت هناك اعرفه ولا يمكن ان يهتدي اليه سواي .. فانه في دار خربة لا يتصل اليها الا من ازقة ضيقة مظلمة .. ولا بد من التنكر »

قال « وماذا ترى ان نفعل ؟ »

قال « ارى يتنكر مولاي الاستاذ بلباس طبيب نصراني وانا اكون في خدمته احمل له جراب العقاقير واقود بغلته »

قال « هذا هين »

ووصلا بعد هنيهة الى منزل قراقوش فدخل فامر قراقوش ان لا يدخل البيت احد من الناس ولو انه السلطان صلاح الدين نفسه . وامر جوهر ان يعد ما يلزم للتنكر وسأله عن محل الاجتماع اين . فوقعه في الفسطاط فقال « قرب جامع عمرو وعين النقطة . فتركه يهيئ ما يلزم واخذ في اعداد فرقة من الجنود تسبقه لتربص في خان قرب ذلك المجتمع ودبر الوسيلة للاحاطة بالمنزل عند ابداء الاشارة

اعد كل شيء قبل الغروب ولم تغب الشمس حتى كان قراقوش قد تزيا بزى اطباء النصارى بالزناز على وسطه والعمامة على رأسه واعدت له البغلة . ومشى جوهر في ركابه ولا يشك من يراهما انهما الطبيب وغلماه

برحا القاهرة عند الغروب وقطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة . ثم اطل

قراقوش على الفسطاط من مرتفع فرأى الحريق لا تزال ظاهرة فيها وقد خربت
 أكثر بنيتها بأمر شاورمند بضع سنين (سنة ٥٦٤ هـ) إذ خاف شاور الوزير من وصول
 الصليبيين اليها واستيلائهم عليها فأمر أهلها بالخروج منها إلى القاهرة والقي النار فيها
 وأمر بنهبها . فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقروا أهلها وذهبت أموالهم . وظل الحريق عاملاً
 فيها ٥٤ يوماً (١) فاختلطت الأزقة حتى اشتبهت على المارة . ولولا جوهر ومعرفة
 الشوارع جيداً لاستحال على قراقوش الوصول إلى المكان المطلوب . ولكن ذلك الحبشي
 كان يقود البغلة ويتخطى الخرائب كأنه ماش في داره . ودليله الاظهر ما أذنه جامع عمرو
 فانها كانت بارزة في الفسطاط دون سواها

لم يتجاوزا جامع عمرو حتى خيم الغسق وانظمت الدنيا وقل الناس في الشوارع
 والمتأمل في الفسطاط يجد فرقاً كبيراً بينها وبين القاهرة فان هذه أكثر عمارة وحشمة
 واضخم خانات واعظم آثاراً . سكن الأمراء فيها لأنها خاصة برجال الدولة وأما الفسطاط
 فانها مقر الباعة والصناع ويكثر فيها السوق والملاحون لتربها من النيل وقد زادا
 ذلك الحريق حقارة

وكان قراقوش لما توسط المدينة ورأى نفسه منفرداً هناك مع جوهر خطر له ان
 ذلك الحبشي ربما ينوي الغدر به وهو خائف لا يركن إليه فالتفت نحوه وقال « اين
 نحن يا جوهر يظهر اننا قد بعدنا عن المكان الذي ذكرته وتجاوزنا جامع عمرو . . . »
 قال « ثق يا مولاي اني ذاهب بك إلى المكان المطلوب . وقد تجاوزناه الآن
 حقيقة كما قلت ولكنني اريد ان نشرف عاينه من منزل آخر بابيه في شارع آخر . . .
 ألا تريد ان ترى القوم مجتمعين وتسمع ما يدور بينهم ؟ »

قال « بلى . . . لكن تمهل قليلاً » قال ذلك وتفرس بما يجاوره فعلم انه على مقربة
 من الخان الذي اوصى الجندي ان يتربصوا فيه فقال « اخبرني يا جوهر اين هو البيت
 الذي يجتمعون فيه ؟ داني عاينه باصبعك من هنا »

فاشار باصبعه قائلاً « ألا ترى هذا النور المعلق على تلك السارية »
 قال « رأيت »

قال « ترى وراءه بيتاً خرباً انهم يجتمعون في داخله »

فتحول قراقوش ببغاته إلى الخان فلقى قائد الفرقة بالباب فوصاه ان يفرق جنده
 حول ذلك البيت من كل ناحية بحيث لا يشعر به احد ولا يظهر احد من رجاله في

الطرق وقال « اذا رأيتم مصباحاً يتحرك رتجاً احد هذه الاسطحة حركة رحوية . .
 اهبموا على هذا البيت من كل ناحية واقبضوا على من فيه » وعاد فادار شكيمة بغائته
 وجوهر يقودها حتى دخل الزقاق المطلوب ووصل الى باب دقه وقراقوش لا يزال
 على البغلة ففتحت خوخته واطل رأس رجل شيخ قد تدلى سالفاه على خديه |
 وقال « من الطارق ؟ »

فتقدم جوهر وقال « الطيب سمعان .. افتح .. »

قال « وماذا يريد الطيب منا ليس عندنا احد مريض »

قال « لم يأت للتطبيب لكنه يريد المبيت هنا وهو من اهل القاهرة وقد جاء للسفر
 في النيل فوجد السفينة التي يريد السفر عليها قد اقلعت فاراد المبيت في الفسطاط الى
 الصباح حتى يبكر الى الشاطيء ويركب سواها . افتح يا عماء .. »

قال « لماذا لم يذهب الى الخان انه قريب من هذا المكان »

قال « لا يريد المبيت في الخان وهو لم يتعود ذلك وانا اتيت به الى هنا خدمة لك
 وهمس في اذنه قائلاً « يظهر انك لم تعرفني يا معلم حاييم »

فتفرس فيه الشيخ وقال « عرفتك يا جوهر العفو اني لم اعرفك من قبل »

قال « لا بأس .. وانا جئت بهذا الطيب لبيت هنا وهو كريم الخلق كثير المال
 لا يبالي كم تأخذون منه .. والاحسن ان تخلوا له البيت برمته واطلبوا عن كل
 حجرة منه ديناراً واذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة واحدة فقط قل له انك لا
 ترضى الا بتأجير البيت برمته .. »

ففرح حاييم بهذا الرأي ولم يكن في بيته كله ما يساوي دينارين من الاثاث . فلما
 قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال « لا نقدر ان ندخل رجلاً غريباً بيت معنا فاذا
 شاء الطيب ان تؤجره البيت من بابه فعلنا »

فقال جوهر « كم اجرته ؟ »

قال « هو خمس غرف واجرته خمسة دنانير »

فتظاهر جوهر انه يخادع قراقوش بالمساومة وقال « ان خمسة دنانير كثيرة
 يا معلم حاييم . الا يكفي اربعة ؟ » وضغط على اصبعه ان لا يقبل

فاجاب « كلا اذا لم يعجبكم فهذا هو الخان قريب من هنا »

فاظهر انه رضي وقال « لا بأس .. طيب ان مولانا الطيب كريم . وانتم ايضاً

تنامون ؟ »

قال « ليس عندي الا امرأتي العجوز فنييت عند صهرنا وهو قريب من هنا »
 فتحول جوهر الى قراقوش قبض منه الدنانير ودفعها الى الشيخ وهو يقول له همساً
 « هذه هي الدنانير لكن ينبغي ان تختصني منها بدينار تدفعه الي غداً صباحاً فهمت »
 قال « حسناً » وهو ينوي ان لا يدفع اليه شيئاً . بل عزم ان ينتحل حجة في
 الصباح يقبض بها ديناراً سادساً فيدعي انهم اضاعوا شيئاً من الاثاث او نحو ذلك
 ثم تحول الشيخ الى الداخل وعاد بعد قليل والمصباح بيده ومعه امرأته وهي تقول
 « يظهر ان هذا الضيف عزيز عليك حتى اخرجتني من البيت لاجله »
 فقال « كيف لا » و اشار الى بهاء الدين ان يتفضل . فتحول بهاء الدين عن بغائه
 فادخاها جوهر تحت قنطرة بجوار المنزل شدها الى حلقة دقت هناك لمثل هذه الغاية .
 ودخل . ودفع حاييم المصباح الى جوهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت خيراً

الفصل السادس والاربعون

الجلسة

وما صدق قراقوش انهما دخلا البيت ولم يبالي بما يتصاعد عن دهاليزه من الروائح
 القذرة . فاقفلا الباب واوصداه ومشى جوهر بالمصباح بين يدي قراقوش وهما يسترقان
 الخيطي لئلا يسمع لهما صوت . ولم يمشيا طويلاً حتى سمعا ضوضاء عميقة فقال جوهر
 « نحن بجانب مجاس القوم ليس بيننا وبينهم الا الحائط .. اصبر قليلاً »
 وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحفر للدفاع عن نفسه ويده على خنجره
 ليغمده في صدر جوهر اذا انس منه خيانة . فلم يلاحظ منه شيئاً فلما استدهله وقف وهو
 يحدق فيه فاذا هو يشير اليه ان يصعد على سلم ضيق يؤدي الى سقيفة في اعلى الغرفة .
 فصعد معه ومن هذه السقيفة اتصلا الى السطح من باب ضيق كالنور . ورأيا السماء فوق
 رأسيهما ونظر بهاء الدين الى ما يحيط بهما فاذا هما والاسطحة حولهما . فقال جوهر
 بصوت ضعيف لترك المصباح على السقيفة ونمشي في الظلام لئلا يفتضح امرنا »
 فاطاعه ومشى والضوضاء تزداد وضوحاً حتى انتهى به الى حائط فقال « هذا
 حائط آخر من حيطان قاعة الاجتماع »

فراى بهاء الدين في ~~الحائط~~ كوة قد انبثق النور منها فتقدم نحوها فسبقه
جوهر وقال « انظر هنا »

فنظر فراى قاعة غاصة بالانس قعوداً على وسائل مصنوفة حول الغرفة فوق
بساط . وقد علت الضوضاء ووقف بالباب رجل اسنده بظهره كأنه يمنع من شئ
الدخول فهمس جوهر في اذن بهاء الدين قائلاً « هل ترى جيداً »
قال « نعم .. لكنني لم اعرف احداً منهم غير ابي الحسن .. من هذا الجالس
الى جانبه . ؟ »

قال « ان الذي تراه الى يمينه عمارة بن ابي الحسن الشاعر اليميني . والى يساره
القاضي العويرس وبعده داعي الدعاة والى الجانب الآخر عبد الصمد الكاتب وغيره ..
وكلهم من الشيعة كما تعلم . انظر في وسط الغرفة ماذا ترى ؟ »
قال « ارى سيفاً ومصحفاً اظنهم يحافون عليهما »

قال « نعم »

واخذ قراقوش يتفرس في الحضور ليعرفهم عند الحاجة . واذا هو، باني الحسن
اشار بيده يطاب الاصغاء فانصتوا فقال « ابشركم ايها الامراء ان اعمالنا تكلمت
بالنجاح وجاء وفد الافرنج في هذا الصباح يحمل الهدايا الى ذلك الكردي .. وقد فرح
باهدية وفاته ما وراءها . جانا كتب اصحابنا في ساحل الشام انهم على أهبة الرحيل
عند اول اشارة فابشروا بنيل المراد »

فتصدى عمارة اليميني وهو شاعر مشهور ووجه نظره الى القاضي العويرس
وداعي الدعاة وهما من اصحاب المناصب الرفيعة في الدولة وقال « ان مولانا الشريف ابا
الحسن اهل لما بايعناه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ولان مولانا الامام المرحوم
قد اوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من المجلس الشريف قبل الآن . فيجب ان
نخاص له الطاعة لتعيد هذه الدولة الى رونقها وكانت قد فسدت بمن دخل في امورها من
الاعاجم بسوء رأي المحيطين بالخليفة السابق وهم الذين اشاروا عليه باستنجد نور الدين
صاحب الشام فكان ذلك سبباً في سيورة الامر الى يوسف هذا (صلاح الدين) ولكننا
متى تم لنا ما دبرناه وقبضنا على ازمة الامور صرنا نتجنب هذا الخطأ في المستقبل .
ولا نولي المناصب الا الذين نشق باخلاصهم وتنايهم في الدعوة العلوية من العرب ...
اننا عرب ونحن مادة الاسلام والقرآن عربي فلا ينبغي ان نشرك في امرنا غير العرب
كما فعل غيرنا .. »

فقال عبد الصمد الكاتب « برك الله حيث يا أخا اليمن (عمارة) قد مضى زمن
الضعف والحمد لله... ان خليفتنا هذا (واشار الى ابي الحسن) جمع بين الحزم
والدهاء ووزيرنا هذا (واشار الى العويرس) لا مثيل له في اصالة الرأي و... »
فقطع كلامه رجل كان جالساً منذ ساعة لا يتكلم كأنه يفكر في امر هام لا يلتفت
الى ما يدور بينهم فلما سمع كلام عبد الصمد بشأن الوزارة رفع رأسه وقال « ان
الوزارة لم يتم الاتفاق عليها بعد. وانا مع احترامي للقاضي الاجل لا ارى له حقاً
بالوزارة وانما هي لسلالة الوزراء آل رزيك فانهم تولوها في عهد الائمة السالفين ولهم
عليها فضل فلا يابق نقلها الى سواهم... »

فتصدى رجل آخر كان قد نهض في تلك الاثناء واخذ يهمس في اذن ابي الحسن
وابو الحسن يهز رأسه له هزة الرضا والاستحسان - تصدى هذا وقطع كلام الرجل
قائلاً « مهلاً لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا وكان في قبضتنا بالامس »
فضحك صاحب وزارة بني رزيك وقال « تريد ان ترجع الوزارة لبني شاور؟
الم تكن هذه المناصب كلها من وزارته ألم يكن هو الذي احرق هذه المدينة الزاهرة
بسوء تدبيره؟ ان الوزارة لا تكون لغير آل رزيك. ونحن اصحابها الأولون.. »
فتكلم ابو الحسن وهو يبش ويتلطف وقال « خففوا من غضبكم وارجعوا الى
صوابكم.. لسنا الان في معرض التنازع على المناصب انما نحن في الاتحاد على اخراج
هذا العدو من بلادنا ومتى اخرجناه نعمل ما يتفق عليه الرأي.. »
فقال صاحب وزارة آل رزيك « طبعاً ان ابا الحسن لا يهمه البحث في المناصب
الآن لانه ضمن لنفسه الخلافة بسبب نسبه في العبيدين.. ولم ينازعه احد في صحة
نسبه لان الجايس الشريف شهد بصحته بناءً على ما سمعه من الامام المرحوم.. »
ونحك، فحكة استخفاف

الفصل السابع والاربعون

الهجوم

وكان قراقوش مصغياً لما دار وقد شاهد كل حركة وجوهر واقف بين يديه
يتطاول ليري ما يراه. فاكتفى قراقوش بما سمعه وشاهده والتفت الى جوهر وقال
بالاشارة « اين المصباح؟ الي به »

فزل الى السقيفة واتى بالمصباح فتناوبه قراقوش وصعد الى مرتفع واداره بيده .
 بحركة رحوية كما اتفق مع قائد تلك الفرقة . ثم نزل واخفى المصباح وعاد الى الكوة .
 والناس يتحاجون ويتناقشون . واذا بالضوضاء قد تعاضمت ولم تمض دقائق قليلة حتى
 صار رجال قراقوش داخل القاعة واخذوا في القبض على من فيها . وليس فيهم من
 يستطيع دفاعاً لانهم لم يكونوا قد اعدوا من وسائل الدفاع غير السننهم واصوانهم
 ووجه قراقوش التفاته خصوصاً الى ابي الحسن فلم يجده بين المقبوض عليهم فظنهم
 اخرجوه الى خارج القاعة . ولما ايقن بفوز رجاله بالقبض على المتآمرين اشار الى جوهر
 بالنزول للرجوع الى القاهرة . فزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ولم تطأ رجلاه
 السقيفة حتى سمع وقع اقدام مسرعة في ارض البيت تحت السقيفة فاجنل فتنفس
 قراقوش على النور الضعيف فرأى شبحاً بالعمامة والجببة لم يعرفه فقال له جوهر همساً
 « هذا ابو الحسن هلم اليه » فبادر الى اطفاء المصباح حتى لا يعرف مكانه واسرع في
 النزول ليقبض على ابي الحسن وهو يحسبه دخل هذا المنزل بتواطئ سابق مع صاحبه
 لمثل هذه الساعة على ان يبيت فيه ليلته ثم يفر في الصباح

نزلا الى ارض البيت وجوهر يقود قراقوش لانه يعرف دواخل المكان واصاها
 فلم يسمعا خطواً ولا صوتاً كأن ذلك الشبح كان ظلاً وزال . فاراد قراقوش ان ينير
 المصباح ليرى المكان في النور فاشار الى جوهر ان يفعل واستل خنجره وتهيأ للهجوم
 على من يظهر امامه . ولم يكده جوهر يبدأ بالاشعال حتى سمعا صرير باب الدار فركضا
 اليه فوجدا الباب مفتوحاً وليس هناك احد فاضاء المصباح واخذوا في البحث عن ابي
 الحسن في كل مكان فلم يجداه فتأكدا انه نجا فقال قراقوش « هل انت متأكد
 يا جوهر انه ابو الحسن ؟ »

قال « يغاب على ظني يا سيدي انه هو ومع ذلك قد يكون سواه .. هلم بنا للبحث عنه
 في الاماكن المجاورة فاذا لم نجده فاعله في جملة المقبوض عليهم والا فانه قد نجا بحمد الله »
 فخرجا وركب قراقوش بغلته واخذوا في البحث عنه في تلك الدار وما يجاورها فلم
 يقفاله على اثر فذهبا الى القاهرة وبهاء الدين يخاف ان يكون ابو الحسن قد نجا وكان
 خوفه في محله

اما سائر المقبوض عليهم من المتآمرين فحكم عليهم بالصاب وفي مقدمتهم عمارة
 العمري المتقدم ذكره فاضلوا في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١) وارتاح بالصلاح الدين

من هؤلاء لكنه ما زال يفكر في ابي احسن سبب تلك الدسائس
 اما سيدة الملك فاصبحت في ثاني يوم القبض على المتآمرين وكلفت ياقوتة بالبحث
 عما تم . فلما انبأوها بالقبض عليهم فرحت لكن ساءها فرار ابي الحسن وهو مصدر
 متاعبها . وتعلم انه لا يبالي ماذا يفعل في سبيل غرضه . لا يرعى ذمة ولا يتجنب
 حراماً فنظرت الى ياقوتة قائلة « ان صلاح الدين قد فاز بما يريد . . . »
 فقالت ياقوتة « ان نجاة ذلك الخائن كدرتني كثيراً ولكن ما العمل . . لا بد من
 ان يرجع كيده في نحره . . لان الله غريمه . ولم يعد يهمننا أمره ونحن في حياطة
 صلاح الدين . . والآن جئت بشيء يعزيبك على هذه المصيبة »
 فبغتت سيدة الملك وقد اصبحت تبغت لكل جديد تتوقعه لفرط قلقها على
 عماد الدين فقالت « ما وراءك ؟ »

فضحكت وقالت « اني عاتبة عليك بالنيابة عن عماد الدين . . كيف تعلمين بمجيء
 رسول من عنده رآه قبل سفره وخاطبه وعلمنا من كتابه انه سجين ولا تسألين عن
 ذلك الرسول حتى تستزيديه ايضاحاً او تحمليه رسالة ؟ »
 فتهدت سيدة الملك وقالت « آه يا ياقوتة قد اقلقتك بكثرة الاسئلة . . هل
 تتوهمين اني غفلت عن هذا الفكر ؟ . ان رسول عماد الدين يؤنسي اذا رأته . . وكنت
 عازمة على استدعائه اين هو ؟ . »
 قالت « اخبرني بهاء الدين الآن ان ذلك الرسول يطلب ان يراك وان عماد الدين
 كلفه بذلك . . »

فتوردت وجنتها وقد اخذها الفرح ولم تمالك ان صاحت « عماد الدين كلفه ان
 يراني ! . . الحمد لله انه يفكر في . . هو اذاً يحبني . . » ثم تراجعت وقد ندمت على
 تلك الالهفة وخجلت وادارت وجهها الى حائط عليه ستارة موشاة بالالوان الجميلة
 تشاغت بالنظر اليها

فقالت ياقوتة بصوت ضعيف « يالله من الحب ! كيف يجعل سيدة الملك سلالة
 الخلفاء ونزيلة السلاطين يستخفها الفرح اذا سأل عنها شاب من . . »
 فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة « لا تقولي شيئاً عن عماد الدين انه عندي فوق
 الخلفاء والسلاطين . . صدقت ان الحب . . آه . . صرت اذكر الحب بين يديك بلا
 حياء . . ان الحب يفعل كثيراً . . والآن اين ذلك الرسول دعيه يدخل . . »

الفصل الثامن والاربعون

رسول الحبيب

نُحِرَتْ ياقوتة وعادت بعد قليل ومعها شاب في زي اهل بيت المقدس الذي يلبسونه في الاسفار. حول رأسه الكوفية كالخمار وقد تسربل بالسر اويل القصيرة وحول خصره منطقة عريضة من الجلد غرس في مقدمها خنجرًا صغيراً ولف حول ساقيه لفافة من النسيج تسهل عليه المشي السريع فلما دخل وقف مهيباً متأدباً فارسات سيدة الملك خمارها ورحبت به قائلة « ما اسمك يا غلام ؟ »

قال « اسمي جرجس »

قالت « انت مسيحي اذا ! »

قال « نعم يا سيدتي »

قالت « من اين انت آت ؟ »

قال « جئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين وقد أديتها بالأمس ولكن صاحب تلك الرسالة اسرَّ اليَّ امرأً خصوصياً كانني به يتعلق بسيدة الملك »

قالت « وما هو ذلك الامر ؟ انت بين يدي سيدة الملك الآن »

فاطرق احتراماً وقال « ايكما هي ؟ »

فتقدمت ياقوتة وقالت وهي تشير الى سيدتها « هذه مولاتنا سيدة الملك قل ما عندك . وارجو ان تكون صادقاً في ما تقول »

قال « وما الذي يحماني على الوقوف بين يديها ان لم اكن صادقاً في مهمتي وخصوصاً لان الامر الذي جئت به سرٌّ لم يطاع عليه احد سواي ، ولولا ذلك لم اكن لاستطاع الغيب واتصدي له »

قالت ياقوتة « صدقت يا شاب بارك الله فيك . . » ورأت ان تتولى هي السؤال عن عماد الدين فقالت « كيف فارقت عماد الدين ؟ . »

قال « لم يبق اسمه عماد الدين يا سيدتي بل هو يسمى الآن عبد الجبار »

قالت « ونعم الاسم . كيف عرفته ؟ من اسرَّ اليك هذه المهمة ؟ »

قال « عرفته في اخرج المواقف وما لبثت ان تعرفته حتى تعشقت اخلاقه وحسرت

افديه بروحي .. انه شاب نادر المثال بالمروءة والحمية »

ولما سمعت سيدة الملك اطراءه اشرق وجهها وخفق قابها وتناولت لتسمع بقية الحديث . اما ياقوتة فاجابته وهي تطهر السداجة قائلة « امر غريب ! يظهر انك عاشق له .. قل كيف وقع ذلك .. وما هي المهمة التي جئت بها ؟ »

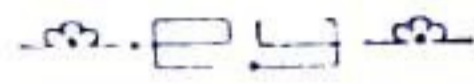
فقال « كان عماد الدين ماراً ببيت المقدس في طريقه الى نواحي حلب في امر لا اعلمه فقبض عليه الافرنج خداعاً وسجنوه . وكنت انا مسجوناً مثله فتعارفنا في السجن فرأيت فيه اخلاق الملوك وتجاذبت قلوبنا فاحبته واخلص لي وتكاشفنا في امور كثيرة فلم يذكر لي شيئاً يتعلق بسيدة الملك . ثم اتيح لي الخروج من السجن وتقربت من صاحب بيت المقدس الافرنجي واصبح همي انقاذ صديقي سالم من السجن فلم يسعدني الحظ بعد . لكنني كنت اردد عليه دائماً واتفقده بما يخفف عنه . وسمعنا في اثناء ذلك بما حدث هنا من موت الامام رحمه الله وتغيير الاحوال وانزال اهل الخليفة في هذا القصر بالاكرام وكنت اقص عليه كل ما اعلمه وفي جملة ذلك المؤامرة التي تعلمونها وقد بعثني صاحب بيت المقدس دليلاً للوفد الذي جاء لتقديم الهدايا وجئت لوداع سالم فكلتني بايصال كتاب الى السلطان صلاح الدين . ثم اسرّ اليّ ان ابحث عن سيدة الملك واطمئننه عن حالها وها اني بين يديها »

فقالت ياقوتة « وما الذي اطاعك عليه من علاقته بها »

قال « لم يذكر لي تفصيلاً كثيراً لان الوقت لم يكن يأذن بالتطويل ولكنني فهمت من عرض الحديث انه يجلب سيدة الملك كثيراً . وقد خطر له انكم تستغشونني ولا تصدقون قولي فدفع الي هذه الجوهرة على سبيل الامارة » ومد يده الى جيب في منطقتة واستخرج جوهرة دفعها الى ياقوتة فتفرست فيها واقتربت من سيدة الملك فلما رأتها قالت همساً « هذه احدي جواهر العقد الذي اعطيناه اياه تلك الليلة » وتأت كدت ثقة عماد الدين به والتفتت الى الشاب وقالت « صدقت .. قد تأكدنا الان انك رسول منه . كيف هو ومتى يخرج من السجن واذا خرج الاياتي الى هنا ؟ » قال « سيخرج قريباً ان شاء الله وهو في خير واذا خرج لا اظنه يأتي تواتاً الى هنا بل عليه مهمة لا اعرفها . وقد كلفني ان اقول لك انه سيعود الى هنا متى فرغ منها » فانقبضت نفسها واطرقت ثم رفعت بصرها اليه وقالت « اذا هو في خير وهذا يكفي .. اذا دفعنا اليك امانة هل توصلها اليه ؟ »

فوضع يده على رأسه وقال « كيف لا يا سيدي اني اتنى خدمة اوديها له .. »

فاشارت الى ياقوتة فدنت منها فامرتها ان تستخرج بعض الجواهر تبعث بها اليه .
وان تكتب اليه كتاباً تؤكد له فيه بقاءها على حبه وانها تتوقع رجوعه بفارغ الصبر .
ففعلت ووضعت الجواهر والكتاب في كيس خاطته ودفعته الى الرسول . ودفعت
اليه صرة فيها خمسون ديناراً وقالت هذه اجرة الطريق . فاخذها وشكر وانصرف
وظلت سيدة الملك برهة بعد ذهابه وهي تخاطب ياقوتة بشأنه وياقوتة تصبرها حتى يعود



الفصل التاسع والاربعون

السلطان نور الدين

واما ابو الحسن فقد علمت انه نجا تلك الالية من القبض عليه لانه كان لفرط
دهائه وحذره محتاط لكل شيء . وكان قد اعد منفذاً من قاعة الاجتماع الى بيت ذلك
اليهودي حتى اذا داهمهم مداغم فر من هناك لا يبالي بما يصيب رفاقه - وانما هو يطالب
النجاة لنفسه

قضى بضعة ايام مختبئاً في بعض المنازل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه المتآمرين
وكيف قضى عليهم بالصلب فيئس من مصرور جاهها . ولكن مطامعه ما زالت تريه المحال
ممكناً - والمرء اذا رغب في شيء وان كان بعيداً فان رغبته فيه تريه اياه قريباً - فاعمل
فكرته في سبيل آخر يسعى فيه للانتقام من سيدة الملك . وقد علم في اثناء تربيته انها
هي التي استعانت بخادمه جوهر على كشف امرهم فازداد حنقاً عليها فخطر له بعد
التفكير ان يستعين بالسلطان نور الدين صاحب الشام . يحمل اليه اسراراً هو مطلع
عليها تتعلق برغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر وما صرح به ضد نور الدين .
فيشي به الى نور الدين ويحمله على محاربه واخراجه من مصر عنوة . وان يشهد
هو ذلك الفتح فيجعل غنيمته منه سيدة الملك . واستسهل كل صعب في هذا السبيل
وراه قريب المنال

فلما اقتنع بصحة رأيه احتال في القرار من مصر طالباً بدمشق الشام وواصل
المسير وجد في فوصل دمشق متكرراً بثوب تاجر مصري ونزل في خان من خاناتها
قريب من القلعة وهي يومئذ مقر السلطان نور الدين . ودمشق زاهية بذلك السلطان
العظيم واهلها فرحون بما ناله من الانتصارات المتوالية على الافرنج في مواقع مختلفة

من بلاد الشام . لكنه لم يكمد يستقر به الجلوس في الخان حتى سمع لغط القوم بانحراف
صحة السلطان منذ ايام وقلق الناس على حياته لانه اصيب بالخوانيق . فاخذ ابو الحسن
يفكر في وسيلة يتصل بها الى مجالسته والمداولة معه في امر مصر

وسأل عن طبيبه الخاص فعلم انه الرحبي وهو من حذاق الاطباء وكانت له معه
معرفة . فسار اليه فوجده في منزله فاستقبله الطبيب احسن استقبال وكان قد لقيه بمصر
وعرف منزلته من الخليفة العاضد فسأله ابو الحسن عن حال السلطان فقال « انه مصاب
بالخوانيق وقد اشتد عاياه المرض لانه ابي البصد » فظهر اسفه وقال « الا يتيسر لي
ملاقاته لعلني اقنعه بالصد . ولي معه حديث اذا اطاعته عليه سرّي عنه »

فراى الطبيب ان يستعين به على ذلك وهو مطاع على قلق السلطان نور الدين
من جهة مصر فظنه يرغب في استقبال ابي الحسن لعله يستطيع منه امراً جديداً
فيأذن بمقابلاته ولو كان مريضاً . فاستمهله الطبيب الى صباح اليوم التالي
وجاءه ابو الحسن في الصباح فقال له « ان مولانا السلطان احسن حالاً الآن وقد
ذكرتك له فاحب ان يراك »

فخرج ابو الحسن بقبوله وركب مع الطبيب الى القاعة . وكان السلطان مقياً في
غرفة من غرفها اصابه المرض وهو فيها فبقي هناك . فدخل الطبيب اولاً واستأذن لابي
الحسن فاذن له فدخل وهو يتأطف في التحية والاحترام . وكان قد عرف السلطان
من قبل واجتمع به غير مرة وعهد به قوي البنية مشرق الوجه فرآه قد تغيرت حاله .
وكان السلطان نور الدين اسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان
واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين ولكن المرض ذهب بلعانهما وقد امتنع لونه
فلما رأى ابا الحسن داخلاً ابتسم له على عادته بالملاطفة والمجاملة

فاكب ابو الحسن على يده كانه يريد تقبيلها فامتنع نور الدين عن ذلك و اشار اليه
ان يقعد . ولم يكن في تلك الغرفة شيء من الرياش لانها ليست القاعة التي يقابل الناس
فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابة

جلس ابو الحسن على وسادة وقال « كيف مولانا اليوم ارجو ان يكون في
صحة لان سلامته سلامة الدولة وفي شفاؤه شفاء الاسلام . وارجو ان لا اكون قد
ثقلت عاياه بقدمي »

فقال نور الدين وصونه ضعيف من الخوانيق « الحمد لله على كل حال .. وأما
قدمك فقد سرّني لعامي انك قادم من مصر وفيها حبيبنا ووزيرنا الملك الناصر

كيف فارقته ؟ »

فما سمعه يلقب صلاح الدين بالجيب تشاءم لكنه عزم على المراوغة فقال « هو في خير بظل مولانا السلطان الملك العادل »
قال « كيف فارقت مصر ؟ »

قال « فارقتها واهلها يتشوقون الى طلعة مولانا السلطان اعزه الله ويتمنون لو انه شرفهم بالزيارة ليري مملكته الجديدة .. »

فاشرق وجه نور الدين وسرته ان يسمع ذلك من امير مصري كان من المقربين للدولة الماضية فقال « ولكن بلغنا ان بعضهم تأمروا على خلع الطاعة . فهل ذلك صحيح ؟ »
قال « نعم يا سيدي انهم تأمروا ولكن ليس على خلع طاعة السلطان نور الدين »
قال « وكيف اذن ؟ .. » وبتت البغته في عينيه ونسي مرضه واخذ يعيث بجانب لحيته عند الحنك وتفرس في عيني ابي الحسن ليري ما يبدو منه

فقال ابو الحسن « ان اهل مصر من اقرب الناس الى الطاعة ولكن .. » وبلغ ريقه وتنحج واطهر انه يكتم امراً لا يجب التصريح به
فقال نور الدين « ما بالك ؟ .. ولكن ماذا ؟ »

قال « لا احب ان ازعج سيدي السلطان بامور لا اظنها تسره .. »
فبدا الغضب في وجه نور الدين وقال « قل .. قل .. تأمروا على خلع من ؟ »
قال « انهم تأمروا على خلع طاعة السلطان صلاح الدين »
قال « اليس طاعته طاعتي ؟ »

قال « بلى .. هكذا يجب ان يكون ولو طلب طاعتنا باسم السلطان نور الدين لما وجد مخالفاً »

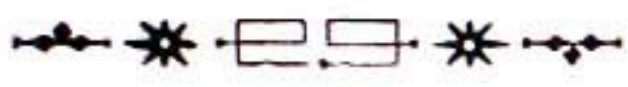
قال « وكيف طلبها اذا ؟ »

قال « يظهر لمن اصحاب البريد يخفون الحقيقة عن مولانا السلطان فاذا اذن لي تكلمت »

قال « قل .. قد اذنت لك »

فالتفت ابو الحسن الى الطبيب كانه يستشير في هل يضر الغضب في صحة السلطان فتقدم الطبيب الى السلطان وقال « أرى مولانا السلطان قد بان الغضب في وجهه وهو مريض ألا يؤجل هذا الحديث الى وقت آخر ؟ »
فقال « كلا .. اني في خير .. فليقل ما يشاء »

فاعتدل ابو الحسن في مجاسه وقال « ان وزيرك صلاح الدين لم يطلب طاعة
المضريين باسمك ولكنه طلبها باسمه وزعم انه هو صاحب الامر وليس للسلطان نور
الدين شيء منه . وقد قاومناه وتآمرنا عليه لاننا لا نريد ان نعرف غير مولانا نور
الدين سلطاناً . وانا استغرب اختفاء ذلك عنه . وقد صرح صلاح الدين بذلك في
جلسة عانية — حتى ان اباة نجم الدين انتهره وامره بالكتمان . » قال ذلك وسكت



الفصل الخمسون

الفصل

وكان نور الدين حسن الفراسة فاطرق هنية يفكر في ما سمعه وهو يعث بلحيته
فلم تعجبه تلك الوشاية من عدوٍ طبيعي لهما ولا سيما بعد ان سمع اعترافه بانه كان من
المتأمرين على صلاح الدين . وادرك انه لو كان صادقاً في طاعته لنور الدين لم يساعد
على خلع الطاعة بتلك الصورة بل كان عليه ان ينقل خبر صلاح الدين اليه . فترجح
لديه كذبه فقال « وماذا ترى الآن ؟ »

قال « ارى ان لا يستخف مولانا السلطان العادل بمطامع وزيره فانه قد جاهر
باستقلاله بمصر قبل موت الامام العاضد فكيف به الان ؟ فما على السلطان الا ان
يجرد عليه ويخضعه وانا في خدمته افديه بدمي »

فخلق السلطان نور الدين عينيه السوداوين وكاد الشرر يتطاير منهما لشدة
الغضب وقال « لو كنت صادقاً في نصيحك لملت الينا هذه الوشاية من قبل . فصبرك
عابها حتى الآن حجة عليك وعلى اصحابك المتأمرين . . انما انتم تأمرتم على خلع
طاعة نور الدين . . بل اردتم نقض بيعة الامام العباسي لانه سني . . وطمعتم باسترجاع
السيادة لانفسكم . . . » وكان يتكلم وهو مستلق واخذ يرتعد من الغضب فاعتدل يريد
الجلوس فاعانه الطيب على ذلك وندم على الاذن له في الكلام

فاخذ ابو الحسن يتنصل من تلك التهمة وقال « لم احسن التعبير عن مرادي
يا سيدي . اني اصدقك الخبر . ان ما قلته هو الصحيح . . نحن طائعون للسلطان
نور الدين و . . . »

قال « لو كنتم صادقين لاطعتم وزيرى ونائبي صلاح الدين . . لكنكم تعودتم التملق
والتذبذب . . ما الذي اساءكم به صلاح الدين ؟ الم ترسلوا الينا شعور نساءكم تستغيثون

بنا فانقدنا اليكم عمه شيركويه وقد انقذكم ؛ وهذا صلاح الدين اخذ العصيان واصلح البلاد وابطل الضرائب . فكان ينبغي ان تعرفوا له فضله ... ولكن قوماً يبالغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعور نساءهم لا يرجي منهم وفاء .. لا ازال اذ كرسوء وقع ذلك في مجلسنا يوم اتنا تلك الشعور في المناديل وقد عقد المجلس للنظر في طاب امامكم . وكان بين الغلمان شاب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور ان تقدم الي ان اعطيه خصلة منها حمراء ذهبية وكان مقرباً من صلاح الدين فدفعها اليه لارى ما يبدو منه . فلما تفرس فيها قال « ان صاحبة هذا الشعر الجميل لا تمهن وهي اما بنت الخليفة او اخته فاني معيده اليها . فاذنت له بالخصلة فاخذها في منديها ولا ادري اذا كان قد وفق الى ما اراد . . فكيف ترجو ان اتوقع منكم وفاء ؟ وقد جئتني الآن تريد الايقاع بيني وبين نائي . هب انه اراد الاستقلال بمصر فليأخذها هو فان البيعة واحدة ولا ترجع لكم . . » ولما بالغ الى هنا بان التعب عليه وحول وجهه عن ابي الحسن باحتقار وادار له ظهره وعاد الى الرقاد وهو يلهث من التعب .

اما ابو الحسن فحمد الدم في عروقه من الفشل واحس كأنك صببت عليه ماء بارداً . واخذ يرتعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه وقوع الصاعقة اعلمه انها من شعر سيدة الملك . فاشار اليه الطبيب ان يخرج حالاً لان السلطان اصابته نكسة بسبب الغضب . فخاف ابو الحسن ان يأمر السلطان بالقبض عليه فخرج مسرعاً واختفى في مكان لا يعرفه فيه احد ريثما يرى ما يكون

وفي الصباح التالي طاف المنادون في المدينة ينعون السلطان نور الدين (توفي في ١١ شوال سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سبب وفاته بعد ان تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فاصابته نوبة ذهبت بحياته . فاسقط في يد ابي الحسن وعمه الى الفرار وقد تولاه اليأس واطلمت الدنيا في عينيه

خرج من دمشق وهو يرغي ويزبد من شدة الغضب والخادم في ركابه لا يجسر على النظر اليه . حتى اذا مرَّ بالغوطة وصل الى عين ماء جارياً يظلمها ويحيط بها اشجار التفاح والسفرجل والمشمش وسائر انواع الفاكهة وقد دخل الربيع^(١) وتفتحت الازهار وتغنيت الاطيوار . والطبيعة باسمة ضاحكة الا ابا الحسن فانه لم يكن يرى شيئاً غير الفشل نصب عينه . وانما نبهته البغلة الى الوقوف هناك لانها رأت الماء جارياً فهاجها العطش فالت الى قناة الماء لتشرب . فانتبه ابو الحسن وقد صارت الشمس في الضحى

(١) يقع شهر شوال من تلك السنة (٥٦٩ هـ) في مايو ويونيو ١١٧٤ م (التقويم العام)

وهو في الخلاء لا رقيب عليه . فلاح له ان ينزل هناك ليسترخ فترجل وسلم البغلة الى الخادم يهتم بامرها . وتغلغل بين الاشجار على غفلة من البستاني لانهم لا يتوقعون نزول الناس هناك في مثل تلك الساعة

أما ابو الحسن فلما خلا بنفسه قعد الى جذع مشمسة تدلت اغصانها تحمل نوعاً من المشمش يفاخر به اهل الشام سائر المشرق ويعرف الآن بالمشمش الحموي ينضج في ابان الربيع وفيه لذة وفكاهة والناس يقصدون الغوطة للتمتع بمنظره وطعمه

اما ابو الحسن فلم يخطر بباله شيء من ذلك لكن اشراق الطبيعة اذ كره ماضيه واوضح له ماهو فيه فازداد انقباضاً . مكث برهة يفكر وهو في غفلة عن زقزقة العصافير وتطاييرها ومداعباتها وليس فيها من يخاف الفشل لانها مثل سائر الاحياء لا تطاب من الطبيعة غير ضروريات البقاء وهي ميسورة . اما الانسان فمن مطالبه ما لا ينال الا بالجهد والعناء وهو لا يبالي ان يرتكب في سبيل نيله انواع المحرمات

وبعد السكوت مدة نهته حشرة انسابت بجانبه بين العشب فالتفت الى ما يحرق به من جمال الطبيعة وبهائها فاتضح له الظلمة التي هو غارق فيها . ومرّ تاريخ حياته في خاطره مرور السهم فلم يزد الا انقباضاً وتبين له ان سبب هذا الشقاء انما هو رفض سيدة الملك له . فاشتدت نغمته عايمها واغتم غياب خادمه واخذ يناجي نفسه قائلاً :

« ويل لك يا لعينة . . تفضلين ذلك الغلام عليّ ؟ اما كان الافضل لك ان يكون ابو الحسن زوجك ويبقى هذا الملك لنا . كنت قادراً ان اقتل صلاح الدين ولم افعل لاني اريد ان استثمر تعبي بنفسي لا ان يستغله سواي . علمت انك تشكين في صحة نسبي ولا تعتقدين اني من بني عبيد الله . اصبت لست منهم ولكن شرف النسب وهم . . انما الرجال بالاعمال وقد انتحلت ذلك النسب لان الناس يحترمون به . وظننته يكون وسيلة اليك والى الملك فاما اوشكت الوصول الى الغرض عرقلت مساعي بغير سترك وتعلقك بذلك الخادم »

ثم اجفل لسقوط مشمسة وقعت على الحشيش اليابس فاحدثت حفيظاً فتحولت افكاره الى مجرى آخر . فتذكر صباه فقال « وانت يا راشد الدين قد آن الوقت لاستعين بك على هذه الفاجرة - لا لاتزوجها بل لاذيقها العذاب ثم اريها رأي العين سوء تصرفها فتندم حين لا ينفعها الندم » وكانه عزم على امر توسم النجاح فيه فارتاح باله وانقشعت السويدياء عن مخيلته وقد احس بالجوع فالتفت الى ما حوله فلم يجد احداً فصفق للخادم وناداه فاتي فاعزز اليه ان يأمر البستاني يهيء له طعاماً وفكاهة . فطاعه

فاكلا . وعاد ابو الحسن الى تدبير ماعزم عليه فلنتركه في تدبيره ولنبحث عن عماد الدين
فقد طال بنا السكوت عنه

الفصل الحادي والخمسون

في السجن

علمت من سياق الحديث ان عماد الدين لاقى في سفره عذاباً اذ قبض عليه الافرنج
بقرب بيت المقدس لاعتقادهم انه جاسوس وسجنوه مدة تعرف في اثنائها الى جرجس
هذا كما تقدم . ولم يكن جرجس مسيحياً كما قال وانما هو من كبار الفدائيين الاسماعيين
واسمه الحقيقي عبد الرحيم بعثه راشد الدين لقتل أموري الافرنجي صاحب بيت
المقدس . فتهكر باسم جرجس واحتال حتى جعلهم يقبضون عليه ويسجنونه ليتمكن
في اثناء سجنه من التعرف الى صغارا هل البلاط ويطلع على خفايا القصر بحيث يسهل
عليه الوصول الى غرضه . وعادة أولئك الفدائيين في تنفيذ امر مولاهم راشد الدين
ان احدهم اذا كلف بقتل احد الملوك جعل نفسه من اصغر خدمه . والغالب ان
يجعل نفسه سائساً لجواده ليتيسر له الاقتراب اليه عند الركوب والنزول فيغتم غفلة
منه يغرس بها خنجره في صدره

ففي اثناء اقامة عبد الرحيم (او جرجس) هذا في السجن تعرف الى عماد الدين
واحبه وتمكنت العلائق بينهما فكشفه عبد الرحيم بحقيقته وكيف انه مسلم وانه احتال
بالسجن ليتوصل الى غرضه ويقتل صاحب بيت المقدس بشارة مولا راشد الدين
واخذ يرغبه في هذه الطائفة وثبالة مقاصدها وشدة تأثيرها . فحمد عماد الدين السبب
الذي جرّه الى ذلك السجن لانه كان وسيلة الى هذا التعارف وسهل عليه مهمته .
فاظهر ارتياحه لذلك الرأي ووعده انه ينتظم في سلك الاسماعية بعد خروجه من
السجن وهو يضمن ان يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي جاء من اجلها
لقتل راشد الدين . وبذل جهده في اكتساب ثقة عبد الرحيم واطاعه في تغيير اسمه
فجعله عبد الجبار .

ايام السجن طويلة لانها خالية من العمل فيمل المسجونون الفراغ ويضطرون
لقضاء الوقت بالاحاديث او الالعب . فكان عبد الرحيم يقضي معظم الوقت في التحدث
عن راشد الدين وكراماته ومقدرته وكيف انه يعلم الغيب ويتنبأ عن المستقبل ويحدث

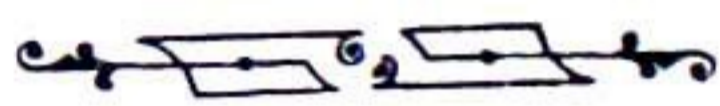
الاحجار ويأتي بالمعجزات. وانه يفعل ذلك لا لطمع في الدنيا وانما هو ينصر الاسلام .
 واستشهد على صحة قوله بالمهمة التي اتى هو بها لقتل صاحب بيت المقدس . وكان كلما
 ذكر واشد الدين نارت الحمية فيه وهاجت عواطفه واصبح كله السنة تنطق بفضائله .
 فكان لا قواله مع التكرار تأثير على عماد الدين فاصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة
 يمكن الاستعانة بها على الافرنج اذا تمكن من اكتساب صداقته . على ان ماسمعه من
 معجزات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته وسمائه حجب اليه الاطلاع على حقيقة ذلك
 تمكنت هذه الصحبة بينهما . ثم انتهت ايام عبد الرحيم في السجن وخرج واهل
 البلاط يحبونه ويرون بوجوده نفعاً لهم لانه مسيحي يعرف لغة البلاد وعاداتها . فقربوه
 وهو يبذل جهده في مرضاتهم توصلوا الى غرضه فلما دارت المخابرة بين الحزب العبيدي
 في القاهرة وبين الافرنج وانتهت بارسال الوفد اختاروه ليكون دليلاً . فذهب لوداع
 عماد الدين فاسرَّ اليه ما تقدم ذكره فبذل جهده في خدمة صديقه رغبة في ادخاله
 سلك الاسماعيلية لانه آنس فيه من الشجاعة والذكاء ما يندر مثاله وهم في حاجة
 الى الشجعان

فلما عاد من تلك المهمة توسط في اخراج عماد الدين من السجن وأبغى ثمره كتابه
 الى صلاح الدين وكيف انه قبض على المتأمرين وقتلهم صلباً الا ابا الحسن اخبره انه
 نجا . ثم دفع اليه كتاباً من صلاح الدين يثني فيه على حميته . وصدق مودته وبعث اليه
 مالا يستعين به

ثم اطلمعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة والجواهر . فتناولها
 واعطى قسماً منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقاً به — وليس كالسخاء يجب
 صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب . حتى جرى على السنة العامة قولهم
 « ما من عيب الا والكرم غطاء » فكيف اذا كان الكريم قليل العيوب او لا عيب
 فيه ؛ ولو علم الاغنياء ما يغطيه الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعثوا عنه —
 وكما يذهب الكرم بعيوب الاغنياء فالبخل يلصق بهم عيوباً ليست فيهم
 واسرع عماد الدين الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

« سلامٌ عليك يا عماد الدين • جاءنا صديقك وسرنا انك في صحة . ولكن ساءنا ما
 اصابك في السجن . على ان ما عرفناه من حب هذا الصديق لك وما يظهر فيه من
 المروءة والشهامة طمأننا عليك .. اننا نقيم الآن في دار الاضياف تحت رعاية السلطان
 صلاح الدين — انه شهم وقد اكرمنا غاية الاكرام . ويسرني ان اخبرك بانه جعل

مولاتي سيدة الملك اختاً له فهو يعاملها معاملة الاخث من كل وجه. وجاء ذكرك مرة امامه فاكثر من الثناء عليك وما يرجوه لك من المستقبل السعيد . انما ساء سيدي انك في السجن على ان صديقك جرجس بشرنا بقرب خروجك منه سالماً معافاً ، ولكن عظم علينا انك ستبطل في المحيء الينا . عجل ولا تقطع اخبارك وعليك السلام» فلما قرأ الكتاب احس بشيء جديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الافكار من جهة سيدة الملك لعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه . وراى من الجهة الثانية ما اظهرته من الميل اليه حتى اوشكت ان تقول له صريحاً انها عابثة له تتفانى في حبه . فوقع في حيرة وانما شغل عن ذلك بالاسفار وملاقاة الاخطار ليرى ما تأتي به الاقدار . فلما اطلع على كتاب ياقوتة وعلم ان صلاح الدين لا يريد الزواج بسيدة الملك ورأى عطفها عليه في ذلك الكتاب مع اختصاره احس انها له وحده . واضطربت نيران الحب في قلبه دفعة واحدة كأن لواعج تلك المدة كلها اجتمعت في ذلك اليوم وظهرت دفعة واحدة . فاصبحت صورة سيدة الملك نصب عينيه كيفما توجه وهو لا يزال يتذكر منظرها في تلك الليلة وهي واقفة تودعه وتتعجل نزوله في السرايب . ولم يكن يومئذ يشعر بشيء من تلك العواطف



الفصل الثاني والخمسون

السفر

وتذكر خصلة الشعر الحمراء وكيف تجاسر على طلبها من عماد الدين وهو غلام لا شأن له وكيف اذن له نور الدين ان يأخذها . ثم كيف وفق للاجتماع بصاحبها وهي في اشد الخطر فانقدها ودفع اليها الخصلة . مر ذلك كله بذهنه في لحظة فتحقق ان التقدير اعدت له هذه النعمة فاذا وفق الى اتمام مهمته بلغ اوج السعادة . فبدأ يشعر بالسعادة من ذلك الحين — ولا سعادة بدون الحب اختلف الناس في تعريف سعادة فجعلها بعضهم في المال وآخرون في الشهرة وآخرون في الصحة وذهبوا فيها مذاهب شتى ؛ لكن المحبين يعامون ان السعادة في تبادل المحبة بين حبيبين يرجوان بخافان يلتقيان ويفترقان وهما في كل حال في سعادة الاجتماع اما بالفعل أو بالامل . لا فرق في ذلك رافقهما الغنى أو الفقر الشهرة أو الضعة انهما سعيدان في كل حال شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يشعر به قبله . واصبح شديد الرغبة

في سرعة الرجوع الى القاهرة . وكان عبد الرحيم في خلال ذلك واقفاً يراقب حركات صديقه مخافة ان يكون في ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته وهو يحب ان يدخله في طغمة الاسماعيليه . وانتبه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه قاعداً بجانبه فقال له « اني أشكر ايها الصديق على هذه الخدمة الثمينه جزاك الله خيراً . »

قال « هذا واجب ادبته لا فضل لي به . وهل اذا اتيح لك ان اتخدمني مثل هذه الخدمة تتأخر ؟ »

فتارت النخوة في رأس عماد الدين وقال « افديك بروحي » ولم يقل ذلك حتى احس بشيء في داخله يعترض ذلك القول لانه شعر من تلك الساعة ان روحه ليست له او هو يود البقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء

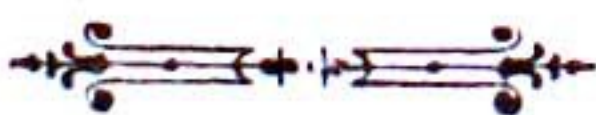
اما عبد الرحيم فاعجبه ذلك التعبير منه وقال « سترى من هو اولى مني بالفداء . ان الشيخ راشد الدين امامنا ومولانا نفديه كلنا بارواحنا . وستدوق هذه اللذة متى صرت واحداً منا . هل انت عازم على الدخول معنا في هذا الامر ؟ ام غيرك هذا الكتاب ؟ » وضحك .

قال « لم يغيرني شيء وما هي السبيل الى ذلك ؟ كيف اذهب والى اين وما هي الطريقة ارجو ان تساعدني وترشدني »

ففرح عبد الرحيم وقال « اني طوع ارادتك . ساعطيك كتاب توصية الى دبوس نائب مولانا الشيخ الاكبر وهو يقيم معه في قلعة مصيف من جبل السماق من اعمال حلب ثم الحق بك بنفسى — يمكنك السفر اليوم . هل تعرف الطرق ؟ » قال « اعرفها جيداً لاني ربيت في هذه البلاد »

فاخذ عبد الرحيم رقاو كتب فيه توصية الى الشيخ دبوس نائب شيخ الجبل فتناولها عماد الدين وودعه وركب جواده قاصداً جبل السماق . وهو جبل عظيم من اعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها للاسماعيلية وفيه بساتين ومزارع لكن المياه الجارية فيها قليلة الا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة ومع ذلك ينبت فيه جميع اشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسوسم

وقد اشتهر جبل السماق بالقلاع التي فيه للحشاشين الاسماعيليه وهي عديدة اشهرها مصيف وكهف والخوانبي وعليقه ومرقب والرصافة وغيرها . يهنا منها هنا مصيف وفيها يقيم زعيم الاسماعيليه راشد الدين وهي على مسافة ١٢ ساعة من حماة غرباً



الفصل الثالث والخمسون

قلعة مصياف

اشتهرت هذه القاعة في زمن الاسماعيية باقامة شيخ هذه الطائفة فيها . وهي واقعة على جبل مصياف وهو جبل شامخ يحيط به من الشرق والغرب مستنقعات واسعة . ينتهي من الشمال بقمة عالية فوقها قاعة منيعة هي مقر شيخ الاسماعيية ومن اسباب مناعتها انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها . وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كل ناحية . ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشعير . وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة (١)

اما القاعة فانها محاطة بسور غليظ ليس له الا باب سقفه عقد . متين اذا دخل الرجل منه سار في دهليز كله معقود يتصل من الداخل الى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف . وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى السور ابراج متلاصقة تقيم فيها الحامية ترمي الهاجين عليها بالسهم او الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل اخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والالوف

برح عماد الدين بيت المقدس على جواده . واه الى جبل السماق عدة طرق لكنه احب ان يمرّ بدمشق مرتع صباح وقد اشتاقت نفسه الى رؤيتها ومشاهدة بساكنها . فوصلها بعد بضعة ايام وكان وصوله اليها قبل وصول ابي الحسن بيومين وظل متنكراً لم يطع احداً على حقيقة حاله . لكنه طاف المدينة وزار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم . واتفق رجوع السلطان نور الدين من الميدان فراه عائداً على جواده وجوله الامراء والاعوان . ففرح برؤيته لكنه بذل جهده في التنكر لئلا يشعر به احد وهو يعلم ما بين نور الدين وصلاح الدين من الفتور ويود زواله لكنه يميل ان يكون مولاه صلاح الدين الرابع

قضى معظم النهار في دمشق — أكل من طعامها وفاكهتها وتمتع بمناظرها ومرّ عند خروجه بغوطتها ولعله مرّ في نفس المكان الذي اجتازه ابو الحسن بعد يومين . وبات تلك الليلة في قرية بضواحي دمشق . وقام في اليوم التالي قاصداً جبل السماق وبات الليلة

(1) Burckhardt; Travels in Syria and the Holy Land, London 1822 . 150

الثانية في بعض الخانات وقضى معظم اليوم التالي في الطريق وكان في امكانه الوصول الى مصياف في اصيل ذلك اليوم لكنه فضل الوصول اليها في الصباح التالي فبات في بعض القرى وركب في الصباح وبعد ساعتين اطل على جبل مصياف وعلى قمته القاعة تناطح السحاب . فهاله ما رآه من مناعتها ورسخ في اعتقاده انها امنع من عقاب الجو . ترجل هناك فجاءه شيخ من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد ظنه من كبار الاسماعيلية وهم يعهدون فيهم الشدة والقسوة . وكثيراً ما شهدوا القتال بينهم وبين من جاء لمهاجمتهم من الجنود الشامية او الجبالية او المصرية فضلاً عما يتناقلونه من كرامات الشيخ راشد الدين وهم يسمونه شيخ الجبل باسم الحسن بن الصباح مؤسس هذه الطغمة . حتى اوشكوا لفرط ما استولى عليهم من الاعتقاد بكرامته ان لا يحدث حادث غريب مخيف الا نسبوه اليه ولو كان من العوارض الطبيعية كالطر والرعد والبرق واصبح اسمه فزاعة لاعدائه وتعويذة لمريديه وكان هم عماد الدين عند وصوله ان يلقي الشيخ دبوس ويدفع اليه كتاب التوصية الذي يحمله من عبد الرحيم فلما جاءه ذلك الفلاح الشيخ سأله عماد الدين عن راشد الدين اين هو

فاجفل الرجل وتفرس في عماد الدين وقال « يظهر انك غريب عن هذه الديار يا سيدي ؟ »

قال « نعم »

قال « وما الذي جاء بك الى هنا وماذا تريد من شيخ الجبل ؟ »

قال « اني احمل كتاباً الى نائبه الشيخ دبوس »

قال « دبوس ! طيب . . ظننتك تطلب الشيخ راشد الدين نفسه فانه لا يطمع

احد برؤيته . . حتى اصحابه واعوانه انهم لا يرونه ولا يؤذن لاحد برؤيته الا في

بعض الاحوال الخصوصية »

فقال عماد الدين « وانت من انت يا عماد ؟ العلك من رجاله . . »

فقطع الشيخ كلامه قائلاً « حبذا ذلك . . ان مثلي لا يطمع بهذا الشرف ويكفينا

من جواره ان نقوم بخدمته بما نغرسه من الحنطة او نرعاه من المشية له ولرجاله في

مقابل بقائنا في قيد الحياة . »

قال « والان احب ان اقابل الشيخ دبوس فهل ذلك ميسور ؟ »

قال « لا ادري . اعطني الكتاب اذا شئت لاوصله الى بعض رجاله فيوصله اليه

ثم آتيك بالجواب »

فدفع اليه الكتاب فتناوله وركض نحو الجبل ومكث عماد الدين في انتظار عودته وقد امسك زمام فرسه بيده وادار بصره في ما يحيط به من السهل المستنقع وذلك الجبل الشامخ القائم في صدره وفوقه قلعة صياف وقد احرق بها السور والابراج . ولم يتهدر ان يتبين طريقاً يتصل به اليها كأن اهلها يصعدون اليها على اجنحة النسور أو في المناطيد . فهاله ذلك وتمثل له الخطر المحقق بمن ينوي براشد الدين شرّاً . لكنه ازداد رغبة في استطلاع احوال ذلك الرجل — فاما ان يفتك به او يقرب ما بينه وبين صلاح الدين

الفصل الرابع والخمسون

الشيخ دبوس

قضى في ذلك ساعة ثم رأى الشيخ الفلاح راجعاً ومعه شاب في لباس السعاة بالسراويل القصيرة حاسر الرأس حافي القدمين عاري الصدر كأنه من العفاريت . فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال « احب ان اقابل الشيخ دبوس ؟ » فدیده وفيها كتاب التوصية وقال « هذا هو كتابك وما هو اسمك ؟ » قال « عبد الجبار »

قال « وتريد ان تقابل الشيخ دبوس ؟ »

قال « نعم »

قال « اتبعني »

فتبعه ماشياً يقود فرسه والشاب يسير بين يديه وهو يتلفت اليه يجيل نظره فيه كالتمفرس . فاستغرب عماد الدين تلافته وتمفرسه ولو كان جباناً لوقع الرعب في قلبه ولكنه كان شجاعاً لا يعرف الخوف

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الجبل ف اشار اليه الشاب ان يترك الجواد هناك ويتبعه . فتردد عماد الدين لحظة فقال له « لا بد من ترك الجواد هنا والا فلرجع من حيث اتيت » فاطاعه ومشى في اثره في طرق متعرجة بعضها منقور في الصخر وبعضها سلام من الحجر يصعب تسلقها . والرجل يقفز بين يديه كالنمر لا يبالي بالتعب وعماد الدين تجاربه لئلا يظهر عليه الضعف وهو ابي النفس

وبعد الصعود ساعة في تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعة وهو غليظ متين، فوقف الشاب وأشار الى عماد الدين ان ينتظر وتقدم هو الى الباب ودقه دقا خصوصيا ففتح وكان لفتحه صريره شديدا . فدخل واغلق الباب وراءه وظل عماد الدين واقفاً ينظر الى ذلك البناء المنيع وهو لا يرى منه غير السور الغليظ وعليه الابراج . يلمح من شقوق الابراج او نوافدها الضيقة اناساً يذهبون ويحيئون كأنهم الحامية

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته وأشار الى عماد الدين ان يدخل فدخل من ذلك الباب تحت العقد الغليظ ومشى في دهليز طويل متعرج سقفه معقود وارضه من الصخر الخشن . وقد وقف الى جانبيه الحراس بالحراب والسيوف كأنهم اصنام لا يتحركون . فهاله ذلك المنظر لكنه تشدد وتجدد وصمم على الصبر الى النهاية

سار في ذلك الدهليز مسافة وانتهى منه الى منفذ يستطرق الى ساحة حولها ابواب مغلقة فأشار اليه الرسول ان يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه . ولما فتح تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتاب التوصية وتراجع وأشار اليه ان يدخل . فتقدم فرأى نفسه في حجرة بابها حراس بالحراب اشاروا اليه برؤوس الحراب ان يدخل فدخل . ثم وقف وتلفت فاذا هي غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وغطيت جدرانها بانواع الاسلحة . وفي جوانبها ضروب من آلات العذاب كالقيود والاعلال . وحول جدرانها مقاعد من الحجر المنحوت في ذلك الصخر فوقها غطاء من جلود الدب والاسد . وليس في تلك الحجرة حينئذ احد غير الشيخ دبوس رآه جالسا في صدر الحجرة على جانب من ذلك المقعد وعليه جبة تكسوه كله وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة فالتقى التحية وقال « ألي في حضرة الشيخ دبوس ؟ »

فأشار الشيخ برأسه ان « نعم » واوماً اليه ان يتقدم ويعطيه الكتاب ففعل فتناوله وفضه وقرأه . ولما فرغ من قراءته اوماً الى عماد الدين ان يجلس وهو يقول « ان وئدنا عبد الرحيم يوصينا بك خيراً . . . تفضل يا عبد الجبار اقعد »

فقعده على طرف المقعد وهو ينتظر ما يكون فقال له دبوس « يقول لنا عبد الرحيم ، انك تطلب نعمة القربى من شيخنا وامامنا راشد الدين »

قال « نعم يا سيدي، فهل هذا ميسور لي ؟ »

فاطرق يفكر ثم قال « انه ميسور على شروط »

قال « وما هي يا سيدي ؟ »

قال « اعلم يا عبد الجبار انك قبل كل شيء ، ينبغي ان تنقي قلبك وتصفي نيتك

وتستسلم الى هذا الامر بكليتك . هل انت فاعل ذلك ؟ »
قال « نعم »

قال « احذر ان تخدع نفسك فاني لا اقدر ان اعرف خفايا قلبك ولكن المولى الشيخ الاكبر لا تخفى عليه خافية . . انه فاحص القلوب اذا نظر في عينيك عرف مكنونات قلبك . فاذا كنت في شك من نيتك واستسلامك ارجع من هنا ولا تعرض نفسك للخطر . . اني انصح لك ببناء على ما قرأته في كتاب التوصية من الثناء على شجاعتك وصدأقتك . . واما اذا كنت قد أوتيت النعمة والهمت الانتظام في هذا السلك والحصول على العهد فقد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة . . وانا تاركك يوماً كاملاً تفحص فيه ضميرك وتخبرني بما يقرُّ عليه رأيك »

فوقع كلام الشيخ من نفسه وقعاً شديداً وغاب عليه التردد وقام في اعتقاده صدق ما سمعه عن شيخ الجبل من استطلاع خفايا القلوب . ولكنه تجدد واطهر الثبات في عزمه وقال « اني على ما قلت وسأصبر يوماً آخر حسب امرك وأجيبك »

فهز رأسه استحساناً وقال له « فاخاع ما عليك من السلاح وهات ما عندك من الادوات او النقود او غيرها — تلك عادتنا في مثل هذه الحال ولا يخامرك شك في ما افعل فان هذه الاشياء تبقى عندي باسمك »

فعضم هذا الطالب عليه وعنده الجواهر . وقد شق عليه ان يفارق خنجره ويبقى اعزل فتوقف حيناً ولم يجب

فقال له دبوس « اعلم يا بني ان طالب الحصول على عهد مولانا الشيخ لا بد له من الاستسلام لكل ما يؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك في الدخول او عدمه عملاً بتوصية عبد الرحيم لانه ذو مقام عندنا . فاذا رأيت العدول عن عزمك رددنا اشياءك اليك » فلم يرَ بداً من الطاعة لانه لم يوفق الى دفاع فهد يده واستخرج خنجره

منطقته ودفعه اليه . ثم استخرج ما كان عنده من الجواهر او النقود ودفع كل ذلك الى دبوس وقد احس بالخوف من الخديعة لكنه اطمأن نوعاً لما رأى الشيخ يبش له وقد وضع اشياءه كلها في منديل واخناه في حفرة باسفل المقعد . واوماً اليه ان يخرج الى غرفة أخرى يستريح فيها . فخرج وقاده احد الحراس الى حجرة خلا فيها بنفسه واخذ ينكر في ما سمعه وتحقق الخطر الذي اوقع نفسه فيه واصبح لا يعرف ماذا يعمل — أبعاد عن مهمته بعد ان وعد صلاح الدين بها او يعرض نفسه للخطر بالدخول .

وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وما هو شائع من

هيئته واقتداره فوق في حيرة لان رجوعه عنها يحط من قدره عند صلاح الدين وعند
حيييته او على الاقل يخط قدره عند نفسه فانرا لا تطاوعه على الجبن . ودخوله
يعرضه للقتل او لخيانة صلاح الدين

وكان يفكر في ذلك وهو يمشي في تلك الحجره وليس فيها شيء من الاثاث سوى
حصير وبساط قديم فاطل من نافذة صغيرة فاشرف على ما يحيط بجين مصيف من
المستنقعات والسهول والروابي والودية الى مسافة بعيدة . واستغرق في افكاره حتى
نسي موقفه . ثم اجفل لانه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى رجلاً كالخادم اتاه
بالطعام ودعاه الى الاكل وخرج . فاشار عماد الدين شاكراً وعاد الى تفكيره ونفسه لا
تطلب الطعام لفرط اهتمامه . وقلقه وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره في ذلك الفضاء
الى سور مال يحيط بواد لا يظهر منه غير السور فظنه قاعة او حصناً يابجأ اليه
الاسماعيليون عند الاضطرار

- * - - * -

الفصل الخامس والخمسون

المعجزة

وعاد الى هواجسه وهي تتعاضم وتتكاثر حتى ضاق صدره من كثرة التردد ودو
الى تلك الساعة لم يذق طعاماً . فاحس بالجوع فتحول نحو الطعام الذي اتوه به وهو
قاصر على بعض الأثمار وشيء من الخبز واللحم . فمد يده الى الرغيف وكان شيئاً
ارجعها عنه وخطر له سوء الظن فقال في نفسه « قد يكون هذا الطعام مسموماً » ثم
تذكر صديقه عبد الرحيم وتوصيته لدبوس فغلب عليه حسن الظن واكل سايسد
ومقه واقتصر على الأثمار لانها ابعده ما يكون عن التسميم
وهو يأكل سمع ضوضاء في الساحة فهض ونظر من الباب فرأى جماعة من اهل
القاعة وفيهم الحراس والاجناد يتهايمسون ويتضحكون والبشر ظاهر في وجوههم .
ينحاف ان يكون لذلك علاقة بوجوده هناك او ربما كان عليه خطر . فاصاح بسمعه
واذا هم يتكلمون لغات مختلفة لان رجال الاسماعيلية اخلاط من أمم شتى وفيهم
العربي والتركي والفارسي والكردي والشركسي يتكلمون كل هذه اللغات وانما تغلب
العربية على سنتهم

وبعد التمنت واعمال الفكرة سمعهم يذكرون الساطان نور الدين وكانهم يذكرون

موته فغالط سمعه ولم يعباً به لانه فارق السلطان منذ يومين بصحة وراه تامة عائداً من الميدان على جواده كالاسد . واعتقد انهم يشيعون ذلك رغبة في اجتماع كلمتهم . وهو يفكر في ذلك جاءه رسول من الشيخ دبوس يدعو اليه فاسرع في اثره الى مجلس دبوس فراه قاعداً في صدر الغرفة وبين يديه جماعة من الامراء بلباس متشابه وعلى رؤوسهم العمامة تقرب من عمامة دبوس . فغلب على اعتقاده انهم من رجاله وكلهم مستبشرون ضاحكون

فلما وقف عماد الدين امامهم خاطبه دبوس قائلاً « انت قادم من بيت المقدس ؟ » قال « نعم »

قال « الم تجعل طريقك على دمشق ؟ »

قال « بلى »

قال « كيف كان سلطانها الاتابك نور الدين هل شاهده ؟ »

قال « نعم شاهده على جواده عائداً من الميدان نحو الظهر »

قال « ومتى كان ذلك ؟ »

فاطرق عماد الدين وهو يحسب الوقت ثم قال « منذ يومين وبعض اليوم »

قال « لكنه مات في هذا الصباح رحمه الله »

فاجفل وبانت البغته في وجهه وقال « مات ! هل انتم على ثقة من ذلك ؟ لا اظن الخبر صادقاً .. ثم كيف يموت في هذا الصباح ويصل خبره الى هنا الآن وبيننا وبين دمشق اكثر من يومين ؟ »

فضحك ضحكة استخفاف وضحك الجلوس معه وهم يتلفتون بعضهم الى بعض ثم قال دبوس « لا لوم عليك يا بني وانت لا تعرف مصدر هذا الخبر . انه لم يأتنا بالبريد وانما هو وحي هبط على مولانا الامام الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته وكراماته — كذلك فعل يوم مات الامام العاضد بمصر فقد جاءه علمه في يوم موته — ومصر ابعد من دمشق . وكذلك خبر المؤامرة التي قتل فيها عمارة واصحابه » ثم نظر الى الجلوس كانه يستشدهم فبدت على وجوههم امارات المصادقة

فدهش عماد الدين ومع ذلك ما زال يظن في الامر خداعاً للايهام وان نور الدين لم يمت وقال في نفسه « اذا ثبت موته بورود المرسوم من دمشق على جاري العادة فان لهذا الشيخ لسناً عظيماً »

ولحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال له « لا تستغرب ما تسمعه يا بني انك

اذا تمت النعمة عليك ووفقت الى الدخول في طريقنا رأيت اعجب من ذلك . ان مولانا الشيخ الاكبر يخاطب الحجارة فتجيبه حتى الميت اذا كلمه اجابه في الحال » والتفت الى القوم وقال « وازيدكم بياناً ان مولانا الشيخ حرسه الله اخبرني عن سبب موت هذا السلطان قال انه توفي بعاة الخوانيق » ثم حول نظره الى عماد الدين وقال « ونحن مهلوك الى الغد ريثما يأتي المرسوم اذا شئت »

فوقع عماد الدين في حيرة عظيمة مما سمعه وراه واوشك ان يعتقد بكرامات راشد الدين . لكنه تمهل الى ورود المرسوم وعظم امر هذا الشيخ في نفسه . فقال له دبوس « تفضل يا بني الى غرفتك حتى يستقر رأيك وانا انما دعوتك لعلمي انك قادم من دمشق لعلمك عامت شيئاً من مقدمات موت نور الدين . ولتعلم ايضاً ان صديقك عبد الرحيم اخلص النصح لك . اتم الله نعمته عليك وعليه لانه هو ايضاً مرشح للارتقاء في هذه النعمة اذ ينال المجتهد فيها نصيبه — هذا كلام لا تفهمه الآن ولكن سوف تفهمه . تفضل . » و اشار اليه ان ينصرف

فعاد الى غرفته وهو كالغائب عن الرشيد لا يعرف كيف يعال ما يشاهده من الغرائب المدهشة . وعزم في سره اذا صححت نبوته عن موت نور الدين ان يلتبس الدخول في تلك الطغمة بلا تردد . وود لو كان صديقه عبد الرحيم هناك ليستفهمه عن بعض ما اشكل عليه ويستزيده بياناً

*** ❦ ***

الفصل السادس والخمسون

عبد الرحيم

بانت تلك الليلة كالتائه في البحران وتوالت عاياه الاحلام وافاق في الصباح عى نقر باب حجرته . فدعر وجلس حالاً فاذا بصديقه عبد الرحيم واقف بين يديه فاحس عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خف قلقه واطمان باله كانه لقي اباه او اخاه . واستأنس به كثيراً فاكب عليه وعانقه واوشك الدمع يتساقط من عينيه لشدة التأثر فعانقه عبد الرحيم وهو يبتسم وقال له « يظهر من تلهفك لملاقاتي انك كنت في ضيق »

قال « لم اكن في ضيق ولكنني متردد في امور لا ارى لي فرجاً الا على يدك . واشعر انك اخي او ابي والتي انكالي عليك وهناك اشياء احب ان استشيرك فيها »

فهنس له عبد الرحيم مطمئناً . فإشار اليه عبد الجبار قائلاً « اقعد .. من اين انت آت ؟ »

فقعد وهو يقول « اني آت من عند الشيخ دبوس وقد قص علي ما اعجبه من ذكائك وشجاعتك . وانه تلتطف في معاملتك وامهلك حتى تفكر في امرك »
قال « نعم ، وهذا ما احب الاستفهام منك عنه .. ادهشني امره لم اقدر على تفسيره »

قال « وما هو ؟ »

قال « اخبرني الشيخ دبوس في ظهر الامس ان السلطان نور الدين صاحب دمشق مات في الصباح . وانا رأيتُه بعيني قبل ذلك بيومين راكباً على جواده سليماً معافى والصحة تتجلى في وجهه بعد ان قضى يومه مع سائر رجال دولته في السباق »
فقال عبد الرحيم « هذا كله صحيح — نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحاً معافى لكنه لم يصل القلعة حتى احس بالحمى في حلقه ظهر بالفحص انه الخوانيق »

فاطرق عماد الدين وقد بانت الدهشة في عينيه وهان عليه اثر يصاب نور الدين بالخوانيق على اثر رؤيته اياه على جواده فقال « يظهر ان المرض جاءه شديداً فلم يمهاه طويلاً . لكن اذا فرضنا وقوع ذلك فعلاً ومات نور الدين صباحاً فكيف وصل الخبر الى هنا قبل الظهر ؟ »

فضحك عبد الرحيم وقال « ان ذلك يا عبد الجبار من كرامات مولانا الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته . ألم اقل لك شيئاً من ذلك ونحن في بيت المقدس ؟ انه طالما انبأنا بالاخبار حال وقوعها ولو كان بيننا وبينها مسافة ايام وليس هذه اعجب كراماته كما سترى . وهل تظن سطوته وقوة نفوذه لا اساس لهما ؟ كيف يخضع له الالوف من الناس وفيهم العقلاء والحكماء ان لم يروا فيه ما يستحق ذلك ؟ اتعلم ان اتباعه اليوم يزيدون على ستين الفاً من نخبة الناس وفيهم الشجعان والابطال والقواد وكل واحد منهم طوع ارادته يبذل نفسه في طاعته . اتظن ذلك يقع عفواً بلا استحقاق ؟ »

فقال عماد الدين « انت تشير علي اذا ان ابقى على عزمي .. »

قال « هذه نصيحتي لك »

قال « انهم اخذوا مني نقودي وسلاحي »

قال « لا خوف عليها . فاذا رجعت عن هذا الامر ان اضمن ارجاعها اليك ! ولا اظنك راجعاً عنه ولا سيما بعد ان ترى الشيخ الاكبر نفسه وتسمع اقواله وتختبر

كراماته .. انها كثيرة انما ... » وسكت كانه اراد ان يقول شيئاً وندم عليه
فقال عماد الدين « اراك تتردد في نصحي »

قال « معاذ الله يا اخي .. انت تعلم اننا تحاببنا وتصادقنا لغير غرض سوى تقارب
القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تضم خيرة الشجعان وذوي البسالة رأيتك اهلاً للارتظام
في سلكها . وسوف تحمد مغبة نصحي . لكنني اتردد في امر احببت ان ابيح به لك
تخفيفاً من قلقك .. لكنه محذور علي . فسكت »

قال « اذا اطلعتني على شيء يخفف قلتي ضاعفت فضلك ولا يعلم به احد ..
اعاهدك على ذلك »

قال وهو يخفض صوته « متى رضيت الدخول فانهم يمتحنونك باشيء لا يصبر عليها
الا الشجاع ثابت الجأش وانت كذلك . لكنني احببت ان ازيدك اطمئناناً ان ما
يظهر لك من تلك التجارب خطراً أو مستحيلاً ليس هو في الحقيقة الا ظاهرة لا
طائل تحتها وانما يراد بها امتحان شجاعة الطالب . فمهما طلب منك ان تعمله اعمله
ولا تخف .. لا اقدر ان افصح لك اكثر من ذلك .. »

فقال عماد الدين « يمتحنون شجاعتي ؟ فليمتحنوا .. لا ابالي وانت تعلم ذلك
ولكنني احب ان اعرف شيئاً آخر . هل تطلعني على حقيقته ؟ »
قال « قل ما تريد لعلني استطيع »

قال « كل ما اعرفه من امر هذه الطائفة ان زعيمها راشد الدين رجل حكيم
ذو كرامات وان اتباعه يطيعونه طاعة عمياء يبذلون انفسهم في طاعته . لكنني لا اعلم ما
يناله اولئك الاتباع من المكافأة . وهل هم درجة واحدة او درجات فقد رأيت بعضهم
كالخدم او الجند وآخرين كالامراء وهذا دبوس كالملاك . فما هو نظام هذه الطائفة او
الدولة انما غريبة في بابها .. »

قال « صدقت ان نظامها غريب لم ينسج على منواله ولا بأس من ان اقص عليك
خبر هذا النظام باختصار . اعلم يا عبد الجبار ان جماعتنا هذه التي ارجبت العالم بتدبيرها
وبسالة شبانها مؤلفة من طبقتين الفدائيين والمستنيرين وفوقهما الزعماء واصحاب
الاسرار الحقيقية . واول ما يدخل الاسماعيلي يكون فدائياً فاذا استحق الترقى صار
مستنيراً .. انا لا ازال الى اليوم من الفدائيين (الفداوية) .. »

فقطع عبد الجبار كلامه قائلاً « اذا دخلت انا غداً اكون مثلك ؟ »

قال « نعم . لكنني الآن مرشح لنيل العهد فاصير مستنيراً عن قريب .. لان

مهمتي التي ذهبت بها الى بيت المقدس، كانت آخر تجربة في سبيل الترقى وقد جئت الى هنا لكي اقبل السر الجديد في طبقة المستنيرين «
قال « بماذا استحققت هذا الترقى ؟ »

قال « استحققيته بصدق الخدمة في مصلحة الجماعة وبذل النفس في سبيل الطاعة . ولا بد لكل فدائي ان يفعل ذلك قبل ان يصير مستنيراً . واما انت فارجو ان يسرع ترقيك لانك اهل لذلك بما فطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس في طلاب الانتظام كثيرون مثلك ولذلك فارجو ان ترتقي على عجل »

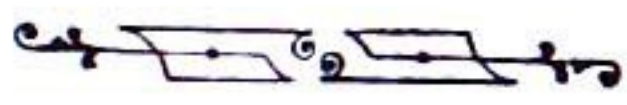
فاطرق عماد الدين (او عبد الجبار) حيناً يفكر في امره وفي اصل مهمته وما خافه وراه في مصر من البواعث التي تقضي بسرعة عودته ولا سيما سيدة الملك . فانها اصبحت منذ رجوع رسوله من عندها لا تبرح من باله . لكنه اطمأن عليها وهي في كنف صلاح الدين . ولحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له « لا حاجة الى التردد ان دخولك في هذا السلك اصبحت امراً مقضياً ولا بأس عليك منه . لكنني احب ان تؤخره الى مجيء المرسوم من دمشق بموت السلطان نور الدين . وتناً كد كرامة امامنا راشد الدين قبل الدخول في طاعته . . . »

فجعل عماد الدين عند سماعه ذلك لانه كان يفكر فيه ويخشى ان يقوله لئلا يدل على ضعف الثقة فبادر الى الجواب قائلاً « اني واثق بما سمعته رغم غرابته عندي »
قال « ليس هو غريباً عايننا وسترى ما هو اعظم منه . . والآن استرح وكن مطمئناً انك اذا عدلت عن الدخول لا يصيبك اذى ومولانا الشيخ الاكبر لا يقبل كل من يطلب الانضمام واذا شئت ان تتحقق قولي تعال معي لاريك جماعة من اولئك الطلاب »
قال ذلك ونهض . فتبعه عماد الدين والدهشة غالبية على عقبيه

فسارا في طريق ضيق في شعب ذلك الجبل الى ساحة سمعا فيها الضوضاء قبل ان يصلوها . فوقفا واصاخ عماد الدين بسمعه . فسمع عرْبدة وغوغاء باغات مختلفة وغانات متفاوتة . ثم مشى به حتى اطل من وراء حائط على بقعة ازدحم فيها الرجال جماعات بين جلوس يتسامرون او وقوف يتخاصمون واكثرهم في حال الخشونة تدل ملامحهم وثيابهم على الوحشية . فقال عبد الرحيم « انظر يا اخي . . هؤلاء هم طلاب الدخول وانت ترى الوحشية والهرَبدة وسفك الدماء في ملامحهم . وقد اشهرت جماعتنا هذه بالفتك فكل من يهون عليه قتل الابرياء ويضيق به الرزق يأتي الينا . ولكن غرضنا اسمى من ذلك على ما اظن وان كنت الي الساعة لم اطلع على سره الحقيقي .

فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى . وهم هنا منذ ايام لم يحفل الشيخ دبوس بهم ولا
افئنه يجب طلب غير القليلين منهم . اما انت فقد علم امتيازك عنهم ولهذا السبب ارجو
ان لا يبطيء في ترقية الى طبقة المستيرين »

وهما في ذلك رايا رجلاً كردياً من اولئك وقف وبيده جمجمة صلبة فيها خمراً وتمايل
عجباً ثم شربها وهو يزدرى برفاقه ويفاخرهم ببسالته وخشونته . فغضب واحد من رفاقه
الاتراك فهزأ به ولطم تلك الجمجمة بقفا يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الخمر على
الارض . فضحك الرفاق وقهقهوا وقد اعجبهم عمل ذلك التركي . فلم يصبر الكردي على
الاهانة فاستل خنجره وطعن التركي طعنة قضت عليه . فهم الآخرون ان ينتقموا له
فصاح بهم عبد الرحيم واوقفهم وهددهم واثار الى بعض الحرس ان يقبض على القاتل .
ففعل ريثما يرفع امره الى الشيخ الاعظم



الفصل السابع والخمسون

راشد الدين

ولم يزد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه . فرجع الى حجرتة وذهب
عبد الرحيم لشأنه . واتاه في اليوم التالي وقد جاء المرسوم من صاحب الشام بوفاة نور
الدين بالخانوق في الوقت الذي رواه شيخ الجبل . وقرأه الشيخ دبوس على مسمع من
الاسماعيلية . فاقر عماد الدين على الدخول في ذلك السلك — ولا بد له من ذلك
للقيام بالمهمة التي جاء من أجاها وقد تبرع بين يدي صلاح الدين بقتل راشد الدين
وربما علمت سيدة الملك بعزمه فكيف يعود بخفي حنين ؟ على ان ما شاهده من مقام
الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة لكنه صمم على القيام بها . وكان يتردد في الدخول
لعله يستطيع تنفيذ المهمة وهو خارج تلك الطغمة فلم ير له بداً من الدخول ليستطيع
الاقتراب من ذلك الشيخ الامام ويغرس خنجره فيه

وفي اليوم التالي أصبح عماد الدين وهو على موعد من الدخول على الشيخ الاكبر

لينضم الى جماعة الفدائيين . وكان كلما فكر في ذلك اختلج قلبه في صدره . وبعد قليل

جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تشجيعاً وطمأنة فقال عماد الدين « هل اذهب

الآن الى الشيخ الاكبر ام الى الشيخ دبوس ؟ »

قال « لا بد من الذهاب الى الشيخ الاكبر بواسطة الشيخ دبوس .. فهل انت متأهب لذلك ؟ »

قال « نعم » واكبران يظهر الوجه فقال عبد الرحيم « هلم بنا الى الشيخ دبوس » فمشيا حتى دخلا عليه واطلعه عبد الرحيم على الغرض . فوجه كلامه الى عماد الدين قائلاً « هل انت مصمم يا عبد الجبار على الانضمام الينا . ؟ »

قال « نعم ياسيدي » فامرته ان ينزع ثيابه التي عليه ويرتدي بثوب ابيض كالقميص الكبير دفعه اليه . فلبسه فجله الى عقبه . ثم امره فنزع عمامته وحل شعره وكان طويلاً فارسله على كتفيه . و اشار عبد الرحيم اليه ان يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبل يده ففعل . ثم اوماً اليه ان يتبعه فمشى في دهاليز وطرقات الحرس وقوف في جوانبها بالحراب . حتى اطلت على رواق يؤدي الى باب كبير عليه ستر وبجانيه حارسان عظيمي الهامة كانهما من الجان . فلما اقترب عبد الرحيم منهما اوماً اليهما بالإشارة (لانهما اخرسان) ان يأذنا له بالدخول وهما يعرفانه فاذا له واستبقيا عبد الجبار خارجاً . فوقف وهو مطرق يتردد بين الندم والعزيمة . واذا بصديقه قعداد وقال له « ان الشيخ مشغل بمحاكمة الكردي القاتل لكنه اذن لنا بالدخول »

ومشى فتبعه عماد الدين فدخلا قاعة مظلمة في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه الشيخ الاكبر والى جانبيه رجال من خاصته جلوس وقد غطوا وجوههم وليس فيهم مكشوف الوجه غير راشد الدين . ولم يستطع عماد الدين ان يتعرف الوجوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود نظره الظلمة . فرأى ذلك الكردي واقفاً وهو موثق اليدين ، وفي وسط القاعة جثة التمثيل ملطخة بالدماء . ف اشار عبد الرحيم الى عماد الدين ان يقف معه في ناحية ففعل

واخذ يتفحص برأسه الدين فاذا هو مكسو برداء اسود يغطيه كله الا وجهه . وقد بانت الشيوخوخة في ذلك الوجه بتجمعه وبياض لحيته . لكن عينيه تبرقان كالسراجين يكاد الشرر يتطاير منهما . وما عم ان صاح راشد الدين بذلك الكردي قائلاً « اتجسبر يا هذا ان تقتل نفساً في جوارنا ؟ »

فصاح الرجل « اني لم اقتله يا مولاي وانما هم يتهموني زوراً ؟ » قال « وتكذب ايضاً ؟ . اتحسب ذلك ينطلي علينا . الا نعلم اننا نفحص القلوب ونعرف اسرارها ؟ »

فعاد الرجل الى الانكار وقال « انهم يتهمونني يا سيدي زوراً . . اذا شئت ان آتي بالشهود او اقسم لك ببراءتي فعات »

قال « لا حاجة بنا الى شهود او قسم انا اسأل هذا القتيل وهو ينبئني بالحقيقة »
فلما قال ذلك اجفل عماد الدين ونظر فراى راشد الدين قد وقف وانتصب كالصنم ثم خطا خطوة نحو القتيل وصاح به وهو يشير اليه باصبعه كانه يهدده « الم يقتلك هذا الكردي ؟ قل ! »

وكان السكوت مستولياً على الحضور وقلوبهم تخفق تطلعاً الى ما يكون فسمعوا القتيل يقول بصوت ضعيف « بلى هو قتلي »
فسأله ثانياً « بماذا قتلك ؟ »
فاجاب « بخنجره »

فلما سمع عماد الدين ذلك اقشعر بدنه . . كيف لا وقد سمع الميت يتكلم وهو على نقه من تلك الحادثة لانه رآها بنفسه . اما راشد الدين فرجع الى مقعده و اشار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله ان يذهبوا بالرجل الى السجن وان يدفنوا القتيل ففعلوا . وقد استولت الدهشة على الحضور ولا سيما عماد الدين وبعد قليل اشار راشد الدين الى الوقوف في مجلسه بالانصراف ولم يبق غير بعض خاصته المثلثين . واوماً الى عبد الرحيم ان يقدم عبد الجبار . فقاده بيد حتى اوقفه بين يديه فوقف وركبته تترعدان من التهييب وقد عظم امر راشد الدين في خاطره فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلاً « وانت يا عبد الجبار أرجو ان تصدقنا ولا تفعل كما فعل هذا الكردي . . انت كردي أيضاً لكني اقرأ في وجهك الصدق — انت تطلب الانضمام الى رجالنا ؟ »

قال « نعم يا سيدي ؟ »

قال « وهل تعلم ما انت مقدم عليه من الامر العظيم ؟ »

قال « نعم »

قال « لا تخدع نفسك . . اذا كنت متردداً او خائفاً ارجع من حيث اتيت . ونحن انما نطلب رجالاً اهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذي يحدق بك ؟ »

قال « نعم »

فتنحى وقال « ما الذي حملك على هذا الامر ؟ »

قال « ان اشرف بخدمة مولانا الشيخ الاعظم »

قال « من اين اتيت ؟ »

قال « من بيت المقدس » وخاف ان يسأله عن حقيقة غرضه فينكشف امره ويقع في خطر الموت فارتعدت فرائصه لكنه تجلد وصبر

فقال له راشد الدين « انا اعلم انك قادم من بيت المقدس الآن ولكنني احب ان تخبرني عن المكان الذي جئت منه قبل بيت المقدس .. »

فتحير في الجواب وسكت وهو يفكر في هل يصدقه ام لا . وخاف ان تكون كرامة راشد الدين دلته على حقيقة غرضه الذي جاء من اجله فتلعثم لسانه . فلم يصبر راشد الدين عليه فقال « يظهر انك خائف .. لا تخف يا بني .. انك شاب شهم ولست من طبقة أولئك الزعانف الجهلاء .. نالا اكلذك ان تقول شيئاً وانما استفهم بشعرة من شعرك وهي تنبئني » وأشار الى عبد الرحيم ان يأتيه بشعرة من ذؤابة عماد الدين فجاء بها فتناوها بين السبابة والابهام ومد يده وجعل يخاطب الشعرة قائلاً « يا شعرة عبد الجبار قولي لي اين كان صاحبك قبل بيت المقدس ؟ »

فسمع عماد الدين الجواب آتياً من ناحية الشعرة ضعيفاً كأنه صادر عن وتررنان وهو « من القاهرة »

فقال « قولي لي اين كان صاحبك هناك ومن هو ؟ »

فقلت « كان عند يوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصته »

فلما سمع عماد الدين ذلك اوشك ان يسقط على الارض من الارتعاد واطرق لا يحير جواباً . وخاف ان يواصل الاسئلة ويطلع على سر قدومه الى هناك ... مرت عليه دقيقتان هما اطول من سنة . ثم رأى راشد الدين تهدي عند سماعه اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقال « صلاح الدين يوسف ؟ . اطال الله بقاءه »

فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله لكنه ظل ساكناً . فقال راشد الدين « كيف فارقت صلاح الدين .. هل هو في صحة وسلامة ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قال « الحمد لله على ذلك .. » ولحظ عماد الدين تغيراً في وجه راشد الدين لم يفهم سببه . ولكنه ما زال خائفاً من افتضاح امره حتى سمع راشد الدين يخاطبه قائلاً « احمد الله على سلامة صلاح الدين .. والان هل انت مصمم على الانضمام الى رجالنا ؟ »

فقال « نعم يامولاي »

قال « اتعلم ماذا يطلب منك ؟ »

قال « كلا .. لكنني طوع امر مولانا بما يريد »

فابتسم راشد الدين ابتسامة لم تغير شيئاً من انقباض سحنته وقال « اعجبني جوابك يا عبد الجبار . وانت اذا اتيح لك ان تكون من رجالنا كسبت الدنيا والآخرة . لكن ذلك ليس بالامر الهين ... » قال ذلك ووقف وأشار اليه ان يتبعه فتبعه وهو يترق النظر الى عبد الرحيم استئناساً برأيه ولو بالإشارة . فرآه يشجعه ويطمئنه . حتى وصل راشد الدين الى جانب من جوانب تلك القاعة الواسعة المظلمة فوقف وقال لعهاد الدين « انظر هنا » واوماً بأصبعه الى حفرة بين يديه

فنظر فاذا هو على شفا هوة لا قرار لها . فقال له « اذا كنت صادقاً في ما تقوله

اللق نفسك في هذه الهوة »

فاعاد النظر اليها فلم يشك انه اذا اطاعه قتل لا محالة . فالتفت الى عبد الرحيم خلسة فاذا هو يشجعه ويشير اليه بعينه ان يخطو . وهو واثق بصدق صديقه لكنه خاف ان يكون في الامر دسيسة وان راشد الدين اطاع على حقيقة مهمته فاراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر ما نهى اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف او التردد فسبقت قدمه الى الوثوب نحو فوهة تلك الهوة مدفوعاً بوعدده وشجاعته . فاذا هو قد تلقتة عارضة برزت وغطت تلك الفوهة وفتحت فوهة أخرى في المكان الذي كان واقفاً عليه . فلم يصدق انه لا يزال حياً

اما راشد الدين فامسكه بيده وهو يقول « الآن تأكدت صدقك . ولو لم تصدقني لقتلت لان فوهة الهوة تحولت الى موقفك الاول » وأشار اليه ان يتحول نحو القاعة وهو يقول « قد استحققت النعمة التي تطلبها .. انك منذ الآن من ابنائنا الصالحين » وعاد راشد الدين الى مجلسه وأشار الى واحد من الخدم الوقوف بين يديه بالإشارة ان يأتيه بقدر فاتاه به فتناوله وصب فيها سائلاً من اناء بجانبه وقال « هذا ماء الحياة وطريق النعيم اذا كنت صادقاً مخلصاً وهو سم قاتل اذا كنت كاذباً . فاذا كنت على وعدك بالطاعة وصدق النية اشربه »

فتناوله وتردد لحظة وهو ينظر الى صديقه عبد الرحيم فرآه يشجعه فشرب ما

في القدح واوماً اليه الشيخ ان يقعد . فقعد واحس بعد قليل بالخدر ثم غاب رشده



الفصل الثامن والخمسون

نعيم الحشاشين

ولا تسل عن دهشته لما افاق من غيبوبته وفتح عينيه فرأى نفسه في حديقة كالجنة بما يصفونها به من جري الأنهار وتعانق الأشجار وتجاوب الأطيوار من صاح وساج . واول ما نبهه من رقادہ نسيمٌ مر على وجهه ويدلمست جبينه . فنظر فاذا هي يد غادة او حورية كأنها البدر عايتها ثوب مجللها لكنه لا يكسوها لشافته . بيمنها مروحة من ريش النعام تروح له بها . وقد وضعت يسراها على جبينه كأنها تمسح عرقه فظن نفسه لاول وهلة في حلم وخاف اذا نهض ان يفقد تلك المناظر البديعة فصبر قليلاً فاذا بتلك الحورية تخاطبه بصوت رخم قائلة « انهض يا حبيبي الى متى الرقاد ؟ »

فنهض ونظر الى نفسه فرأى عليه ثوباً يشبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين احسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالصب . وقد جلس على بساط من اجمل البسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب — قضى برهة وقد اخذته الدهشة ينظر تارة لنفسه وطوراً لتلك الحورية واونة لما بين يديه او لما يقع عليه بصره من الأشجار والازهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الأطيوار وما يفوح من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا خطر بباله

وهو يفكر في ذلك تقدمت اليه تلك المرأة وقد ازاحت نقابها عن رأسها وارسلت شعرها الذهبي على كتفها وهي تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتشكيان لواعج الغرام . على انه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها فمدت يدها له صالحة فناولها يده وهو لا يزال يحسب نفسه في رؤيا فقبضت على انامله وهي تقول « ما بالك يا عبد الجبار الا تزال تحسب نفسك في منام ؟ انسيت انك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر ؟ انك في الجنة الآن التي لا يدخلها الا المستحقون »

فتذكر القدر الذي شربه من يد راشد الدين فغلب على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل وانه في الواقع انتقل الى الجنة بانهارها واشجارها واطيارها وان هذه المرأة حورية من حماريها . ثم تذكر سيدة الملك فاجفل وقال في نفسه « ما لهذه المرأة بهم قلبي لتختطفه وهو ليس لي .. » فتباعد عنها فتباعدت وبان العتب في وجهها وتحولاته ثم غابت عن عينيه

فتركها ومشى على ارض مكسوة بالشعب الاخضر الملون كالبساط المزركش وقد

فاحت منه الروائح المنعشة فوق بصره عن بعد على قناة يجري فيها الماء لامعاً كأنه
الزلال وعلى ضفتيها اشجار الفاكة وقد وقعت اشعة الشمس من خلال الاغصان
على ذلك الماء وهو يجري فتلون بالوان قوس قزح . فدنا من تلك القناة ووقف على
ضفتها ينظر الى الاشعة الواقعة على الحصى في قاعها كيف تتكسر وتلون . وهو في ذلك
رأى في الجانب الآخر حورية برزت من بين الاشجار ومشت نحوه وهي تبسم له .
فسره ان بينه وبينها قناة تحول دون وصولها اليه وتوقع ان تقف على الضفة الاخرى
وتخاطبه . فاذا هي تجاوزت الضفة و لم تزل ماشية اليه فوق سطح الماء ولم تبتل قدميها
وتعاضمت دهشته لما رآها وصلت اليه وقدميها العاربتان تنقلان فوق سطح الماء
الجاري لا تقع فيه ولا تعكره او تعيق سيره . فتحقق لديه انه في مكان غير الارض
وان اولئك الحوارى من الملائكة . وصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبث بشعرها
ويلاعب اطراف رداؤها . وبسطت يديها نحوه كأنها تستقبله وهو يحارب هواه ويتذكر
سيدة الملك وحبها اياه ويهمم بالابتعاد . فرأى في وجه تلك الحورية شيئاً يشبه ملامح
حبيبته قد عر وتفرس بها جيداً وحدثته نفسه ان تكون هي بعينها وان مجيئها الى
تلك الجنة من جملة معجزات راشد الهين . فوقف ريثما وصلت الحورية اليه ومدت
يدها نحوه فمد يده وتصافحا وهويتفرس في وجهها فكانت كلما دنت منه بعدت المشابهة
بينها وبين سيدة الملك . لكنه استأنس بها واحب ان يحادثها عما يراه . فلما دنت منه
فاحت رائحة الطيب من ثوبها فوضعت يدها على كتفه فاقشعر بدنه فقال لها « من
انت يا هذه وأين انا ؟ »

قالت « الا تعرف اين انت انك في جنة شيخ الجبل مولانا الامام الاكبر »

قول « وهل هذا مقرر اتباعه اجمعين ؟ »

قالت « نعم . ولكن لا يمكث فيها الا من احسن البلاء في طاعته . »

وامسكت بيده ومشت فمشى وأومأت اليه ان يتبعها فوق تلك القناة فتردد هنيهة

فجذبته بيده وهي تقول « لا تخف امش » فمشى فاذا هو يخطو على شيء صلب يفصل

بين قدميه الماء . فظن الماء جمد تحت قدميه . فاتصل الى الجانب الأخر وسار مع الفتاة

وهو شديد الرغبة في معرفة حقيقة ما يراه فلما سمع قولها قال « فانا باق هنا ؟ »

قالت « انت حديث العهد وانما جئت لترى ما اعدده المولى لاتباعه ومريديه اذا

قاموا باوامره . وعسى ان تكون من اولئك المستحقين » .

فعلم انه هناك الى أجل ولا يلبث ان يعود . فمشى لترويح النفس وعيناه تنقلان بين

الاشجار والرياحين ويرى الاطيار تتنافر بين ايدي تلك الحورية وفيها الكراكي، والطواويس بالوانها الجميلة . والبلابل والحساسين تتجاوب بالتغريد أو الزقزقة . والفتاة تناديها فتأتيها وتقع على كتفها او على يدها وتنتقل كما تأمرها كأنها تفهم لغتها . ثم سمع عماد الدين زئيراً علم انه زئير الاسد وكان قد سمعه مراراً فاجفل وقال « اليس هذا زئير الاسد ؟ »

قالت « الي ... وهل خفته ؟ ان الاسود لا تؤذي اهل هذه الدار » ومشت حتى دنت من مريض الاسد تحت شجرة . فاذا هو مقع وعيناه تبرقان لكنه لم ينتقل من مكانه فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر اهر فلم يتحرك فاستغرب عماد الدين ذلك ايضاً

وعاد الى التمشي فوق نظره في بعض جوانب الحديقة على غرف مفردة تغطيها الأزهار والإغصان فسألها عنها فقالت « هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالملذات والنعيم لا يعكر عليهم ذلك احد »

وبعد المسير برهة بين صعود وهبوط وقفت به الفتاة عند حائط وقالت له « انظر الى هنا »

فنظر من كوة في الحائط تشرف على واد اجرد لاشيء فيه من الماء ولا الخضرة . فاجفل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترسة تسرح بين جماجم البشر فقال لها « اظن هذه هي الجحيم »

قالت « .. نعم هذه هي .. فلو لم تطع الشيخ الامام لكنت في عداد المغضوب عليهم هنا »

فلم يشأ ان يقف هناك طويلاً؛ فتحول وعادت معه حوريته وهي تلاطفه وتقطف من الأثمار وتعطيه وهو كالتائه في افكاره لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يرى . وأذا هو يسمع صوتاً اهتزت له جوارحه وجد الدم في عروقه لانه صوت سيدة الملك كأنها تستغيث به .. فاخذ يتلفت يميناً وشمالاً وهو يحسبها على مقربة منه والحورية تنظر اليه بدهشة قائلة « ما بالك ما الذي اوقفك ؟ »

قال « ألا تسمعين شيئاً ؟ »

قالت « كلا .. ماذا تسمع ؟ »

فاطرق وهو مصيخ بسمعه فلم يعد يسمع شيئاً . فترجع عنده انه مخطيء وانما سمع ما سمعه لفرط تفكيره بسيدة الملك فأنتت روخها لزيارته، او هو صوتها، جاء للسلام

عليه . لكنه لم يطمئن لهذا الفكر والصوت الذي وصل اليه صوت استغاثة فهل هي في
شدة ؟ فاذا كانت كذلك ما اجدره ان يسعى في اغاثتها

وكان قد شعر براحة لتلك الحورية لطول رفقتها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه
واجتذاب قابله وهو شاب في مقتبل العمر . فغلب على اعتقاده انه في جنة او مكان
يشبه الجنة جاءه بكرامة او معجزة من معجزات راشد الدين . واوشك ان يشتغل عن
سيدة الملك فلما سمع ذلك الصوت توهم انه صوت ضميره للثبات في حب حبيبته فلا
يشتغل عنها بسواها فاحس بانقباض وود الخروج من ذلك النعيم

وهو يفكر في ذلك لا يلتفت يمينا ولا شمالاً سمع وقع خطوات غير خطوات
رفيقتة فالتفت فرأى غلاماً كالبدر طلعة وبهاء قد تمنطق بمنطقة من الخز ارسل قسماً
منها الى الامام كالمئزر وارسل شعره ضفائر ذهبية وعليه ثوب سماوي اللون فلما دنا من
عماد الدين انحنى انحناء الاحترام وقال بصوت رخيم « الا يتفضل المولى لتناول الغداء »
فالتفت الى رفيقته كانه يستزيدها بياناً فابتسمت له قائلة « تفضل يا مولاي الى الطعام
فقد آن وقت الغداء »

وكان في شاغل عن الطعام فلما ذكر له احس بالجوع . فمشى في طريقة مسواة كانها
فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سياج من الازهار الجميلة ينتهي في آخره بباب
كباب القصر الفخم . وقبل الوصول الى الباب فاحت روائح الطعام الشهى مما لم يعرف
مثله الا في قصور الفاطميين في اثناء الاعياد . ولما اقتربوا من ذلك الباب فتح لنفسه
وتقدم غلامان آخران يرحبان بالقادم . رميا بين يديه من باب الى باب حتى وصل غرفة
المائدة . وهو يتلفت الى الجانبين وقد ادهشه ما على جذران الدهليز من الستائر المصورة
تمثل البساتين والقصور ومواقف البدخ والرخاء . ستلفت النظر وتجتذب القلب .
واما غرفة المائدة فقد ذهبت برشده واوقفته موقف الحيرة ونسي مكانه لان جدرانها
الاربعة مكسوة بالمرايا على طول الحائط . فيظهر الشخص الواحد عشرات من المرار
من كل جانب . ولم يكن ذلك مألوفاً يومئذ فدبره راشد الدين في جملة ما يجتذب
به القلوب

فتقدمت الفتاة اولاً و اشارت الى عماد الدين ان يتفضل فقعد على متعد مغشى بالديباج
المزركش وبين يديه مائدة مكسوة بملاءه من الحرير الوردى . ولم تمض دقائق قليلة حتى
تواردت الاطباق وعليها الالوان من اللحوم والفاكهة . وجلست تلك الحورية بجانب
عماد الدين وهي تلاطفه وتقدم له اللقمة بعد اللقمة وتبالغ في اكرامه والغلمان

وقوف بين يديهما للقيام بالامر . فعاد عماد الدين الى نسيان سيدة الملك وقد سحرتة تلك الفتاة بجهاها ولطفها . ولا سيما بعد ان دارت الاقداح وفيها الخمر والذينة فاصبح لا يعرف غير تلك الساعة وقام في ذهنه انه في النعيم الحقيقي .
ولما رأت تلك الفتاة ميله ورضاءه اخذت بالاعراض عنه وهو يزداد شغفاً وقد زادت الخمر اندفاعاً حتى اصبح يتراف اليها ويغازلها وهي تتمنع . فلما تحققت افتتانه بها قالت « لا تخرج عن حدك فانت انما جئت الى هنا على سبيل التجربة . وليس الوصول الى ما تطمع به سهلاً . . ان من دونه بذل النفس في طاعة الامام الاكبر »
فشق عليه هذا الاعراض لكنه زاد افتتانه وقال « قد كنت منذ هنيهة تمقر بين وانا ابعد فهل كنت تخادعيني ؟ »

قالت « كلا ولكن لا بد من ان تأتي عملاً يؤهلك الى المقام في هذا النعيم دائماً وعند ذلك اكون طوع ارادتك واذا خاطبت الاطيار اجابتك وتجد النعيم الحقيقي من كل شيء . وليس ما تراه الا مثلاً صغيراً من ذلك النعيم . . فعسى ان تعمل عملاً يؤهلك من هذا الجوار . . والحق يقال اني فتننت بجهاك وبسالتك واشعر نحوك بما لم اشعر به قبلاً نحو احد . ولكنني لا اقدر ان آتي امراً يخالف رضى مولانا ولا اقدر ان اخفي عنه شيئاً لانه فاحص القلوب يطلع على خفايا السراير . ولكنني تأكيداً للعلائق المودة بيننا ادهن شعرك بطيب خاص بي » قالت ذلك واستخرجت حقا من بين ابوابها فتحته ففاحت منه رائحة لم يشم مثاها في حياته . فاخذت بعض الطيب ودهنت به يديه وشعره : فلذ له ذلك وطابت نفسه . ثم قالت « احفظ هذه الرائحة تذكراً بيننا حتى نلتقي اللقاء الدائم ان شاء الله » وبان الاعجاب بعينيها فازداد هو تهيباً من ذلك الشيخ العجيب فسكت

وبعد الفراغ من الطعام والشراب احس عماد الدين بميل الى النعاس . فتوسد فراشاً من الحرير المحشو بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه تداعبه وتعرض عنه ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم واستغرق في رقاد

الفصل التاسع والخمسون

اطال الله بقاء صلاح الدين

ووافق في اليوم التالي فاذا هو في قاعة راشد الدين كما كان من قبل وعليه الثوب الابيض وشعره محلول . فجعل يتلفت يمينا وشمالا وينظر في ثوبه فتبادر الى ذهنه لاول وهلة انه رأى حاماً . ثم ما لبث ان شم رائحة الطيب في شعره ويديه فلم يبق عنده شك انه رأى ما رآه حقيقة . وانته به بعد قليل لنفسه فرأى راشد الدين جالسا كما تركه ورأى صديقه عبد الرحيم بجانبه . فهش له وضمه الى صدره فقال له عبد الرحيم « ان رائحة الجنة تنبعث من شعرك .. هنيئاً لك وعسى ان يتاح لك النعيم الدائم . قم واجث عند قدمي مولانا وقبل ركبته وادع بطول بقاءه »

فنهض وترامى على قدمي الشيخ عن اعتقاد صحيح بكرامته . وقبل ركبته فمنعه ودفع اليه يده فقبها ثم قال له الشيخ « انت الآن من ابنائنا الفدائيين ويلوح لي انك لا تلبث ان ترتقي الى مصاف المستنيرين . قم الى غرفتك وقد اوصيت الشيخ دبوس بك خيراً . ولكنني احب قبل خروجك ان ازودك بعهد مني » قال ذلك ونهض وأنهض عماد الدين معه وهو يحرق في عينيه وعماد الدين يشعر بقوة تنبعث من عيني ذلك الرجل وتوشك ان تغابه على امره . وقد قبض الشيخ على يدي عماد الدين بيديه قبضاً شديداً

مكث كذلك عدة دقائق ثم صاح به « افتح فك » ففتحه فتفل فيه وقال « كن فدائياً مطيعاً » وتركه وأشار الى عبد الرحيم ان يذهب به الى غرفته فمشيا الى غرفة الشيخ دبوس وهما صامتان وقد استولت الدهشة على عماد الدين واصبح كلما خوذ او من اصابه السحر . فلما وصلا الى الشيخ دبوس بدل عماد الدين ثيابه وهناك دبوس بما ناله من رضى الشيخ الاكبر واعاد اليه خنجره ونقوده وجواهره واصبح واحداً منهم

على انه حلما عاد من دار النعيم الى دار الشقاء عاد الى ذكرى صلاح الدين وسيدة الملك فاصبح همه ان يخلو بعبد الرحيم ليسأله سؤالا شغل خاطره بالأمس — وهو قول راشد الدين . « اطال الله بقاء صلاح الدين » فانه لم يقدر على تعليقه وهو يعلم تعمده قتله مراراً

اما عبد الرحيم فاستأذن صديقه عبد الجبار بالغياب تلك الليلة لانها الليلة التي عينوها

لترقيته الى درجة المستنيرين . فبات عماد الدين على احر من الجمر وقد تراكت عليه
الهاوجس واخذته الغرائب . وكما توضع رائحة الطيب من شعره تذكر تلك الفتاة
وما لاقاه هناك من اسباب السعادة

نام تلك الليلة نوماً متقطعاً ولم يصدق طلوع النهار واذا بصديقه عبد الرحيم جاءه
والبشر ينجلي في عينيه فنهض له عماد الدين وقبله وقال « قد اصبحت منذ الآن ارقى
مني ولا يحق لي ان اناديك اخي كما كنت افعل »

فضحك عبد الرحيم وقال « ان صداقتنا امتن من ذلك كثيراً كنا غريبين
وتحابينا ونحن الآن اخوان من عهد واحد . ولا تلبث انت ان ترتقي الى مثل رتبتي .
اتمنى ذلك لك قريباً بل انا اتوقعه عن ثقة »

ولم يكن ذلك الشرف ليهمه وانما اصبح همه استطلاع رأي راشد الدين في صلاح
الدين فاذا علم انه لا يزال ينوي قتله عاد الى مهمته الاولى . واما اذا تحقق صدق دعائه
بطول العمر كان له رأي آخر فقال « اما انا فلا اتوقع قرب الترتي كما تظن .. ويكفييني
ان تكون صديقاً لي .. ولا احب ان احمك ثقله صداقتي لشيء اطمع به على يدك . وانما
انقدم اليك ان تفسر لي كلاماً سمعته من الشيخ الاكبر بالامس فوقع عندي موقع
الاستغراب ولم اصدق له ولعلك شعرت مثل شعوري .. »

فقال « اظنك تعني قوله : اطال الله بقاء صلاح الدين ؟ »

قال « نعم هذا الذي اعني كيف ترى ؟ الاتستغرب قوله ؟ وهل هو يعني ما يقوله
حقيقة ؟ . وانا اعلم انه بعث اناساً لقتل صلاح الدين غير مرة فكيف يفعل ذلك وهو
يطالب بقاءه ؟ هذا هو الامر الذي احب تفسيره »

فابتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ويمسك نفسه . فلما رآه
عماد الدين يتردد قال له « اذا كنت تعرف الحقيقة ارجو ان تخبرني بها لان ذلك
يهمني كما تعلم . ولعلك من اعلم الناس بامري مع هذا السلطان »

فاعتدل عبد الرحيم بمجلسه واظهر الاهتمام وقال « اعلم يا صديقي عماد الدين ان
عبارة الشيخ الامام التي ذكرتها كانت مغلقة علي الى مساء الامس فلما صرت من
المستنيرين دخلت في جملة ما عرفته . وليست هي سرّاً او تمنيت عليه مثل سائر اسرار
هذه العشيبة لكنني اطلعت عليه بالعرض ولذلك لا يمنعني الواجب ولا الخوف من
من ان اجيبك على سؤالك »

فتناول عماد الدين بعنقه وقال « قل بالله . هل يريد الشيخ الاكبر حقيقة ان

يطول بقاء مولاي السلطان صلاح الدين ؟ »

قال « نعم . انه يتمنى ذلك من كل قابه وهو يطالبه ليل نهار »

قال « ياللعجب كيف يبعث من يقتله ثم هو يدعو بطول بقاءه ؟ »

قال « العاك تعني ما حدث اصلاح الدين قبيل خروجك من مصر اذ نهض في

الصباح فوجد الخنجر فوق راسه ورسالة التهديد بجانبه »

قال « نعم هذا ما اعنيه »

قال « هذا دليل على رغبة الشيخ الاكبر في طول بقاء صلاح الدين . ولولا ذلك

لامر الفدائي الذي تمكن من الدخول عليه حتى غرس الخنجر في مخدته عند راسه

ان يغرسه في صدره ولم يكن ثمة ما يمنعه . ولكنه امره ان يكتفي بالتهديد مع

رغبته في بقاءه حياً »

فاستغرب عماد الدين ذلك وقال « لكنني لم افهم الباعث على تلك الرغبة وهذا

شيخنا حفظه الله قد اشتهر فتكته بالملوك والسلاطين . ولم يبق فيهم من لا يخافه حتى

صلاح الدين نفسه فكيف هو يجب بقاءهم احياء و .. »

فقطع كلامه قائلاً « لا . لا . انه لا يلتبس طول البقاء لاحد من هؤلاء غير

صلاح الدين »

فقال « ولماذا ؟ ارجو ان تفصح لي »

قال « السبب ياخي ان شيخنا ايده الله علم بالوحي انه يموت في نفس السنة التي

يموت فيها السلطان صلاح الدين . فمن مات منهما قبل صاحبه لا بداً للثاني ان يتبعه في

تلك السنة .. فهو لذلك حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياة نفسه ..

وهل عندك شك بصدق هذا الشيخ العظيم — قد رايت من معجزاته ما يكفي وان

كان قليلاً من كثير »

فاطرق عماد الدين واخذ يفكر في ماسمعه — وهو مصدق لما يقوله راشد الدين بعد

ما شاهده بنفسه فاعتقه . موت الرجلين في سنة واحدة فاصبح من مصالحة صلاح

الدين ان يطول عمر راشد الدين . فتحولت مهمته الى المحافظة على حياة هذا الرجل

لامؤتاه^(١) واعتبر مهمته قد انقضت واصبح في ميل الى الخروج من ذلك الحصن

والاسراع الى صلاح الدين لينقل اليه تلك البشرية ويرى حبيبته سيدة الملك . واعترضت

افكاره دلائع الطيب ومناظر تلك اللجنة لكن الحقيقة تغلبت على الوهم . واشتد ميله الى

(١) في التاريخ ان صلاح الدين وراشد الدين توفيا سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٢ م)

الخروج ولا سبيل الى ذلك الا ان يرسله راشد الدين بمهمة لقتل احد الملوك او الامراء
فالتفت الى صديقه عبد الرحيم والامتنان باد في وجهه وقال « لا انسى صداقتك يا عهد
الرحيم اني اشعر بصدق مودتك شعوراً يكاد يلمس باليد . ولذلك كانت ثقتي بك عظيمة
فلا ينبغي لي ان اخفي عنك شيئاً فهل تأذن لي ان استخدم تلك الثقة ؟ »
قال « قل ما بدالك فانت في موضع ثقتك »

قال « لا حاجة بي الى بيان الاسباب التي تاجئني الى سرعة الخروج من هذا الحصن
فانت تعلم علاقتي بمصر فاتقدم اليك ان تساعدني على ذلك »
قال « خروجك لا يتم الا اذا دبروا لك مهمة تذهب في انفاذها لقتل كبير
من الكبراء »

قال « فليكن ذلك وانا فاعل ما يأمرون به »

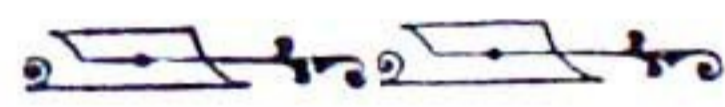
قال « امهاني يوماً او يومين لاغتم فرصة تساعدني على ذلك . . . »

قال « اني في انتظار وعدك بارك الله فيك »

قال « واسمح لي بالذهاب الآن فان علي واجبات تتعلق برتبتي الجديدة لا
بد من انجازها وساعود اليك بما اوفق اليه »

قال « اشكر يا اخي »

ونهض عبد الرحيم وانصرف



الفصل الستون

القلق والشكوك

لما خلا عماد الدين بنفسه بعد ما انتابه من الاهوال وما مر به من الغرائب اخذ يفكر
في ما رآه وسمعه فلم يزد الا استغراباً وراجع ما كان يسمعه عن تدجيه ذلك الزعيم
فاخذ اعتقاده بكراماته يضعف ولكنه لم يستطع تعاليل ما شاهده من المعجزات تعاليلاً
معقولاً . . . كيف يطاع على الوقائع قبل وصول اخبارها وكيف يكلم الميت فيجيبه
والشعرة فتظلمه على السر ؟ وهذه الجنة بما فيها من الطيبات والحوار اللواتي يمشين
على سطح الماء فلا يتعكر ويخاطبن الاطيار فتطيعهن ويلابن الاسود فلا تؤذيهن . فاذا
تمثلت له هذه الظواهر لم ير مندوحة عن الاعتقاد بكرامة الشيخ راشد الدين

وتعب من التفكير فخطر له ان يتمشي في ذلك الحصن ولم يبق ثمة ما يمنعه لانه
 اصبح من اهله . فنهض ومشى فرأى ارض الحصن وما يحيط به خلواً من النبات الا
 ما بين يدي ذلك الجبل من السهول البعيدة . فتذكر ما شاهدته بالامس من امثال النعيم
 من الاشجار والانهار فما الى استطلاع خبره واين يمكن ان تكون . فصعد الى بعض
 المرتفعات لعلمه يشرف منها على تلك الحديقة فلم يوفق الى شيء من ذلك . لكنه وقع
 نظره وهو يجبل بصره في السهل الذي نزل فيه يوم وصوله الى هناك على ركب لم
 يستطع ان يتبين وجوههم لبعده المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ملثمين وهم بضعة فرسان
 في ركبهم جماعة من المشاة كالخدم . فلم يهمنهم وعاد الى التفكير بما هو فيه من
 الهواجس التماساً لسرعة الخروج من هناك

وحدثته نفسه ان يفرّ فوجد ذلك مستحيلاً عليه الا بالتعرض للخطر الشديد
 وهو في غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ولا شك عنده انه لا يذخر
 وسعاً في سبيل انقاذه

واعاد نظره الى ذلك الركب فرآهم دنوا من الجبل حتى حجبهم سفحه عن
 عينيه . فترجح لديه انهم من اهل ذلك الجبل او النازلين في جواره . واحس بالجوع
 فتحول الى مجتمع الفدائيين فتناول الطعام معهم ولم يجد فيهم من يبلغ مبلغه من علو
 النفس ورقة الاحساس . فازداد رغبة في الخروج من هناك ولبث ينتظر عودة عبد
 الرحيم وهو على مثل الجمر

قضى ذلك اليوم واليوم التالي ولم ير عبد الرحيم فاشتغل خاطره ولم يعرف
 سبب تخافه . وزاد بلباله لما شاهد غياب الشيخ دبوس ايضاً عن غرفته في اثناء ذينك
 اليومين . وبلغه انه في شاغل مع الشيخ الاكبر للمباحثة في امور هامة حدثت بعد
 مجيء اناس وصلوا بالامس . فتذكر الركب الذين رأهم قادمين اول البارحة فما
 الى استطلاع حقيقتهم فلم يذنبه منبىء . لان هذه الاخبار لا يتناولها الا الخاصة من
 المستنيرين . فصبر نفسه حتى يأتي صديقه عبد الرحيم فلما استبطأ استفهم بعض الرفاق
 عنه ف قيل له انه مع نخبة المستنيرين في شاغل عند الشيخ الاكبر

فازداد شوقاً الى الاستطلاع لكنه لم ير بداً من الانتظار ومضى نصف اليوم
 الرابع ولم يره فضاقت ذراعاً واخذ الملل منه ماخذاً عظيماً وهم بالبحث عنه واذا هو قادم
 نحوه فاستقبله استقبال الظمان للماء . فاكب عليه عبد الرحيم وقبله واخذ يعتذر عن
 تأخره وقال « اعذرني يا اخي . . كنت في شاغل لم يكن في الحسبان وكما عزمتم على

المجبيء اليك يحدث شاغل جديد «

قال « نسيت قلقي واضطرابي حال رؤيتك . واشعر اني اسبب لك تعباً . . لا بأس يمكنك ان تتخاص من هذه الاتعاب بتدبير مهمة اخرج بها من هذا الحصن — هل وفقت الى شيء من ذلك ؟ »

قال وهو يضحك للمداعبة « وفقت الى نصف الطاب فقط »

قال « كيف ذلك »

قال « انت تطلب امراً بالخروج من هذا الحصن لقتل احد الامراء وقد استصدرت لك امراً بقتل احد الامراء ولكن بلا خروج من هذا الحصن »
فاستغرب عماد الدين قوله وحمله على المزاح فقال « بالله قل لي الصحيح . . الم توفق الي شيء بعد ؟ »

قال « اقول لك الصحيح تماماً قد صدر امر الشيخ الاكبر لك ان تفتك بامير هو مقيم في هذا الحصن .. »

ورأى الجدي في عيني عبد الرحيم فانقبضت نفسه لان رغبته انما هي في الخروج من هناك وليس في القتل والفتك فقال « افصح يا أخي فانك ازعجتني بهذه البشارة .. وانت تعلم اني اطاب الخروج قبل القتل »

قال « اعلم ذلك ولكن ما الحيلة وقد صدر امر الشيخ ؟ وهي ثقة كبرى فيك لان المهمة التي سيعهد بها اليك شاقة . وهي ستكون السبب في تعجيل ارتقائك وقد رايت مولانا الشيخ كثير الرغبة في ذلك »

فاطرق عماد الدين واعمل فكرته في ما سمعه ولم يجد فيه حيلة فقال « هل اعتبر كلامك هنا بلاغاً لي ؟ »

قال « كلا . سوف يستقدمك الشيخ الامام نفسه ويبت فيك روح العزيمة والثبات وبأمرك بما يريد . اما انا فاخاطبك مخاطبة الصديق سرّاً المعلمي انك في قلق »

فقطع كلامه وقال « اسمح لي يا أخي ان اقول لك انك زدني بهذا الخبر قلقاً »

قال « ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبد الجبار . . » وابتسم كأنه يكتم سرّاً لا

يريد ان يبوح به .

فقال « لم افهم مرادك . . بالله الا خففت بعض ما بي ولو بالتلميح انا اعلم فضيلة

المحافظة على السر . ولا اطلب منك ان تبوح بسرّ مقدس اؤتمنت عليه لكنني ارجو تخفيف قلقي بعض الشيء . . قل لي من هو الامير او الكبير الذي سيعهد الي قتله

وهو مقيم هنا؟ اني لا اعرف كبراء هذا الحصن»

قال « ليس هو من كبرائنا وانما هو طارق جاءنا منذ يومين .. »

فانبه عماد الدين للركب الذين رآهم قادمين في ذلك السهل فقال « رايت ركبا قادمًا الى هذا الجبل منذ بضعة ايام العله كان فيه؟ »

قال « نعم هو جاء في ركب .. اعلم اني اسر اليك امراً خطيراً .. » وخفض

صوته

فقال عماد الدين « علمت ذلك ولكنني استغرب قدوم هذا العدو ليلقي حياته بين يدي عدوه . وهو يعلم قدرته على قتله »

قال « ليس هو عدواً للشيخ بل هو من اصدق اصدقائه واخص اخصائه . تعارفا

وهما صغيران قبل ان تصير المشيخة الى مولانا راشد الدين . ولعلك تعلم ان مولانا هذا

قبل ان صارت اليه الامامة كان يقيم في مكان اسمه عقرالسدن وخدم شيخ الاسماعيليه

في الاموت بالديلم وتفقه على يده بالعلم والدين ثم انتقل الى سوريا ونزل حلب واخذ يعظ

ويعلم واشهر بالتقوى فتقاطر اليه الناس افواجا . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو

جامد كالصخر . وانما سحر الناس ببيانه فكثير اصحابه ومريدوه . وكان شيخ الاسماعيليه

يومئذ رجلاً اسمه ابو محمد خافه على منصبه فبعث اليه من يقتله فاخفى في كهف

قرب حلب وما زال مختفياً حتى ضعف امر ابي محمد فخافه وانتقل الى هذا المكان .

هذه خلاصة سيرة مولانا فضيف اليوم من اعز اصدقائه الذين جاهدوا في نصرته

ورافقه الى الكهف ثم شغل عنه بالاسفار . وعاد الآن بمهمة لا اعلم ما هي فلاقاه

مولانا احسن ملاقة واختلى به غير مرة لا ادري ما دار بينهما . لكن الشائع بين رجالنا

ان مولانا فرح به كثيراً وانه من اعز اصدقائه . ومع ذلك فانه بعث الي بالامس سرّاً

واخبرني عن تقديره بسالتك حق قدرها وسألني اذا كنت تليق بمهمة خطيرة فاكدت

له اقتدارك على ذلك وانك راغب في مهمة تعهد اليك . ولم اكن احسبه يجعلها داخل

هذا الحصن . فرأيت ابدى اهتماماً كثيراً ووضع في ثقة كبرى واسرّ الي انه يجب ان

يتخلص من هذا الصديق القديم على يدك . ولا يخفى عليك انها ثقة عظيمة فيك وانت

لم تنتظم في سلك الفدائيين الا منذ بضعة ايام »

وكان عماد الدين في اثناء حديث عبد الرحيم مصغياً يفكر في دهاء هذا الطاغية

وكيف انه عمد الى الفتك بصديق قديم له لانه رأى بقاءه حُجر عثرة في طريقه —

فضعف اعتقاده بكرامته لانه لا يعرف ولاية او كرامة تأمر بخيانة الاصدقاء . واخذ

ظنه يتغير فيه . واصبح يخافه على نفسه اذ قد يتوهم ضرراً يأتيه على يده فيأمر بقتله .
لكنه احب السكوت عن هذا الخاطر ولم يجسر على التصريح به فقال « بالحقيقة انها
ثقة عظيمة فينا كلينا .. ولكن هل انت واثق ان الرجل المشار اليه كان من اصدقاء
مولانا الشيخ ؟ »

قال « اني على ثقة تامة ولا ريب عندي بذلك مطلقاً واعلم اشياء كثيرة تؤيد
ذلك لا اقدر ان اقولها لك الآن . . . ولكنك ستعلمها في حينها . وقد يخطر لك ان
تنتقد عمل مولانا الشيخ لانه عمد الى قتل صديقه ولكنك ستحمد عمله بعد حين . . .
فالآن . . . »

فقطع كلامه قائلاً « ربما كان مصيباً بعمله من حيث دفاعه عن سلطته فاعذره عليه .
لكنني اصبحت منذ الآن اخاف على حياتي وحياتك » قال ذلك بلحن التصريح عما
في الضمير ولو تحت الخطر

ووافق ذلك التصريح هوى من نفس عبد الرحيم فابتسم ابتسام المصادقة وقال
« لا الومك على هذا الشك لانه خطر لي ايضاً . وهناك امور ظهرت لي بعد انتظامي
في سلك المستنيرين ربما سنحت الفرصة ببيانها . واما الآن فالمطلوب ان تعلم المهمة التي
ستعهد اليك فلا ترد بقبولها وسترى اني ناصح لك . . . لا يلبث ان يأتيك رسول
الشيخ يدعوك اليه . . . انا ذاهب الآن وسنلتقي بعدئذ » قال ذلك وانصرف



الفصل الحادي والستون

الشيخ سليمان

ومكث عماد الدين على مثل الجمر وهو يردد ما سمعه عن راشد الدين . وتغلبت
عليه الشكوك في كراماته . ولكنه ما زال مكبراً اقتداره . وهو في ذلك جاءه خادم للشيخ
اصم ابكم مثل سائر خدمه - وانما يقتني الصم ابكم للخدمة لئلا يفهموا شيئاً مما يدور بينه
وبين رجاله . فهم يحملون الاوامر بالاشارة . فلما جاءه ذلك الابكم يطلبه مشى في ارضه
حتى دخبل به على راشد الدين وهو في غرفة صغيرة ليس فيها سواه . وقد تخفف
بعمامة صغيرة وجعل يمشى ذهاباً واياباً ويداه وراء ظهره وفيه عرج قليل
فلما وقع نظر عماد الدين عليه تهيب ووقف وقفة الاحترام . ف اشار راشد الدين الى

الحُرسي ان ينصرف . واقفل الباب وراءه ولم يبق عنده الا عماد الدين . فناداه اليه
فمنى فابتسم راشد الدين وقال له « انظر في عيني »

فنظر فاذا هما تلمعان ويكاد الشرر يتطاير منهما

فقال راشد الدين « ماذا ترى فيهما ؟ »

فاستغرب سؤاله وقال « لا ارى شيئاً يا مولاي غير النور والذكاء »

قال « اما انا فارى في عينك اشياء كثيرة .. اني اقرأ فيهما ما يكنه ضميرك »

نخاف عماد الدين ان يطلع راشد الدين على ما خامره من الشكوك فيه فقال « لا

غرابة في ذلك فقد تحققناه من قبل »

قال « ويسرني اني تحققت صدق طاعتك واخلاصك . ولذلك رأيت ان اسرع في

مكافأتك وهذا لا يكون الا بمهمة تقضيها . ورغبة في التعجيل جعلت ذلك قريباً في

هذا الحصن .. فهمت ؟ »

قال « اني طوع امرك يا مولاي »

قال « ان في هذا البيت المنفرد داخل سور هذا الحصن اميراً كبيراً ينبغي ان

يذهب من هذا العالم بلا ضوضاء ولا شكوى وان يكون ذلك على يدك . فما رأيك ؟ »

فانحنى انحناء الطاعة وقال « وهل للعبد رأي بين يدي مولاه ؟ انما يأمره فيفعل »

فقبض على انامل عماد الدين بكفيه وامره ان ينظر في عينيه ثم قال له « اريد

يا عبد الجبار ان تقتل الشيخ سليمان اللعين . تقتله وتحمده انفاسه .. هكذا اريد .. »

فاحس عماد الدين عند سماع ذلك الصوت على هذا الشكل بقشعريرة جرت في

عروقه . وكان شرارة كهربائية تطايرت امام بصره . فاعمض جفنيه رغم ارادته . فقال

راشد الدين « قد احسنت يا عبد الجبار انك فاعل ما اريد وسوف تنال جزاء ايمانك ..

واعلم انك منذ الآن خادم لسليمان او الشيخ سليمان كما يسمونه تخدمه في حاجياته —

فالبس لباس الخدم وغير قيافتك وابذل جهدك في ارضائه حتى تغتم منه غرة تقتله فيها

ولا يشعر احد بك . واحب ان يكون ذلك خارج القلعة . وانت عند ذلك من طبقة

المستيرين » ثم ادنى شفثيه من اذنه وقال له « ومع الرجل امرأة بارعة في الجمال ستكون

غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من اثاث وغيره . ويمكنك التعويل على صديقك ولدنا

عبد الرحيم في بعض التفاصيل . وهذا يكفي .. امض الآن الى نائبنا الشيخ دبوس وهو

يتم جهازك بما يلزم » قال ذلك وترك انامله فودعه وخرج وهو يرتجف من عظم التأثر

واخذ يفكر في من عساه ان يكون سليمان هباً . ولم يهمه ان تكون امراته جميلة وهو

لا يرضى من سيدة الملك بديلاً
سارتوا إلى الشيخ دبوس ولم يحتج في تفهيمه إلى كلام لأنه كان على بينة مما يطالب
منه فحال دخوله عليه قال له « ادخل يا عبد الجبار واقفل الباب »
فدخل ونهض الشيخ دبوس بنفسه اعطاه لباس الخدم واصلح شعره وقيافته بحيث
تغير شكله كثيراً ودفع إليه كتاباً وقال له « تأخذ هذا الكتاب إلى ذلك المنزل
وتكون خادماً لصاحبه كما امرك مولانا الشيخ الأكبر . . فهمت ؟ »
فاشار مطيعاً وخرج وهو كالخادم تماماً . وقبل خروجه نظر إلى وجهه في المرأة
فانكر نفسه . وفي يده بطاقة الشيخ دبوس إلى سليمان وهو يتردد في ذهابه ويقول
في نفسه « كيف اقتل هذا الرجل ولا تار بيني وبينه » ثم خطر له قول عبد الرحيم
انه سيجد في قتله راحة فوقع في حيرة

وما عثم ان وصل إلى المنزل الذي ذكره له فوجد الباب مقفلاً . فاخذ في البحث
عن الشيخ سليمان في ذلك الجوار فلم يقف له على خبر فقعد على صخر في ظل البيت
ينتظر قدومه لعله ذهب في حاجه لا يلبث أن يعود منها . واستغرق في هواجسه وتفقد
الخنجر الذي خباء تحت اثوابه للفتك عند سروح الفرصة . لكنه ما زال يتردد في
أمر القتل

وهو في ذلك رأى رجلاً قادماً عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء اللون كبيرة
الحجم وقد ارسل شعره تحتها حول رأسه إلى كفيه وتزمل بجبة طويلة وعلق في
صدره سبحة طويلة وحمل سبحة أخرى بيده يعدد حباتها ويتمم كأنه يصلي او يدعو كما
يفعل المنقطعون عن العالم إلى الصلوات والدعوات . فتحقق انه الشيخ سليمان لا محالة
فجمل يراقب حركاته وهو قادم حتى دنا منه فتقدم إليه وهم بتقبيل يديه ودفع إليه
بطاقة الشيخ دبوس . فتناولها وفضها وقرأها وهو لم ينظر إلى عماد الدين بعد .
فلما اتم قراءتها رفع بصره إليه وقال « يقول اخونا الشيخ دبوس ان مولانا الشيخ
الأكبر بعثك لخدمتنا »

قال « نعم يا سيدي وهل يتم لي هذا الحظ ؟ »
قال « كنت في غنى من الخدم لاني احب الخلوة بنفسي للصلاة والدعاء وطعامنا
يأتينا من مطبخ الجماعة فما هي الحاجة إلى الخدم ؟ »
وكان عماد الدين يسمع قوله وهو يتفرد في سجنه كأنه رأى ذلك الوجه وسمع
ذلك الصوت من قبل . فلما فرغ الشيخ سليمان من قوله اجابه عماد الدين « قد امرني

الاستاذ الاكبر ان اقف بباب مولاي اخدمه بما يحتاج اليه فان كان في شاغل بالصلاة او غيرها فلا شأن لي به وانما الي امره اذا امرني فاجلب له الطعام او ما يحتاج اليه من الامور »

قال « حسناً . . ما هو اسمك ؟ »

قال « عبد الجبار »

قال « طيب اقعدهنا واني شاكر لآخينا الشيخ على فضله . وعلى كل حال لا حاجة لي بك في الليل فاذا غابت الشمس انصرف الى مكانك » ومشى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه وعماد الدين يراقب حركاته ويبحث في ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل واين رآه في دمشق او القدس او مصر فلم يخطر له شيخ يعرفه بهذا الاسم . دخل الشيخ سليمان المنزل وظل عماد الدين جالساً على حجر وقد شغل خاطره بامر هذا الرجل . ولم يتذكر اين رآه فظن نفسه واهماً في تصويره فصرف فكره عنه وعاد الى التفكير في صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه ويرى سيدة الملك على فراغ واطمئنان

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه بالعشاء وكانوا قد اعدوه له في اطباق فحماها فوق راسه حتى اتى الباب وقرعه وطال انتظاره قبل ان فتحه له . ولما فتحه تناول الطعام منه وادخله بيده ودفع اليه ديناراً وقال له « قد جاء الغروب فانصرف لشأنك يا عبد الجبار »

فتناول الدينار واطهر الامتنان وانصرف وهو يفكر في امر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى لا يأذن لخادمه بالدخول اليه . وهو في الطريق لقيه عبد الرحيم فسلم عليه وسأله عما جرى فاخبره بما شاهده وما استغربه من حال الشيخ سليمان فضحك عبد الرحيم وقال « لم يسمح لك بالدخول لا بأس . . . الم تتذكر انك تعرفه من قبل »

قال « تصورت لاول وهلة اني رايت ذلك الوجه او على الاقل سمعت ذلك الصوت . لكنني غيرت فكري لاني وجدت نفسي واهماً »

فقال وهو يحك عنقه ويخفي ضحكه « قد تكون واهماً وستبدو لك الحقيقة بعد قليل لكن كيف اشار بانصرافك الآن وهو قد يحتاج اليك في الليل ؟ »

قال « لا ادري . ويظهر لي انه يكتم اشياء لا يجب ان اطلع عليها . اظنك عرفت عنه شيئاً لم تفضه علي »

قال عبد الرحيم « عرفت عنه اشياء كثيرة لا اقدر ان ابوح بها كما تعلم . لكنني اقدر ان اقول لك بانه من اصحاب المطاعم السياسية وهي التي ستجر اليه حتفه . ويظهر لي انه اراد ان يشارك شيخنا بساطانه او انه طاب منه اموراً لا يوافقها عليها . وهو يعرفه صغيراً نخاف اذا اغضبه ان يشيع عنه اموراً تقال هيبتة فاحب التخاض من حياته . هذا الذي لحظته الى الآن وسترى الحقيقة وانت اولى مني بكشفها »
فقال « هذا اول يوم رأيته فيه وقد صرفني ساعة الغروب وسأعود اليه في صباح الغد »

قال « هب انه صرفك فيمكنك ان تبقى قريباً من منزله لعله يحتاج اليك او لعلك ترى فرصة مناسبة للقيام بمهمتك »

الفصل الثاني والستون

في الطريق

وكانا ماشيين وقد اخذت الاظلال تتكاثف واوشك الظلام ان يسدل نقابه . فقال عماد الدين « الى اين نحن ذاهبون الآن ؟ »
قال « الى حيث تشاء »

قال « احب ان احادثك ببعض الامور »

قال « تعال الى غرفتي انها على مقربة من هذا المكان » ومشى حتى دخل الغرفة وفيها مصباح ضعيف اضاء له بعض الخدم . فقال عماد الدين « احب ان نكون في خلوة »

فاوماً عبد الرحيم الى خادمه بالانصراف وقعد وأشار الى صديقه ان يقعد فقعد وهو يشهد فقال له عبد الرحيم « ما بالك يا صاحبي لماذا تنهد ؟ »

قال « انتهد يا اخي لاني اشعر كاني في قفص لا ارى لي منه مخرجاً وقد اطعتك في كل شيء كما رأيت ولا يمكنني ان انكر صدق نصيحتك لي كل مرة . لكنك تعلم ايضاً اني لا اقدر على البقاء هنا طويلاً ولي في مصر اناس ينتظرون رجوعي و... »
وسكت

« فادرك عبد الرحيم ما يعنيه فقال « تريد ان تخرج من هذا الحصن ؟ »

قال « نعم اريد ذلك . ارجو ان تساعدني عليه »

قال « وعدتك اني فاعل ما تريد ولكل أجل كتاب . اني مديرتي لخروجنا

كليتنا »

ففرح عماد الدين بهذه البشري وقال « وانت ايضا عازم على الخروج ؟ »

قال « نعم وربما اتفق خروجنا معاً »

قال « هذا هو الافضل .. قد اطمأن بالي الآن — وان كنت لا اعرف سبب

رغبتك في الخروج بعد ان صرت من خاصة الاسماعيلية واطلعت على اسرارها .. »

فأشار اليه بسبابته على فمه ان يسكت وقال « سوف نتكلم عن ذلك في فرصة

أخرى . اما من حيث رغبتك في الخروج فتدبيره علي حالما تفرغ من مهمتك . تعال

الي فتجدني هنا في اكثر الاوقات وانما يطلب منك ان تسهر على مهمتك المعلومة »

قال « حسناً . اني ذاهب كما قلت . » وأشار الى خصمه وقال « وهذا هو

الخنجر الذي سأغمده في صدر هذا الشيخ . لغير ذنب له عندي » ثم استأنف الكلام

قائلاً « ولكن الشيخ راشد الدين قال لي ان لارجل زوجة ستكون لي غنيمة فهل هي

معه في هذا المنزل . . وقد أوعز الي الشيخ ان اعول عليك ببعض التفاصيل فما هو

رايك ؟ »

قال « رأي ان تفتك بهذا الضيف بول فرصة . اما امرأته التي أشار اليها شيخنا

فليست هنا . وانما هي في منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر اهله

وخدمه »

قال « وسمعت من شيخنا انه يفضل ان يقتله خارج الحصن . فهل هو يذهب

الي هناك ؟ »

قال « قد اذن له بالذهاب متى شاء وهو يذهب كل ليلة تقريباً . فالافضل ان تغتم

وجوده خارجاً وتقضي عليه ومتى قتله اصبحت امرأته وسائر ما يملكه حلالاً لك »

فقال عماد الدين « اسمح لي ان استشيرك بامر آخر . ما قولك اذا قضيت مهمتي

هذه وأنا خارج هذا الحصن ان ابقى خارجاً وانصرف في طريقتي »

قال « نعم الرأي هو . وانا اتبعك على عجل »

فقال « وكيف تعلم اني فرغت من مهمتي »

قال « متى صرت في آخر هذا السهل او قد مشعلاً مزدوجاً وحالما أرى المشعال من

هنا اخرج اليك ونذهب معاً »

فانبطت نفس عماد الدين لهذا الرأي وهمم بالانصراف فامسكه عبد الرحيم وجانبه اليه وقال « احذر ان تحدثك نفسك وأنت خارج الحصن ان تفر بدون ان تقتل الشيخ سليمان . بل يجب ان تقتله ولو لم تستطع الفرار .. اسمع نصحي هذه المرة ايضاً .. »

قال « حسناً سأفعل كما تقول .. ولكن هل أقدر على الخروج من باب الحصن بلا اذن ؟ »

قال « اذا داهمك الوقت قبل ان استأذن لك يكفي ان تقول للبواب شعار الخروج فيفتح لك الباب »

قال « وما هو ذلك الشعار »

قال « قل له : حسن بن الصباح في الاموت : فيطلق سراحك »

قال « بارك الله فيك — قد انشرح صدري الآن وسأذكر لك هذا الفضل في جملة افضالك » قال ذلك ومشى نحو منزل الشيخ سليمان وقد اشتد الظلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجاً منه وبيده مصباح

فتقدم اليه كأنه رآه بالصدفة وحياء واكب على يده يقبلها وقال « كيف تحمل المصباح لنفسك وانا خادمك قد امرني مولانا الشيخ بخدمتك » قال ذلك وتناول المصباح منه ومشى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له . فأحب الشيخ ان يسترجع المصباح منه فأبى ان يعطيه اياه تخفيفاً لثقلته عنه وقال « اذا علم مولانا الشيخ الاكبر اني لم اقم بحق خدمتك غضب علي وعنفني »

فأطاعه، ومشى ولم يعترضه أحد لانه أسر الشعار الى البواب . مشى بين يدي الشيخ والطريق اكثره منحدر حتى اذا فرغ من الانحدار وقف الشيخ وقال « بارك الله فيك هات المصباح .. اني على مقربة من منزلي »

قال « اني أسير بين يديك الى باب المنزل »

قال « لا حاجة الى تعبك .. هذا هو المنزل » وأشار باصبعه الى نور ضعيف

لا يظهر سواه في ذلك السهل

فقال « بل اسير معك حسب امر مولاي »

فوقف الشيخ ومد يده ليتناول المصباح منه فامتنع عماد الدين عن ان يناوله اياه فغضب الشيخ وقال بانتهار « هات المصباح يا غلام . وانصرف لسبيلك .. »

« فقال عماد الدين « أهذا جزاء من يريد القيام بخدمتك ؟ » قال ذلك واستل
خنجره وأغمده في قلبه . فوضع الشيخ كفه على موقع الضربة وصاح « آه . قتلتني
يا لعين . ويلاه آه . ماذا فعلت معك ؟ . »

فهم عماد الدين ان يثني الضربة فأمسكه بيده الأخرى وهي ترتعد وقال « هذه
الطعنة تكفي لقتلي ... فأغمد الثانية بصدر تلك .. الخائنة ... انظر .. اني مسأحك
على قتلي .. لاني استحق القتل .. ولكن ... هناك امرأة .. هناك .. في هذا المنزل
حيث ترى ... النور ... امرأة ... احق بالقتل مني .. بالله ألا ذهبت إليها ... وقتاتها
وخذ ما في جيب من النقود والجواهر مكافأة لك ... » قال ذلك وسقط وعماد الدين
يستغرب قوله فاكب عليه وفتش جيبه فوجد فيه اوراقاً ونقوداً وجواهر استخرجها
وتركه يختبئ بدمه

مشى وهو يفكر في هل يذهب الى ذلك المنزل ام يسير توتاً الى مصر ومعه النقود .
فترجح لديه الذهاب الى مصر مخافة ان يكون في ذهابه الى المنزل ما يعيقه عن المسير
او ربما بعث راشد الدين في استقدامه فيعود الى الحصن . وقد كان في عزمه ان يمر
قبل قتل الرجل لو لم يلح عليه عبد الرحيم بقتله فاطاعه وهو لا يعلم السبب لكنه
استخاضه ورأى في طاعته خيراً

الفصل الثالث والستون

المنزل

فاما رجع الفرار وقف يفكر في الطريق المؤدي الى مصر وقد اشتد الظلام وهو
لا يميز الطرق ولا يعرف الجهات . وتذكر وصية القتييل وغرابتها واستدل منها انه ناظم
على امرأة يريد قتلها . فرأى ان يذهب الى المنزل ويستدل من هناك على الطريق . فمسح
خنجره وأغمده وأصلح من شأنه واطفاً المصباح حتى لا يراه احد ومشى نحو النور .
ولما اقترب من المنزل جعل خطاه خفيفة كأنه يلتمس الطريق وأصغى بسمعه وتطاول
بعنقه . وخطا خطوات قليلة حتى اوشك ان يدق الباب . فسمع رجلاً يخاطب رفيقاً له
في ذلك البيت قائلاً « ألم تر مصباح الشيخ ؟ »

فاجابه الآخر « رايت مصباحاً منذ هنيهة على بعد يشبه مصباحه »

قال « بل هو هو . بعينه . ثم انظراً . ماذا جرى له يا ترى ؟ »

قال لا تخف عليه ... انه طويل العمر .. »

قال « اراك تحسده على حياته وهو من اشقى خلق الله .. »

قال « صدقت لم ار اشقى حياة منه .. »

« فقطع الآخر كلامه قائلاً » بل اشقى منه هذه المسكينة التي لا يبرح يعذبها ويضربها و ... »

فقال « صدقت .. مسكينة .. ان قلبي يتقطع عليها احياناً .. وكم حدثتني نفسي

ان انتصر لها ... »

فقال ذاك « مالنا ولها .. انما نحن نلتفت الى مصلحتنا فاذا وفي لنا بما وعدنا به ..

حصلنا على السعادة الحقيقية .. اليس كذلك ؟ اذ نصير من كبار الامراء ... »

فقال الآخر « هل تعتقد كل ما يقوله الشيخ صحيحاً ؟ »

فقال « اذا لم يصح الا بعضه فاننا نكون سعداء .. يظهر انك لم تفهم حقيقة

مهمته عند شيخ الاسماعيلية »

قال « فهمتها .. كيف لا ؟ »

قال « لا .. لم تفهمها كما هي .. اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقاً للشيخ راشد

الدين سنان رئيس الاسماعيلية الآن قبل ان صار رئيساً وقد اعانه وارتكب معه اموراً

كثيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرئاسة . فحسده صاحبنا فاراد ان يعمل عملاً

يفوق به على صاحبه فذهب الى مصر وطمع بالخلافة .. »

فضحك الآخر وقال « بالخلافة ؟ »

قال « نعم طمع ان يكون خليفة وسمى نفسه ابا الحسن وادعى النسب الفاطمي

وصدقه الناس . واما مات خليفة مصر العاضد بايعه جماعة من المصريين . ثم انكشف امره

لصلاح الدين وقبض على رفاقه ونجا هو بنفسه وجاء الشام .. وانت تعلم ما جرى بعد

ذلك . وكيف كلف بعض الفدائيين الذين يقتلون القتييل بدرهمين فاخططوا له هذه

المرأة من بيتها وهي تكرهه ولا تطيق ان تراه .. »

فقطع الآخر كلامه وقال همساً « احذر ان تذكر الفدائيين بسوء . فاننا في ديارهم

وأما هذه المرأة فانت لا تعرف من هي : مسكينة كم قاست منه .. قبحه الله .. لا اظن

لها نجاة الا بموته .. »

فضحك ذاك وقال « انه طويل الحياة .. لا خوف عليه . لا سيما اذا نجح بمهمته عند

راشد الدين .. والحق يقال انه يجب لهذه المرأة ويعدها بكل خير اذا احبته . لكن

لا تجبه . فطبعاً هو يضربها »

ففرم عماد الدين من هذا الحديث انه قتل ابا الحسن لكنه لا يعرف علاقته بسيدة الملك وانما يعرف انه من الناهضين على صلاح الدين وانه نجا من القتل . فرقص قلبه فرحاً لانه سيذهب الى صلاح الدين بنخبين مهمين : الاول ذهاب الخطر عن حياته من راند الدين والثاني انه نجاه من ابي الحسن . لكنه سمع في اثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى اشفق عليها الخدم . وتذكر ان ابا الحسن أمره بقتلها واجازة عليه سلفاً . وكان عماد الدين قد اصبح بعد تعاقبه بسيدة الملك يشفق على كل انثى لاجلها . فاحس بميل الى انقاذ هذه المسكينة . ورأى الخدم مشعرين بظلامتها فتقدم الى الباب وطرقه فاجفل الرجلان وصاح احدهما « من الطارق ؟ » وقال لرفيقه « لعله مولانا الشيخ سليمان ألم اقل لك اني رأيت مصباحه ؟ »

فقال عماد الدين « افتح اني رسول من الشيخ سليمان »

ففتح احدهما الباب ودخل الآخر فاتى بالانور وادناه من وجه عماد الدين فرأياه وراهما فلم يذكر انه يعرف احدهما . لكنه عرف من زيتهما انهما من اهل دمشق . وكان قد لحظ ذلك من لهجتهما . وكلاهما في حدود الكهولة فتقدم احدهما وقال لعماد الدين « ماذا تريد ؟ »

قال « بعثني الشيخ سليمان بمهمة ومعني هذا المصباح علامة لصدق الرسالة فانظفأ في اثناء الطريق »

قال « صدقت وما الذي تريده ؟ »

قال « أمرني ان آتية بامرأته على بغاتها وهو في انتظارها بباب الحصن » فالتفت الرجلان احدهما الى الآخر لفتة الاستغراب ولسان حالها يقول « كيف يبعث الرجل يطلب امرأته على بغاتها الى الحصن وما الذي يريد منها هناك ؟ » فقال احدهما « وهل يطلب امرأته وحدها ؟ »

قال « يطالبها مع ما تريد حمله من متاعها وثيابها »

قال « علينا ان نبلغها الرسالة » ودخل الرجل والنور بيده وظل عماد الدين واقفاً وقد اصاخ بسمعه . واول شيء سمعه قبل وصول الرسول انين وتأوه وصوت مضعيف يقول : « ويلك من الله يا خائن .. ألا تخاف العقاب يوم الدين ؟ . اين انت يا موت .. متى تأتي ساعتى واتخلص من هذه الحياة .. آه .. ما بالهم يتآمرون علي ؟ . »

وما سمع عماد الدين ذلك الصوت اقشعر بدنه لانه كثير الشبه بصوت سيدة الملك .

وحدثته نفسه ان يتقدم ليراها ولكنه صبر ليسمع ما يدور بينها وبين الخادم . فاذا هو يقول لها « ان سيدي الشيخ بعث يطلب مولاتي اليه في هذا الحصن » فصاحت فيه « الى اين ؟ من هو سيدك هذا . ما بالكم تزعجونني بالاسئلة . دعوني لعلي انام لحظة انسى فيها مصائبني »

قال « لا تغضبي يا سيدتي .. ان مولاي بعث رسولاً خصوصياً من خدمة الشيخ راشد الدين ان يحملك اليه بما تريدن حمله من متاعك وثيابك و. »

فقلت « لا .. لا اذهب اليه .. الا محمولة على خشبة . دعوني منه . لعنة الله عليه . ويا ويله من الله .. ومن يوم الدين .. آه .. آه .. آه . حملني الى بلاد ليس فيها من يعرفني ولم يشفق على قلبي .. آه .. كل بلائي من هذا القلب .. »

واصبح عماد الدين يرتعد من عظم التأثير لان الصوت صوت سيدة الملك . ولو كان عائناً بما بينها وبينه لم يشك انها هي لكنه استبعد وصولها الى هناك وهي تحت ظل صلاح الدين . وانما ارتعد انتصاراً امرأة مظلومة اكراماً لحبيبتة لانها من جنسها . وزادت نغمته لان صوتها يشبه صوتها . ثم سمع الرجل يخاطبها قائلاً « والآن يا سيدتي ماذا تريدن ان تفعل .. لا بد لنا من اخذك اليه حسب امره وهذا رسوله واقف بالباب . وهل في الامكان رد طلبه .. ؟ فالأوفق ان تهضي راضية .. »

فلما سمعت تهديده صاحت صبيحة قف لها شعر عماد الدين قائلة « اتهددونني بالاخت قهراً ؟ . يريد هذا الشقي ان يحمني على ايدي الاصوص كما فعل قبل الآن ؟ . » ثم خفضت صوتها وغصت بدموعها وقالت « ولكن الله بعث الي في تلك المرة ملاكاً شجاعاً انقذني من مخالب الموت وانقذ شرفي وحياتي » ثم تهتت وقالت « آه . أين انت يا عماد الدين ؟ . »

فلما سمع عماد الدين نداءها لم يملك عن الوثوب كالاسد الكاسر وقد تحقق ان تلك المظلومة حبيبتة سيدة الملك واجابها « لبيك .. لبيك .. يا سيدتي .. » وما لبثت ان سمعت صوته حتى رأتة بين يديها وقد ازاح الخادم بيده وتقدم نحوها وهو يقول « مولاتي سيدة الملك انت هنا في هذا العذاب ؟ »

فشخصت اليه شخوص الابله كانها اصيبت بجنة وقد همدت عينها وعقد لسانها ولم تعد تستطيع النطق لكنها تماسكت وتوهمت نفسها في حلم فقالت وصوتها يتقطع وهو مختنق « عماد الدين ! عماد .. الدين ! آه .. ياليت ذلك كان في يقظة » ونطت وجهها بكفيها واخذت في البكاء

فتقدم عماد الدين نحوها وقد تقطع قلبه لرؤيتها من شدة الضعف ولو شاهدها بدون ان تناديه لما عرفها — فامسك بيدها وقال « انت في يقظة ياسيدي .. انا عماد الدين .. انت في يقظة .. روجي فداك لا تخافي .. »

الفصل الرابع والستون

الحقيقة

فلما سمعت صوته ثانية فتحت عيناها والدمع يغشاهما ونظرت اليه وهو في زي غير زيه . لكنها عرفت صوته وتفردت في وجهه وهي لا ترى شيئاً من الدمع فمسحت عيناها بكمها فعرفت عيناها فصاحت « عماد الدين ! انت عماد الدين ؟ من ارسلك الي ؟ .. لا . لا . لست عماد الدين . انت خادم ذلك الخائن جئت لتأخذني اليه .. بالله قل لي . هل انت عماد الدين ؟ » وضحكت كالابله المعتوه وقالت « انت عماد الدين ؟ .. ان المعجزات لا تتكرر .. نعم اتى عماد الدين لانقاذي في مثل هذا الضيق فياليتته يأتي الآن » ثم سكتت كأنها استرجعت رشدها ومسحت عيناها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظر متفرد وهو جاث بين يديها وعيناها شاخصتان في عيناها وقلبه يكاد يتفطر . فما لبثت ان تحققت انها ترى عماد الدين فصاحت ملء فيها « عماد الدين ! عماد الدين ! » وترامت عليه وقد اغمى عليها . فانهمزها وترا كض الخدم بالماء فرشها به وهو يمسح وجهها وعيناها بمنديله — وسقاها جرعة من الماء . فانتعشت واعادت النظر الى عماد الدين وهي تضحك ضحك طفل استرجع شيئاً كان يبكي لفراقه

لكن تلك الضحكة ابكت عماد الدين وقد شق عليه ان يرى تلك الملكة اخت الخليفة قد ذهب ملكها وصارت اسيرة في حيازة صلاح الدين ثم سيقت كرهاً مع ذلك الشيخ اللعين لكنه حالمًا تذكر ان قتله سرّي عنه وعاد الى تطين سيدة الملك وقال « صدقت انني ياسيدي عبدك عماد الدين »

فصاحت « الا تزال تقول انك عبيدي انت سيدي وتاج رأسي . انت منقذي من الموت والعار مرتين .. انت روجي .. انت حياتي .. انت .. اه انت .. دعني لقد خلعت العذار .. » وغطت عيناها خجلاً

فانابه عماد الدين لوجود ذنبك الخادمين وكان قد عرف كرههما لابي الحسن

وشفقتهما على سيدة الملك فقال لكبيرهما « ربما استغربتما ما رأيتما في هذه الليلة وقد علمت انكما ناقدان على ذلك الشرير وان قلبكما مع هذه السيدة اليس هكذا ؟ » قال ذلك ومد يده الى جيبه وفيه نقود ابي الحسن واعطاها بلا حساب .

فاجبهما كرمه واريحيته واجابه احدهما « صدقت .. ويظهر انك لست خادماً كما ادعيت . بل انت امير ارسلك الله لانقاذ هذه السيدة .. انها قطعت قلبنا واوشكنا ان نأخذ بيدها ونخلصها من ذلك الظالم »

فقال « اذن انما مسروران بنجاتها . »

قال « نعم ونحن رهينا الاشارة في اي خدمة تريدها منا ولو كانت بقتل ذلك اللعين » قال « لا حاجة الى قتله فقد كفانا الله شره في هذه الليلة . وهذه النقود التي كانت معه اعطيتكم بعضها وهذا البعض الآخر » ودفع اليهما دفعة اخرى فزادها دهشة فقال احدهما « قتلته ؟ لا رحمه الله .. »

وكانت سيدة الملك تنظر الى عماد الدين وهو يخاطب الرجلين بنظر الإعجاب والحب وعيناها غائرتان من الضعف والهزال وقد امتقع لونها . فلما سمعت التحدث بقتل ابي الحسن قبضت على عماد الدين واجتذبتة نحوها وهي تقول « قتلته ؟ » قال « نعم . وكنت اود اني عرفته قبل قتله لاشبعه قتلاً واخبره وهو في حشيرة الموت اني قتلته في سبيل طاعتك انتقاماً لفضاعته »

فقالت « ولماذا قتلته وكيف ؟ »

قال « فعلت ذلك بامر رجل يظهر انه كان عارفاً نقمي عليه فالح علي ابن اقلته وقال اني سأحمد مغبة عملي وقد اصاب » — ثم تذكر وصية ابي الحسن قبل موته وقال « لعنة الله عليه . . لم اسمع برجل اعظم شراً منه اتعلمون ماذا قال لي ؟ قال انه يستحق الموت ودفع الي هذه النقود وقال اطلب اليك ان تقتل امراتي التي في منزلي لانها احق بالقتل مني . . انظروا ماذا قال وهو في آخر لحظة من لحظات الحياة وقد اشرف على الآخرة . انه يريد ان ينتقم من هذا الملاك ويدفع اجراً على ذلك قد اخذتموه فانتم اولي به »

ثم التفت الى الرجلين وقال لهما « هل تحبان البقاء معنا ؟ »

قالا « نعم . . نحن في خدمتكما كما تشاءان »

قال فاتقدم اليكما ان تتأهباً لمسير الساعة . . هياً الاحمال ولنسافر الآمن »

فاخذوا في الاستعداد وجلس عماد الدين بين يدي سيدة الملك يسألها عن سبب وصولها

الى هناك . فاخبرته ان ذلك اللعين احتال في اختطافها على يد فدائي جعل نفسه خادماً وراقبها حتى خرجت من القصر الى بعض البساتين ومعها حاضنتها ياقوتة وقد كمن لها جماعة دسهم ابو الحسن فهجموا عليهما ودافعت ياقوتة دفاعاً حسناً لكنهم ضربوها حتى سقطت لا تبدي حراكاً . وان اولئك الاشقياء حملوها وحدها وخرجوا بها وهي مكمومة الفم مغلولة الايدي . وكان ابو الحسن بانتظارهم في ضواحي القاهرة واخذ يعذبها انتقاماً منها لانها كانت سبب شقائه وفشله ثم انتقل بها الى الشام وهناك استخدم هذين الخصبين وغمرهما بالمال . ثم جاء بهم جميعاً الى هذا الحصن فتركها معهما في ذلك المنزل ودخل على راشد الدين ليستعين به على الانتقام من صلاح الدين لعل بعض الفدائيين يقتله

هذه خلاصة ما قصته سيدة الملك على عماد الدين وهو جالس بين يديها يصني اليها بكل جوارحه . وهي لم يمر عاينها يوم في حياتها شعرت فيه بلذة الحياة مثل شعورها في تلك الساعة مع انها في برية مقفرة وقد اضناها الضعف - ولكن الحب مصدر السعادة كما هو مصدر الشقاء ولولاه لكانت الحياة جامدة باردة لا لذة لها ولا معنى فيها . وقص عليها عماد الدين مهمته في مصاحبة صلاح الدين وما قاساه من العناء وكيف انتهت بالفوز واصبح صلاح الدين في مأمن من الفدائيين . فلما سمعت اسم صلاح الدين اشرق وجهها وقالت « بارك الله في صلاح الدين انه نادر المثال » فضحك وقال لها « لم اقل لك ذلك في آخر ليلة رأيتك فيها وانت ناقة عليه ؟ » قالت « لم اكن اعرفه .. وفي كل حال فاني امتدح مروءته وعلو همته . واما انت فكنت تمتدحه في معرض آخر .. فهو في ذلك المعرض لا يزال حكيم عليه كما كان .. ولا سيما اذا قابلته بعماد الدين .. » وضحكت وكانت تتكلم وعيناها شاخصتان فيه تكاد تتلقفه بهما

ثم جاء الخادمان وقد اعدوا الركائب وشدوا الاحمال فركبوا جميعاً وقد توسط الليل واُطل القمر من وراء جبل السماق . فتذكر عماد الدين صديقه عبد الرحيم وما اوصاه به فلما امعن في السهل امر احد الرجلين ان يوقد مشعلاً مزدوجاً ففعل وسار الركب وبغلة سيدة الملك بجانب فرس عماد الدين وهما يقمان ما جرى لهما في تلك المدة الطويلة - والمحبة اذا غاب عن حبيبته ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها وهو يرى في ذلك لذة خصوصية لا يشعر بها غير المحبين . والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان شيء عن حبيبته كأنه يرى في كتمانها خيانة او كأن قلبها يطلبان

المكاشفة في كل شيء . فكما يتشاركيان ويتعابيان . فهما ايضاً يلذ لهما نقل ما في قلبه
لواحد الى قلب الآخر من حب او عتب او شكاية او حديث

الفصل الخامس والستون

عبد الرحيم

وهم في ذلك وقد بعدوا عن جبل السماق سمعوا وقع حوافر جواد وراءهم وكان
عماد الدين لا يفتري يتقرب سماع ذلك التماساً لمجيء صديقه عبد الرحيم وقد اصبح في
شوق لرؤيته ليستطلع منه ما لمح اليه به وهما في الحصن

فلما رجع وقع حوافر الفرس تباطأ في المسير ووقفت معه سيدة الملكة . ف اشار اليها ان
تبقى سائرة والخادمان يتبعانها فمشت وتأخر هو لحظة فوجد صديقه عبد الرحيم يسوق
فرسه كأن وراءه اناساً يطاردونه فناداه « عبد الرحيم ؟ »

فاجابه « عماد الدين ؟ »

قال « ما وراءك ؟ أراك مسرعاً هل عليك بأس ؟ »

قال « كلا . لكنني خفت عليكم »

قال « ما الذي اخافك علينا ؟ اننا في امان »

قال « كنت في اترك ساعة طعنت ذلك اللعين الطعنة القاضية وتربصت بعد ذلك
وانا اراقب حركاتك حتى علمت انك دخلت منزله ثم طال انتظاري ولم اشاهد مشعالك
نخفت ان تكون قد اصببت بسوء فكرت نحو المنزل من طريق آخر فلم اجد هناك احداً
ثم رأيت المشعال فهرعت اليك .. هل عليكم بأس ؟ »

قال « لا بأس علينا والحمد لله بل نحن في خير وبركة »

قال « هل علمت من هو الشيخ سليمان الذي قتلته ؟ »

قال « نعم علمت انه ابو الحسن صاحب ثورة القاهرة التي ذهبت بسببها الى مصر ..
بتلك الرسالة المباركة وجئتني بذلك الجواب الثمين .. وقد ظهر لي من الحاحك علي
بقتله ان في الامر سرّاً وقد ظهر الآن انك اعنتني على التخلص من هذا الشرير
وهذه بشرى سنزفها الى مولاي صلاح الدين ولك الفضل فيها »

قال « يستزف اليه بشرى اخبرني ان جهاته في ما مني من عائلة الاسماعيليين »

قال « طبعاً . وسأزف اليه واليك بشرى هي في نظري اهم مما تقدم »

فقال « وما هي ؟ »

قال « لم تسألني عن هؤلاء الرفاق من هم »

قال « كنت عازماً على سؤالك لكنني تنبأت انهم زوجة ذلك الشرير وخدامها

وهي الآن زوجك طبعاً »

قال « لا . لا . لم تكن زوجاً له قط »

قال « من هي ؟ . »

قال « اتذكر الرسالة التي جئتني بها من القاهرة والسيدة التي خاطبتك وذكرت لي

اعجابك بلطفها وكما لها ؟ »

قال بدهشة « سيدة الملك .. اخت الخليفة ؟ »

قال « نعم .. سيدة الملك .. اختطفها هذا الخائن على يد بعض الفدائيين اصحابنا

وجاء بها الى هنا تحف العذاب الشديد وقدر لي ان انقدها . »

فقال « هذه الراكبة على البغلة سيدة الملك ؟ »

قال « نعم هل تريد ان تراها »

قال « كيف لا .. ولكن تمهل قليلاً ريثما نصل الى مكان نزل فيه عند الفجر . اذ

لا بد لها من الراحة »

قال « هل انت ذاهب معنا الى مصر ؟ »

قال « اذا كنتم تقبلونني »

فاسرع في الجواب بلهفة قائلاً « ان ذلك يكون من حسن طالعي . كم احب ان

تكون معي فنعيش سوية لعلني اقدر على مكافأتك وسأخبر السلطان صلاح الدين بما كان

من فضلك في اتمام هذه المهمة وهي بشرى رابعة ازفها اليه . ولكن كيف تركت

طائفة الاسماعيلية بعد ان صرحت من كبار رجالها وصارت لك هذه الدالة على رئيسها

العجيب الغريب . اني لا انسى ما شاهدته من المدهشات في هذين اليومين .. »

فتشهد وقال « لو لم ارتق الى درجة المستنيرين لم يخطر ببالي ان اعتزل هذه الطائفة .

لم تنتبه الى تغيري بعد ذلك الارتقاء . لو بقيت فدائياً لظلت مشتاقاً الى الارتقاء

والاطلاع على الاسرار . فلما اطلعت عليها رأيتني كنت مغشوشاً وندمت على دخولي »

فقال « يا للعجب . لماذا لم يفعل ذلك الذين ترقوا الى مثل هذه الدرجة قبلك »

قال « لانهم يرون في بقاءهم ما يسد لهم المذات واسباب السعادة البدنية

لا يهمهم ان يتم لهم ذلك بتضحية الشبان الشجعان الفدائيين امثالك . اما انا فلا احب هذه العيشة بما فيها من الغدر »

فاطرق عماد الدين وتشاغل بتمشيط عرف فرسه بانامله وهو يعجب بكمال ذلك الصديق . ثم قال « الا تزال تعتقد كرامة الشيخ راشد الدين ومعجزاته ؟ » قال « كنت اعتقدها حتى ارتقيت وعرفت سرها فانكرتها .. وفي الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرها احتقرتها »

قال « اني شديد الرغبة في معرفة سر ما شاهدته من معجزات الرجل مثل اطلاعه على الاخبار قبل وصولها ومخاطبة الاموات والاحجار وسماع جوابها وناهيك بجنته التي يمشي حورها على سطح الماء وتخاطبن الاطيار وغير ذلك . انها من المعجزات المدهشة »

قال « صدقت انها مدهشة وكنت اود ان اكشفك سرها لولا اني اقسمت على الاحتفاظ بها الايمان المغلظة وانت لا ترضى لي الحث باليمين . لا ابي وان تركت هذه الجمعية وتخليت عنها فلم اتخل عن شرفي وضميري . لكنني اقول لك ان هذه المعجزات ليس فيها شيء من الخوارق التي لا يقدر عاينها الناس وايست هي من قبيل الوحي الالهي او المقدره الخصوصية كما كنا نظن . والآن قد دنونا من محطة فيها عين ماء وخان اعرف صاحبه ارى ان نزل هنا ريثما نستريح ثم نستأنف المسير كما تشاءون »

فاسرع عماد الدين الى سيدة الملك واخبرها برأي رفيقه عبد الرحيم فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح فنزلوا . وتقدم عماد الدين ومعه عبد الرحيم الى سيدة الملك فقدمه لها واخبرها عن فضله في نجاح مهمته فاثنت عليه كثيراً

الفصل السادس والستون

اللقاء

فلنتركهم ريثما يستريحون ولنعد الى القاهرة فقد طال سكوتنا عن اهلها . تركناهم بعد صلب عمارة واصحابه المتأمرين وخروج رسول عماد الدين (عبد الرحيم) بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس . وقد اطمان بال سيدة الملك وسرها انها خطرت ببال حبيبها وقد ذكرنا ما كان من نعمة ابي الحسن بعد فبشاه في دمشق . وانه اصبح

همه الانتقام من سيدة الملك باي وجه كان . فاعرى بعض الاشقياء من الفدائين على
الامتحان باختطافها وذهب هو الى مصر . فاعتنموا خروجها مع حاضنها الى البساتين
على مقربة من قصر صلاح الدين واختطفوها كما تقدم وسقطت ياقوتة وقد اغمي عليها
ولم تفق من الا بعد ساعات . وكان اللصوص قد نجوا بغنيمتهم فاخبرت قراقوش
بذلك فاطاع صلاح الدين عليه فغضب وامر بالتفتيش عن سيده الملك في كل مكان
وبث الجواسيس في الاطراف فلم يقفوا لها على خبر

فشق ذلك عليه كثيراً وزاد غضبه لانقطاع اخبار عماد الدين وندم على الاذن
له في الذهاب لانه احس بحقيقة منزلته بعد ما رآه من ثبات عزمه في خدمته . وكان
يود ان يعود لزوجته بسيدة الملك ويفرح به فكان غيابهما سبباً لتغيب عيشه وكاد
يشغل خاطره عن حروبه مع الصليبيين وهي على اشدها في ذلك العهد وقد اخذ تهباً
لفتح بيت المقدس

وهو في ذلك جاءه قراقوش يقول « ان رسول عماد الدين الذي جاءنا في المرة
الماضية اتى ومعه بشرى هامة » فامر بادخاله ورحب به فوقف متأدباً فقال له
« ما وراءك ؟ انك لا تأتينا الا بالبشارة الحسنة »

قال « ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان . اخبر مولاي ان عبده عماد
الدين عاد من مهمته سالماً ظافراً وكان يود ان يحمل هذه البشارة بنفسه لكنه
شغل بسيدة الملك فاستأذنته ان يحمل هذه البشارة اليكم قبل وصوله »
فصاح فيه صلاح الدين « وسيدة الملك معه ؟ »

قال « نعم يا مولاي ؟ »

فالتفت الى بهاء الدين يلتمس مشاركته في الاستغراب فقال بهاء الدين « ان
ذلك غريب .. هذه المرة انقذها ايضاً من الخطر؟ — اليس ذلك دليلاً على انهما خلفا
ليقتربنا ؟ »

قال « لاشك في ذلك .. وهذا غاية ما اتمناه فابعث من يستقبلهما في موكب يليق
بقولهما »

فاعد قراقوش موكباً حافظاً استقبال القادمين في اخانقاه بجوار القاهرة ومعه
هوج لسيدة الملك . ولما دنا الموكب من قصر صلاح الدين حولوا الهودج الى قصر
سيدة الملك وكانت ياقوتة قد علمت بقدمها فاستقبلتها وترامت على يديها تقبلهما وشكرت
الله على هذه النعمة . ورايت الضعيف لا يزال ظاهراً في وجهها فاخذت تداعبها

بذكر عماد الدين وانه لا يلبث ان يصير زوجها فقالت لها « هل رأيت يا يا قوثة ان هذا الشاب يستحق قلبي ؟ . انه انقذني من الموت والعار مرة أخرى » وقصت عليها خبرها باختصار

اما عماد الدين فترجل قبل الوصول الى قصر السلطان ومشى حتى دخل عليه واكب على ركبته يقبلها ويقول « اشكر الله لانه اراني وجه مولاي السلطان في خير » وتقدم اليه الوزراء والقواد وساموا عليه ولم لا يعرفون الغرض من مهمته ولكنهم جاروا السلطان باكرامه

ثم امر السلطان بخلوة لم يشهدا غير بهاء الدين وعماد الدين . وسأله عن نتيجة مهمته فقص عليه ما جرى من اوله الى آخره فاعجب بهمته وما اظهره من الصبر وما لاقاه من المصاعب والمشاكل وتغلب عليها جميعاً . وكان اغرب ما سمعه قتله ابا الحسن وانقاذ سيدة الملك . فاما وصل الى هنا ابتسم السلطان وقال « بارك الله فيك .. هذه همة عالية .. رحم الله والدي انه كان صادق النظر في الرجال . توسم فيك مناقب كبار القواد وقد صدق توسمه لانك اتيت ما لم يستطعه سواك من رجالنا . فانت الآن من كبار قوادنا ورجال خاصتنا »

والتفت الى بهاء الدين وقال « يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذي فر من بين يديك من قصر النساء وشكوته الي — الا تراه يستحق ان يكون زوجاً لسيدة الملك وقد انقذنا من ابي الحسن وغيره كما سمعت »

قال « انه اهل لكل التفات ويكفي ان يكون مولانا نجم الدين قد توسم فيه ذلك .. »

قال « قد ان له الآن ان يستريح من وعشاء السفر — واحب ان تحتفلوا بزواجه احتفالاً يليق بالملك وكبار القواد »

فاكب عماد الدين على يدي صلاح الدين يقبلهما فقبل صلاح الدين رأسه ثم قال عماد الدين « استأذن مولاي بكلمة عن صديقي عبد الرحيم فقد سمعت بلاءه في خدمتنا وسيكون عوناً لنا في حروب الافرنج لانه يعرف بيت المقدس بيتاً بيتاً و... » فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال « انه اهل ليكون من خاصتنا وهذا بهاء الدين يعرف له قدره وينزله في منزلته . واحب الآن ان ارى سيدة الملك والمنشأ بالسلامة »

فخرج بهاء الدين الى قصر النساء بشر سيدة الملك بزيارة السلطان . فاستعدت

لإستقباله، فلما أقبل عليها حياها وقال « قد أصبت لانك فضات عماد الدين عليّ فإنه
انقذني من الموت مرتين وخلصنا من أشر الأعداء . فهو جدير بك ونعقد له عليك
بما يقتضيه مقامك »

فحجّلت سيدة الملك خجلاً يمازجه الفرح والاعجاب واطرقت حياءً ثم رفعت
بصرها إليه وقالت « لم أفضل عماد الدين إلا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين وقد
رفعه بسببها من عامة الناس إلى مناصبتهم وجعله جليسه . وهب أي قلت بتفضيله من
بعض الوجوه لكنني أنا وهو لا نفضل أحداً على صلاح الدين . ونحن في رعايته
وتحت ظله »

فأعجبه جوابها فقال « كنت في رعايتي ولكنك الآن في رعاية البطل عماد
الدين ويحق لك أن تفتخري به كما يحق له الافتخار بك فاهناً » قال ذلك وخرج
وغادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحاً وقد نسيت كل مصائبها الماضية
واحتفلت معمر بزفاف سيدة الملك إلى عماد الدين احتفالهم بزواج الملوك

﴿ تمت الرواية ﴾

